بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

المدينة

جزائر البصرة

في العهدِ العُثمانيّ (١٥٤٦-١٧١٨م)

دِراسةٌ في الأحوالِ السِّياسيَّة والاجتماعيَّة

تأليف

حُسام طُعمة ناصِر مُشتاق عِيدان اعبيد

مُراجعة وتدقيق وضبط

قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية

مركز تراث البصرة

العتبة العبّاسيّة المقدّسة
قسم شؤون المعارف الإسلاميّة والإنسانيّة
مركز تراث البصرة
البصرة – شارع بغداد – حيّ الغدير
هاتف: ٠٧٨٠٠٨١٦٥٩٧ – ٠٧٧٢٢١٣٧٧٣٣
البريد الإلكتروني: basrah @ alkafeel.net
ص. ب/ ٣٢٣

ناصر، حسام طعمة، ١٩٧١-
المدينة : (جزائرالبصرة) في العهد العثماني (١٥٤٦-١٧١٨ م) : دراسة في الاحوال السياسية والاجتماعية / تاليف حسام طعمة ناصر، مشتاق عيدان اعبيد ؛ مراجعة وتدقيق وضبط مركز تراث البصرة ؛ تقديم الاستاذ الدكتور حميد احمد حمدان التميمي .- الطبعة الأولى.-كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية ، مركز تراث البصرة، ١٤٣٧ هـ . = ٢٠١٥.
١٧٨ صفحة : خرائط ؛ ٢٤ سم
المصادر: ص. ١٦١-١٧٣ ؛ وكذلك في الحاشية.
١ .المدينة (البصرة، العراق)--تاريخ--الحكم العثماني ٢. المدينة (البصرة، العراق)--الاحوال الاجتماعية-- الحكم العثماني. ألف. اعبيد، مشتاق عيدان، ١٩٧٨- ب. التميمي، حميد احمد حمدان، مقدم. ج. العتبة العباسية المقدسة. قسم شؤون المعارف الاسلامية والانسانية. مركز تراث البصرة. د. العنوان.
DS79.9.M3 N3 2015
الفهرسة والتصنيف في مكتبة العتبة العباسية المقدسة

-بطاقة الكتاب-

اسم الكتاب: المَدِيْنَةُ (جزائرُ البصرةِ) في العهدِ العثمانيّ (١٥٤٦-١٧١٨م) - دراسةٌ في الأحوالِ السِّياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ.
تأليف: .....حسام طعمة ناصر - مشتاق عيدان اعبيد.
جهة الإصدار: .....العتبة العبّاسيّة المقدّسة، قسم شؤون المعارف الإسلاميّة والإنسانيّة.
مراجعة وتدقيق وضبط: .....مركز تراث البصرة.
الطبعة: ..... الأولى.
المطبعة: ..... دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع.
سنة الطبع: .....١٤٣٧هـ - ٢٠١٥م
عدد النسخ: ..... (١٠٠٠) نسخة.
حقوق الطبع والنشر محفوظة على الناشر

بِسْمِ اللهِ الرّحْمنِ الرّحِيْمِ
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأوْلِي
الأَلْبَـابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن
تَصْدِيقَ الَّـــذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
صَدَقَ اللهُ العليُّ العظيمُ
سورة يوسف: (١١١)

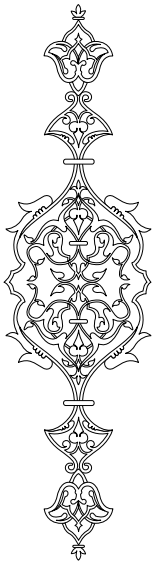

«يا جلجامشُ، خُذْ (مَرديّاً) وادفَعْ به...

يا كوخَ القَصَبِ...

يا كـوخَ القصبِ...

يا رجـلُ ...

قـوِّضْ البيتَ، وابنِ لَكَ سفينةً»

ملحمة جلجامش

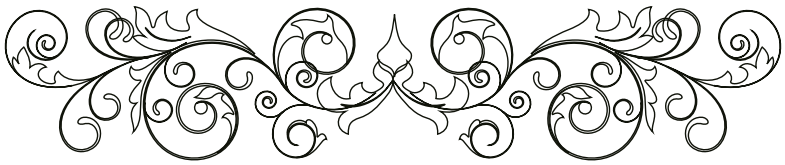

(الإهداء)

إلى كُلِّ مَنْ يجدُ نفسَهُ بينَ السُّطورِ

تاريخاً ... وانتماءً...

مقدّمة النّاشر

بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

الحمدُ لله ربّ العالمينَ، بارئ الخلائق أجمعينَ، حمداً دائماً بدوام نورِهِ وعزّ جلاله، وصلاتُه وسلامُه على صاحب لواء الحمدِ وركنِ دوحةِ الإيمان، خاتم الأنبياء والمرسلينَ، ومنارِ المتّقينَ، المصطفى الأمجدِ المحمودِ الأحمدِ أبي القاسم محمّدٍ، وعلى آله النجباء، الأصفياء سادةِ الخلقِ ودعاةِ الحقّ، الطيّبينَ الطاهرينَ.

بحمدِ الله ما تزالُ خطى مركز تراث البصرة التابع لقسمِ شؤونِ المعارفِ الإسلاميّةِ والإنسانيّةِ في العتبةِ العبّاسيّةِ المقدّسةِ حثيثةً في تقصّي النظر وإجالة الفِكَر بتراث هذه المدينة الزّاخرِ، حِرصاً منه على حِفظ كينونةِ هذه المدينة الحضاريّة السّامقة، ذات الأبعاد الفكريّة المتعدّدة – وإن تعرّضتْ لكثيرٍ من الجفاء والإقصاء مِنَ الأبعدينَ، فضلاً عن الأدنينَ– فكان لابدُّ لأبنائها من أنْ يتدرّعوا الحزمَ، ويشحذوا الهِمَم، ويستنفروا الطاقات؛ ليمضوا في نفضِ غُبار السِّنينَ عن تراثِ مدينتهم العريق، وقلعِ قَتادِ الحِقدِ الذي غُرِسَ في ساحتها الغنّاء، فالأملُ معقودٌ على ذوي البَصَرِ بالتراث، وعُمْقِ المدينة أنْ ينبروا للتنقيح والتهذيب والإبراز لجلائلها، وفي مجالاتٍ شتّى.

وها نحن اليوم إزاءَ جهدٍ رائعٍ قدّمه باحثانِ كريمانِ حول أحوالِ مدينةٍ من مدنِ البصرة الفيحاء، عُرفتْ بتأريخها المُورِق، وبزخارةِ علمائها، الذينَ كانتْ لهم المواقفُ المشرّفةُ في إحياء السُّننِ، وطمسِ الفِتن، وبناء المجتمع، ودفعِ المظالم، ألا وهي (المِدَيْنَة).

ومِن المعروف أنّ تأريخَ مناطق شمال البصرة – التي يغلبُ عليها الطابعُ الرِّيفيُّ الحيويُّ البديعُ– كالمِدَيْنَة، والقُرنة، وقرية الخاصّ، والشّرِش، وناحية الدّير، والسُّويب،

وغيرها، قدْ شحّتْ المؤلّفاتُ حولها وحولَ أعلامها ونشاطها، وخصوصاً التي تتناولها على نحوٍ مستقِلٍّ.

إنّ الحِقبة التي كُتِبَ بها تاريخ هذه المدِينة يُعَدُّ من الحِقب المهمّة، وبصورةٍ عامّة، فإنّ مرحلةَ الحكم العثمانيّ تُعدُّ من مراحل التاريخ البارزة والمهمّة التي تغيّرتْ فيها كثيرٌ من معالم المدن والبلاد، بحكم السّياسة العثمانيّة، وعليه، فإنّ البحثَ الحقيقيَّ من أجل التعرّف على معالم البصرة وتأريخها ينبغي أنْ يُبحثَ في وثائقِ تلك الفترة الزمنيّة؛ للوصول إلى معلوماتٍ دقيقةٍ عن الوقائع والحوادث و الأماكن والأشخاص.

وممّا لاشكّ فيه أنّ هذا الكتاب -الذي نرومُ نشرَه- يُعدُّ إضافةً مهمّةً لتأريخ هذه المنطقة من مناطق شمال البصرة، فضلاً عن المدن المحيطة بها، وممّا يزيدُ معلوماته قيمةً أنّ الباحثَينِ هما مِن صُلْبِ هذه المدينة.

وقدْ حرصَ مركزُنا على بذل الجهدِ والوسعِ من أجل العناية بالكتابِ ومراجعته، فضلاً عن تدقيقه لغويّاً؛ ليخرج سالماً منْ هذه الجهة، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وقدْ تقدّمتْ منّا بعضُ المراجعاتِ العلميّةِ مع مؤلّفَي الكتاب؛ للوصول إلى الصّيغة العلميّة المناسبة حول بعض المطالب، فلمْ يألَيَا جهداً في المتابعة، فلهما الشّكر والتقدير على ما بذلاه في سبيل خدمة بصرتهم العزيزة، آملينَ أنْ يتواصلَ الجهدُ منهما ومِن المعنيّينَ في إثراء تأريخ مناطق البصرة الطيّبة المختلفة؛ تجسيداً ومصداقاً لدخولهم دائرة ما روي من أنَّ: «حبُّ الوطنِ مِن الإيمان»[1]، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

مركز تراث البصرة

محرّم الحرام ١٤٣٧هـ- تشرين الأوّل ٢٠١٥م

البصرة الفيحاء

---

(١) سفينة البحار، الشيخ عبّاس القمي: ٨/ ٥٢٥.

تقديم

شرّفني الباحثان السيّدان حسام طعمة ناصر ومشتاق عيدان اعبيد بالطلب لي بتقديم كتابهما الموسوم [الْمَدَيْنَةُ(جزائرُ البصرة) في العهد العثماني (١٥٤٦-١٧١٨م)، دراسةٌ في الأحوالِ السِّياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ]، والذي أسعدني حقّاً أنّهما من أبناء قضاء (الْمَدَيْنَةِ)، فبحثهما بتاريخه هو وفاءٌ، وتأكيدُ انتماءٍ، يسعدُ الإنسان بتقديمه لموطنه حيث نشأ وترعرع ودَرَجَ في أحيائه.

(الْمَدَيْنَةُ) واحدةٌ من مدن العراق المهمّة، وقدْ عرّفتها إحدى الدراسات التاريخيّة المبكّرة بأنّها «مدينة بني منصور، ومِن قراها الصبَّاغيّة ونهر صالح وبني حميد ونهر عنتر وديار بني أسد، وأشهر قبائلها ربيعة»، وهي قبائل عربيّة أصيلة ذات شأنٍ في التاريخ... (الْمَدَيْنَةُ) اليوم قضاء من أقضية محافظة البصرة المهمّة، وفيه نخبةٌ كريمةٌ من مثقّفيها، وهو غنيٌّ بعطائه الاقتصاديّ المتنوّع.

قرأتُ الكتابَ بإمعانٍ، ورأيتُ فيه مادّةً علميّةً قيّمةً في تاريخ هذا القضاء، فـ(الْمَدَيْنَةُ) من الأماكن التاريخيّة المهمّة، وكان لها دورٌ بارزٌ في التاريخ العراقيّ إبّان مدّة الحكم العثمانيّ، وبخاصّة في حدود القرنين السّادس عشر والسّابع عشر الميلاديّين، وهي المدّة الزّمنيّة التي تناولها الكتاب بالدّراسة، وفيها أبرز عشائرها(آل عليّان)، التي ورد أنّها من قبيلة طيء، وتزعّمتْ عشائر منطقة الجزائر، وهي بهذا التكتّل العشائريّ الكبير خاضتْ معاركَ حاسمةً في مواجهة الإدارة العثمانيّة في جنوب العراق، وقدْ تطرّق الباحثانِ الكريمانِ إلى ذلك بتفصيل وافٍ، واعتمدا على مصادر تاريخيّة أصيلة.

كان جهاد هذه القبائل العربيّة صفحة مهمّة في مقاومة الاحتلال والسّعي لاسترداد الحرّيّة والكرامة، وهو أمرٌ يستحقُّ البحث والدِّراسة والجهد المضني الذي بُذِل من أجله.

لقدْ كُتِبَ عن (الْمَدَيْنَة) في دراساتٍ جامعيّةٍ سابقاً، كان منها على سبيل المثال لا الحصر دراسة الأستاذ (حسين محمّد القهواتي)، المعنونة بـ(العراق بين الاحتلالين العثمانيّ الأوّل والثاني ١٥٣٤-١٦٣٨م، دراسة في الأحوال السّياسيّة والاقتصاديّة)، إلّا إنّ ما ضمّته هذه الرِّسالة عن القبائل التي انتفضتْ بوجه العثمانيّين كان أقلَّ من عشرين صفحة لا أكثر؛ لأنّ الموضوع كان جزءاً من الدّراسة التي عُنيتْ بالعراق ككلٍّ.

وكان (لِلْمَدَيْنَة) مكانٌ في كثيرٍ من الدّراسات التاريخيّة التي تناولتْ منطقة الجزائر والعراق بعامّة، سواء كانت دراساتٍ جامعيّةً، أمْ كتباً وأبحاثاً في دوريّاتٍ علميّةٍ محكّمةٍ، إلّا إنّي وجدتُ في هذا الكتاب جهداً كبيراً وحِرصاً شديداً على تقديم المعلومة التاريخيّة الدّقيقة، والأمانة في تدوينها، فضلاً عن المنهج التاريخيّ العلميّ الذي انتهجه الباحثان، وهو أمرٌ يستحقُّ التقدير والإشادة بهذا الجهد العلميّ، الذي قدّم إضافةً علميّةً لتاريخ (الْمَدَيْنَة)، وسيحتلُّ مكانه اللائق في المكتبةِ العراقيّةِ.

أسألُ اللهَ العليَّ القديرَ أنْ يمُنَّ على الباحثينِ الفاضلينِ بالتوفيق والسَّداد، وأنْ تكون هذه الدّراسة مفتاحاً لدراساتٍ علميّةٍ أُخَر أشمل وأوسع، واللهُ الموفِّق.

الأستاذ المتمرّس الدّكتور

حميد أحمد حمدان التميميّ

البصرة ٢١/ آذار/ ٢٠١٥م

المقدَّمـــة

أدّتْ منطقةُ البطائح في جنوب العراق دوراً مهمّاً ومؤثّراً في الحياة السّياسيّة منذ العصور القديمة مروراً بالعصرينِ الإسلاميّ والحديث، وانتهاءً بعصرنا الحالي؛ إذْ كانتْ مَسرحاً للعديد من الحركات والتمرّدات ذات السِّمة الثوريّة، قامتْ بها عناصر سكّانيّة متباينة الميول والمذاهب والأصول القبليّة، معتمدةً في ذلك على ماتفرَّدتْ به المنطقة مِن مزايا جغرافيّة وبيئيّة، جعلتها ملجأً آمناً لمن استجار بها من جور السّلاطين والحكّام، وبيئةً ملائمةً لنموّ روح المقاومة لدى سكّانها.

وبما أنَّ منطقة الجزائر جزءٌ مِن البطائح، فقد شاركتْها أدوارَها التاريخيّة، وأصبحت أكثر تأثيراً فيها بعد قيام إمارتَي ربيعة وآل عليّان في (المْدَيْنَة)، اللَّتينِ أدّتَا دوراً مهمّاً في تاريخ الأحداث، لاسيّما عند دخول العثمانيّينَ البصرةَ عام (١٥٤٦م)، وما تبِعه من وقائع، كان لسكّان الجزائر الأثر الكبير فيها؛ إذْ كانت (المْدَيْنَة) -حينذاك- حاضرةَ الجزائر، ومقرَّ أُمرائها.

انطلاقاً من تلك الأهميّة، جاءَ اختيارُنا دراسةَ تاريخ (المْدَيْنَة) في تلك الحقبة، التي سعينا قدْر المستطاع- وبما توافَر لدينا من المصادر- في تتبُّعها منذ قيام إمارتي آل عليّان في نهر صالح، وربيعة في نهر عنتر في حدود عام(٦١٣هـ - ١٢١٦م)، حتّى انتهاء إمارة آل عليّان على يد أسرة آل أفراسياب، وما تبِعها من أحداثٍ انتهتْ بوقوع (المْدَيْنَة) تحت نفوذ أمراء المنتفق في أواخر القرن السّابع عشر، وبداية القرن الثامن عشر الميلاديّينِ.

ولمّا كان التاريخ مرآةَ الأمم، يعكسُ ماضيها ويترجمُ حاضرَها، وتستشرفُ من

خلاله مستقبلَها، كان من الأهمّيّة بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، وإظهاره للأجيال الحاضرة واللّاحقة؛ لِذا تُعَدُّ هذه الدِّراسة المتواضعة محاوَلةً لإماطة اللِّثام عن الدَّور التاريخيّ الذي تكفَّله أهلُ الجزائر عامّة، و(الْمَدَيْنَة) خاصَّة في التصدِّي للعدوان الخارجيّ، في مرحلةٍ مهمّةٍ من تاريخ العراق إبّان الاحتلال العثمانيّ للبصرة، وبروحٍ من المقاومة البطوليّة التي قلَّ نظيرُها، لاسيَّما أنّهم كانوا المعقل الأخير للمقاومة في البصرة -إنْ لم يكنْ في العراق- الذي ظلَّ عصِيًّا على العثمانيّينَ حتّى انتقال ولاية البصرة إلى أسرة آل أفراسياب في حدود عام (١٥٩٦م).

على الرُّغم مِنَ التوسّع النِّسبيّ في حجم الدِّراسات الّتي عالجتْ تاريخ البصرة في عصورها المختلفة، إلا أنّها لم تتناول تاريخ الجزائر بشكلٍ يتناسبُ ومستوى الأحداث الفاعلة فيها، لاسيَّما في هذه المدّة، الأمر الذي حفّزنا للبحث في تاريخ المنطقة، وإنّ هذه الخطوة لا تتعدّى كونها محاولةً متواضعةً لرسم خطٍّ تأريخيٍّ عامٍّ لمنطقة الجزائر من الممكن أنْ تكون أساساً لدراسةٍ أكاديميّةٍ أوسع وأدقّ تفصيلاً، ولتُسهم في إبراز صفحةٍ من صفحات تاريخ البصرة الحديث.

تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ غاية البحث ومحوره الأساس تتركّز في إبراز تاريخ قضاء (الْمَدَيْنَة) بإطاره الجغرافيّ الحالي، وإنَّ إطلاق تسمية الجزائر في طوايا البحث هو إشارة إلى (الْمَدَيْنَة)؛ لاقتران اسم الجزائر بها في أغلب المصادر التاريخيّة المعاصرة للأحداث؛ كونها مقرّاً لأُمرائها، فقد ذكر فتح الله الكعبيّ- وهو ممّن عاصر أحداث المنطقة - بأنّ الجزائر «علمٌ لمواضع كثيرة، أوّلها قرية بني منصور، وبني حميد، ونهر عنتر [مركز إمارة ربيعة]، ونهر صالح [مركز إمارة آل عليّان]، وديار بني أسد، وديار بني محمّد، والفتحيّة، والقلاع، ونهر السَّبع، والباطنة، والمنصوريّة، والإسكندريّة، وينتهي شمالاً إلى كوت

معمّر»[١].

إنَّ أغلب المواضع التي أوردها الكعبيّ تقعُ في الحدود الإداريّة لقضاء (المْدَيْنَة) الحالي، وإنّ هذا التحديد الجغرافيّ لشاهدٌ من ذلك العصر، يدلُّ على اقتران تسمية الجزائر -آنذاك- بـ(المْدَيْنَة)، وقدْ أكّدَ ذلك كُتّابٌ متأخِّرونَ، منهم: علي ظريف الأعظميّ[٢]، فيما ذهب علي الشرقي في تحديده الرُّقعة الجغرافيّة للجزائر إلى أبعد من ذلك؛ إذْ قال: «أمّا الجزائر، فقراها كثيرةٌ، ولم تزل تُسمّى بأسماء الأنهار التي تمرُّ بها، أو القبائل التي تقطنها، وكانت عاصمة هذه الجزائر واسط، ثمَّ البصرة، ثمَّ الحويزة، ثمَّ (المْدَيْنَة)، وهي مدينة بني منصور، وأشهر قراها القديمة الصّبَّاغيَّة ونهر صالح، فقد أخرجتْ هاتان القريتان كثيراً من أهل العلم والأدب، وفي النجف اليوم أسرٌ كبيرة ترجعُ إليهما، وكذلك قرية بني حميد، ونهر عنتر، وهي أكبر مواضعها، وديار بني أسد، والفتحيّة، وديار بني محمّد، والقلاع، ونهر السّبع، والباطنة، والمنصوريّة، والإسكندريّة، والبلتان، وكوت معمّر، ويضمُّ إلى الجزائر مواضعَ أُخَر تصلُ إلى حدود البصرة، ولعلّ ذلك كان في عهد اتساع سلطة أمراء الجزائر من آل عليّان، ومنها: القبان والبثق، أو كما يقولونَ: البثج، وعبادة، وبني مشرق، وبني حطيط، وآل حسين، وآل غريق، وشطّ بني أسد، وآل الشيخ راضي، وبني منصور، والشّرِش، وآل سعدون، والسُّويب، والهارثة، وقرمة علي، والنشوة، ونهر عمر، وكتيبان، ومزيرعة، والرّوطة، والباغجة، وآل أحول، وكانت الجزائر تتصل بالبصرة والحويزة»[٣]، ووردَ في مخطوطة السيّد (علي خان الموسويّ المشعشعيّ)عن واردات البصرة السنويّة في عهد (علي باشا أفراسياب) (١٦٠٣ -١٦٤٧م) ما نصُّه:

---

(١) زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر، الدّار العربيّة للموسوعات، ط٢، بيروت، ٢٠٠٢م: ص٣٧-٣٨.

(٢) يُنظر: علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة، بغداد، ١٩٢٧م: ص١٣٠.

(٣) علي الشرقي، العرب والعراق، شركة الطبع والنشر الأهليّة، ط١، بغداد، ١٩٦٣م: ص١٥٩.

«...ونهاية معموريّة البصرة في أيّامه إلى نهاية[كذا]، بلغ قمرقها ثمانينَ ألف تومان، والحمّار ونواحيه من الغرّاف وغيره، اثنا عشر ألف تومان، والجزائر مثله، وشطّ العرب من حدّ البصرة إلى القرنة شمال من الصّفحتين من السُّويب وسحاب، ثلاثة آلاف تومان، والجنوب من الصّفحتين معَ كارون والحفّار والقبّان، سبعة آلاف تومان، وإسكلّة السُّفن الغربيّة الرّوميّة خمسة آلاف تومان، وطمغة القُرنة أربعمائة تومان...»[١].

ويُستدلّ من التقسيمات الإداريّة الواردة في النصِّ (الحمّار، والجزائر، وشطّ العرب، والقرنة): أنّ منطقة الجزائر في عهد (علي باشا أفراسياب) لا تشتمل إداريّاً على منطقتي القرنة والحمّار، اللَّتين وردتا مستقلّتين عنها، مَا يؤكّد أنّ الجزائر -آنذاك- تنحصر في المنطقة مابين القُرنة والحمّار، وهي تشير بوضوح إلى (الْمَدَيْنَة) الحاليّة وتوابعها؛ كونها - وكما ذكرنا سابقاً- حاضرة المنطقة ومركز أمرائها، وهذا ما أكّدته الوثائق العثمانيّة؛ إذْ أشارت إلى أنّ «(الْمَدَيْنَة) أعظم قلاع الجزائر وأحصنها»[٢].

وفي ضوء التعريفات والاستدلالات التاريخيّة السّالفة يتأكّد لنا أنّ تسمية الجزائر بمفهومها العام قدْ تتّسع أحياناً لتضمَّ إليها مساحات جغرافيّة واسعة من الأهوار، ومن الواضح أنّ المراد منها إداريّاً - خلال مدّة البحث - هو منطقة (الْمَدَيْنَة) تحديداً.

اقتضتْ طبيعة الموضوع تقسيمه على فصلين يسبقهما مقدّمة وتمهيد، تناول التمهيد تكوين منطقة بطائح جنوب العراق وطبيعتها الجغرافيّة، ومِن ثَمَّ البحث في الدّور

---

(١) السيّد علي خان الموسويّ المشعشعيّ، الرحلة المكّيّة، نسخة خطّيّة عربيّة في مكتبة سبهسالار (مطهّري حاليّاً)، رقم ١٥١٣، ص٦٢.

(٢) حكم موجّه مِن الدِّيوان الهمايوني في إسطنبول إلى بكلربكي بغداد في ٢٩/ جمادى الأولى/ ٩٥٩هـ الموافق ٢٣/ آيار/ ١٥٥٢م، فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة أواسط القرن العاشر الهجريّ/ السّادس عشر الميلاديّ، المجلّد الثاني، إعداد وترجمة ودراسة فاضل بيات، استنبول، ٢٠١١م: ص١٠٩-١١١.

السّياسيّ للمنطقة، منذ تأسيس إمارتي آل عليّان وربيعة في (المْدَيْنَة) عام (١٢١٦م)، حتّى بداية الاحتلال الصّفويّ للعراق عام (١٥٠٨م)، فيما تناول الفصل الأوّل أوضاع (المْدَيْنَة) خلال القرنِ السّادسَ عَشَر للميلاد، وموقف أهلِها من الاحتلالِ العثمانيّ.

أمّا الفصلُ الثاني، فقد تناول (المْدَيْنَة) خلال القرن السّابعَ عشر للميلاد، مسلِّطاً الضّوء على علاقة أُمرائها مع الحكومة الأفراسيابيّة في البصرة، وصولاً إلى الصِّراع العثمانيّ الأفراسيابيّ وأثره في المنطقة، مع نبذةٍ عن الأوضاع الاجتماعيّة في الجزائر.

اعتمدت الدّراسة على عددٍ من الوثائق والمصادر الأساسيّة والمراجع الثانوية، يأتي في مقدّمتها الوثائق العثمانيّة المنشورة التي أعدّها وترجمها ودرسها الأكاديميّ العراقيّ الدّكتور فاضل مهدي بيات في كتابه الوثائقيّ المعنون (**البلادُ العربيّة في الوثائق العثمانيّة**)، الذي يقعُ في ثلاثة[1] مجلّدات صدرتْ في إسطنبول، إذْ صدَرَ المجلّدان الأوّل والثاني تباعاً في الأعوام(٢٠١٠ و٢٠١١م)، فيما صدر المجلّدُ الثالث حديثاً عام (٢٠١٤م)، وقدْ واجهتنا صعوبةُ الحصول عليه، ويبدو أنّه لم يكن قدْ دخل العراق بعدُ، وكان للأستاذ الفاضل الدكتور (أسامة عبد الرّحمن الدّوريّ) الفضل في تسهيل مهمّتنا بحكم علاقتِهِ بالمؤلّف، وتُعدُّ تلك السِّلسلة الوثائقيّة من المصادر الحديثة ذات القيمة التاريخيّة؛ كونها وقفتْ على وثائقَ مهمّة مأخوذة من أماكن متعدّدة، أهمّها أرشيف (طوب قابي)، الذي يحوي أقدمَ الوثائق العثمانيّة غير المصنّفة إلى الآن، التي ترفُدُ ما لدينا من معلوماتٍ عن تاريخ البصرة في مطلع العهد العثمانيّ، بل تُصحِّح في أحيانٍ أُخَر بعض التحليلات الخاطئة من خلال إعطاءِ صورةٍ أوضح عن تلك المرحلة وماصاحبها من أحداث، وقدْ اعتمدت الدّراسةُ على المجلّدين الثاني والثالث، إذْ تناول الثاني المدّة (أواسط القرن العاشر الهجريّ/ السّادس عشر الميلاديّ)، وتضمّنَ وثائق غاية في الأهميّة عن

---

(١) صدر الجزء الرابع من هذا الكتاب في سنة ٢٠١٥م، اسطنبول. (**الناشر**).

فتح العثمانيّينَ الجزائرَ وإصلاحها، وتنظيم شؤونها، وتحويلها إلى ولايةٍ عثمانيّةٍ، وجعل البصرة لواءً تابعاً لها، فيما تناولَ المجلّدُ الثالثُ المدّة (أواخر عهد السُّلطان سليمان القانونيّ)، وامتاز بعرضه وثائقَ الأحكام السُّلطانيّة التي بيَّنت بوضوحٍ قوّة الانتفاضة القَبَليّة في الجزائر، والاستعدادات العسكريّة لقمعها، إذْ انتهت هذه الوثائق عند عام (١٥٦٦م) قبيل حملة إسكندر باشا على الجزائر عام (١٥٦٧م)، ونأمل أنْ تأخذَ المراحل التالية نصيبها من الوثائق في الإصدارات اللّاحقة من هذه السِّلسلة الوثائقيّة.

ومِن المصادر الفريدة ذات القيمة التأريخيّة، مخطوطةُ (الرِّحلة المكِّيَّة) للسيّد (عليٍّ ابن السيّد عبد الله بن السيّد علي خان الموسويّ المشعشعيّ)، وهو من حكّام الحُويزة، وتغطّي هذه المخطوطة المدّة الواقعة بين صعودِ (محمّد بن فلاح المشعشعيّ) إلى السُّلطة عام (٨٤٥هـ-١٤٤١م)، حتّى عام (١١٢٨هـ-١٧١٦م)، وتوجد النُّسخة الوحيدة لها -وهي نسخةُ المؤلّف نفسه- في مدرسة سبهسالار(مطهّري حاليّاً) في طهران، وتناولتْ المخطوطةُ الحوادثَ المتعلّقة بالأُسرةِ المشعشعيّةِ، وحوادث العصر الصَّفويّ ضمن رحلتِه إلى مكّة المكرّمة، وتنبعُ أهمِّيّتها مِن أهمِّيّة المعلومات التي أوردَها الكاتبُ عن تاريخ المشعشعينَ، التي ضمّنها معلوماتٍ عن الجزائر وسيطرة المشعشعينَ عليها.

أمّا المصادرُ الأُخَر، فقدْ سعينا قدْر المستطاع للوصول إلى الكتب التي ركّزت على تاريخ المنطقة، لاسيّما الكتب المختصّة بتاريخ البصرة وتاريخ العراق الحديث، وجمع شتات المعلومات التاريخيّة المبعثرة في طيّات الكتب الأُخَر، والمبثوثة هنا وهناك، وتوظيفها في سياقها التاريخيّ المتّسق مع الأحداث المحيطة بنطاق البحث، ومن المظان الرئيسة للدِّراسة كتاب (تاريخ الإمارة الأفراسيابيّة)، الذي حقّقه (محمّد الخال)، وهو أحد مطبوعات المجمع العلميّ العراقيّ، وهو في الأصل مخطوطةٌ بعنوان: (السِّيرة المرضيّة في شرح الفرضيّة)، لمؤلّفه (عبد علي بن ناصر)، المشهور بـ(ابن رحمة الله

الحويزيّ)، وتكمن قيمتُه في كون مؤلِّفه عاصر أحداث الإمارة الأفراسيابيّة ونزاعها مع أمراء الجزائر من ربيعة وآل عليّان؛ إذْ انفرد بذِكْر تفاصيل ذات قيمةٍ كبيرةٍ، إلا أنّ ما ورد فيها من تمجيدٍ منقطعِ النظير للأمير (علي باشا أفراسياب)، دفعنا للتعامل معها بحذر.

أمّا كتابُ (زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر)، لمؤلّفه الشيخ (فتح الله بن علوان الكعبيّ)، فقد أغنى البحث بمعلوماتٍ مهمّةٍ، لاسيّما أنّ كاتبه عاصر حكم الإمارة الأفراسيابيّة، وعمل قاضياً لديها، وأورد تفصيلاً عن أحوال الجزائر في عهد (حسين باشا)، ما يُعَدُّ مكمِّلاً لما أورده الحويزيّ.

وتمّت الإفادة كذلك من بعض المؤلّفاتِ في تاريخ العراق، منها: كتاب المحامي (عبّاس العزّاويّ)، المعنْوَن (العراقُ بينَ احتلالين)، الذي زوَّدنا بمعلومات مفصَّلة عن الحملات العسكريّة التي وجّهها العثمانيّونَ لإخماد مقاومة أهل الجزائر، ويجب أنْ نشير في هذا المقام إلى أطروحة الدّكتوراه للباحث (حسين علي عبيد المصطفى)، المعنونة (البصرةُ في مطلع العهد العثمانيّ ٩٥٣-١٠٧٩هـ/ ١٥٤٦-١٦٦٨م، دراسةٌ في التاريخ الاجتماعيّ والعمرانيّ)، فقد توافق الإطار الزّمنيّ للأطروحة توافقاً عمليّاً مع الإطار الزمنيّ للبحث، الأمر الذي ساعد في تسليط الضّوء على بعض جوانب التاريخ الاجتماعيّ لمنطقة الجزائر في تلك المدّة؛ لذا أصبح لتلك الأطروحة مواقع متميّزة في هوامش البحث.

أمّا الكتب المعرّبة، فأهمُّها كتاب: (أربعةُ قرونٍ من تاريخ العراق الحديث)، لمؤلِّفه الضّابط البريطانيّ (ستيفن هيمسلي لونكريك)، وقدْ حاز هذا الكتاب منذُ صدوره بالإنجليزيّة عام (١٩٢٥م) موقعاً بارزاً بين الدّراسات التي تناولتْ تاريخ العراق خلال العصر العثمانيّ؛ إذْ اعتمد الكتاب على مجموعةٍ مهمّةٍ من المصادر التاريخيّة الأصيلة التي

حصل عليها المؤلّف بعد احتلال البريطانيّين بغداد عام (١٩١٧م)، التي كانت متوافرة حينذاك، وكان عسيراً على كثيرٍ مِن الباحثينَ الوصول إليها، وإنّه لم يقتصر على دراسة تاريخ العراق السِّياسيّ فحسب، وإنّما عُني بتوضيح بعض جوانب الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة فيه.

كما استقى البحث بعضَ معلوماته من كتب الرّحّالة الأجانب الذين زاروا البصرة، ودوّنُوا مشاهداتهم عن المنطقة عند مرورهم فيها، وتمثِّل تلك الرِّحلات ينبوعاً غنيّاً في مجال الكتابة التاريخيّة؛ بوصفها مادّةً أوليّةً تمتاز بصفة المعاصَرة للأحداث، واكتنازها فوائد تتجاوز حدود التاريخ إلى حقل المعرفة الجغرافيّة، لاسيّما التي تُرجِم منها مؤخَّراً من قبل الدّكتور (أنيس عبد الخالق محمود)، ومنها:كتاب (رحلاتٌ بين العراق وبادية الشّام خلال القرن السّادس عشر)، وكتاب (رحلاتُ الأب بارثيلمي كاريه في العراق والخليج العربي وبادية الشام (١٦٦٩-١٦٧٤م))، وكتاب (رحلةُ بالبي إلى العراق)، ترجمة الأب (بطرس حدّاد)، و(رحلةُ نيبور الكاملة إلى العراق).

كما أغنت بحوث الدّكتور (طارق نافع الحمدانيّ) في تاريخ البصرة موضوع البحثِ بالكثير مِن الحقائق، وتجلّى ذلك في كتابه: (مدنُ العراق وقبائلُه العربيّة في العصر الحديث)، فضلاً عن بحوثِهِ المنشورة، التي أهمّها: (موقفُ القُوى المحلّيّة من الولاة العثمانيّينَ في البصرة خلال القرن السّادس عشر)، وكذلك (انتفاضات القوى العربيّة المحلّيّة في البصرة والجزائر ضدّ التوسّع العثمانيّ خلال القرن السّادس عشر).

ويقضي واجبُ العرفان أنْ نتوجّه بخالص الشُّكر والامتنان إلى كلِّ مَن أسهم بجهده في إنجاز هذا العمل، وأخصُّ بالذِّكر أُستاذنا الدّكتور (حميد أحمد حمدان التميميّ)، الذي كان لتوجيهاته العلميّة الأثر البالغ في إخراج البحث بصورته العلميّة، فله منّا كلَّ الشُّكر والإجلال، وكذلك الأستاذ الدّكتور (حسين علي المصطفى)، الذي أفادنا بكثيرٍ

من المعلومات والملاحظات القيِّمة، ويدفعُنا الاعتراف بالجميل أنْ نتوجّه بشكرنا إلى الأستاذ الدّكتور (أسامة عبد الرّحمن الدّوريّ) لجهوده في توفير عددٍ من المصادر المهمّة، والشكرُ موصولٌ إلى إدارة مركز تراث البصرة على تبنِّيها طباعة هذا الكتاب ونشره، بعد مراجعتِه وتدقيقِه، وإبداء ملاحظاتهم عليه، فجزاهم اللهُ خيراً، ولايفوتنا أنْ نُسديَ شكرَنا إلى الأستاذ الدّكتور (محمّد أحمد عبد السّتّار السّامر)، والمدرّس المساعد (سلام كريم ملك الجيزانيّ).

وأخيراً، نرجوأنْ نكونَ قد وفّقنا في إظهار الحقائق، على وفق ما يحتِّمُه علينا الواجب العلميُّ والأخلاقيُّ، ونأمل أنْ يكونَ هذا الجهد المتواضع خطوةً مفيدةً تُلقي بعض الضّوءعلى صفحةٍ مهمّةٍ من تاريخ (المْدَيْنَة) والجزائر؛ لتعمَّ الفائدة، ويزداد وعي مجتمعِنا بماضيه؛ ليستلهِمَ منه العِظات والعِبَر ... ومِن اللهِ التوفيقُ.

الباحثان

تمهيد

- (الْمَدَيْنَة)[1] حتّى السّيطرة العثمانيّة على البصرة (١٥٤٦م)

(١) (الْمَدَيْنَة): وهي إحدى أقضية محافظة البصرة، تقعُ في الجزء الشّمالي الغربي من مركز المحافظة، بين دائرتي عرض (١١. ٥٢. ٤٢. ٣٠. ٣٣. ١. ١٦. ٣١) شمالاً، وخطّ طول(١٦. ٣٢. ٥. ٤٧. ٣٩. ٤٣. ٢٤. ٤٧) شرقاً، يحدُّها من الشّمال والشّمال الغربيّ محافظة ميسان، ومِن الغرب محافظة ذي قار، ومن الجنوب والجنوب الشّرقي قضاء الزُّبير وناحية الدِّير، وشرقاً قضاء القُرنة، ويشغل القضاء حيِّزاً مكانيّاً مساحته الكلّيّة (٩٨٩كم٢)، وتشكّل هذه المساحة نسبةً مقدارُها ١٩ , ٥٪ من مساحة محافظة البصرة، ويذكرُ الدّليل الإداريّ للجمهوريّة العراقيّة للعام ١٩٨٩-١٩٩٠م أنّ المدَيْنَة استحدثتْ إلى ناحية عام ١٩٢٠م، فيما يُشير التقرير السّرّي لدائرة الاستخبارات البريطانيّة الذي نقله إلى العربيّة الأستاذ عبد الجليل الطاهر تحت عنوان: (العشائرُ والسّياسة) إلى أنّ السِّير البريطانيّ هنري دوبس نصّب الشيخ حميد المير جعفر[على الأرجح أن يكونَ المقصود الشّيخ حميد حمود المير جابر] مديراً لناحية الْمَدَينة بتاريخ ٤/ ١٢/ ١٩١٦م، الأمر الذي يدلُّ استحداثها إلى ناحية بحدود عام ١٩١٦م، ثمّ قضاءً بموجب المرسوم الجمهوريّ المرقم (٧١٧) في ١٩٧٨م، ويتكوّن القضاء حاليّاً من ثلاث وحدات إداريّة تتضمّن مركز القضاء، وناحية الشّهيد عزّ الدّين سليم (تسمّى سابقاً، الهوير، ثمَّ العِزّ، وسُمِّيت باسمها الحالي؛ استناداً لموافقة مجلس محافظة البصرة في جلستِه ذاتِ الرّقم (٥٢)، المنعقِدة بتاريخ ٢٦/ ١٠/ ٢٠٠٥م، ومصادقة وزارة البلديّات والأشغال بالأمر المرقّم ٢١٦م/ ١ بتاريخ ١٧/ ١/ ٢٠٠٦م)، وناحية الإمام الصّادق (تُسمّى طلحة سابقاً، سُمِّيت باسمها الحالي؛ استناداً لموافقة مجلس محافظة البصرة في جلستِه ذات الرّقم (٦٩)، المنعقدة بتاريخ ١٢/ ٤/ ٢٠٠٦م، ومصادقة وزارة البلديّات والأشغال بالأمر المرقم ١٦٦٩م/ ٦ بتاريخ ١٧/ ٤/ ٢٠٠٦م)، ويوجد في القضاء بعض التّلال الأثريّة، أهمّها تل أبو الصّلابيخ، الذي يرجع تاريخه إلى العصر الكيشيّ والآشوريّ (١٦٠٠-٩١١ ق.م)، والعصر البابليّ الحديث (٦٢٥-٥٣٩ ق.م)، والعصر الإسلاميّ. للمزيد، يُنظر: تقرير سرّي لدائرة الاستخبارات البريطانيّة، العشائر والسّياسة، ترجمة عبد الجليل الطاهر، النجف، (د.ت): ص٩ (الهامش)؛ ولجنة إعلام (مديريّة إرشاد المنطقة الجنوبيّة)، البصرة في

أوّلاً: مدخلٌ في جغرافية المنطقة

تعرّضتْ منطقةُ أدنى العراق منذُ زمن الآشوريّينَ للفيضانات المتأتّية عن نهرَي دجلة والفرات، وقدْ غطّت المياه أراضيَ واسعةً ما بين الكوفة وواسط شمالاً حتّى البصرة جنوباً، تقدّر بستّة آلاف ميلٍ مربَّعٍ، وهذه المستنقعات دُعِيتْ (البطائح)[١]، تخلّلتها (الأهوار)، أي البحيرات غير العميقة الغَور، وهي تُعدُّ أكبر أهوار العالم، تلك المنطقة التي كانت بيئةً طبيعيةً لعددٍ هائلٍ من أنواع الأسماك والطيور والحيوانات، من هنا شكّلت الأهوار بيئةً مدهشةً بغناها وتنوّعها، ومدهشة باستعصائها على السُّلطات المركزيّة قديماً وحديثاً[٢].

وفي هذا المضمار يقول الاصطخريّ[٣]: أنّه كانت في حدود البصرة «آجامٌ كثيرةٌ

مهرجان الشِّعر التاسع، البصرة، ١٩٦٩م: ص٣١-٣٢؛ والجمهوريّة العراقيّة وزارة الحكم المحلّي، الدّليل الإداريّ للجمهوريّة العراقيّة ١٩٨٩-١٩٩٠م، ج٢، ط١، ١٩٩٠م: ص٣٦٢؛ وبشرى رمضان ياسين، تحليل جغرافيّ للإنتاج الزراعيّ في قضاء المدَينة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٢م؛ ومحمّد اطخيّخ ماهود المالكيّ، قضاء (الْمَدَيْنَة) دراسة في الجغرافية الإقليميّة، باستخدام نُظم المعلومات الجغرافيّة GIS، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٩م: ص٤٠-٤٢؛ وعبد الرزّاق الحسنيّ، رحلة في العراق، أو خاطرات الحسنيّ، ط١، بيروت، ٢٠١٣م: ص١٢٥.

(١) يُطلق اسم البطائح على ذلك المنخفض الذي كان يتعرّض لغمر المياه بشكلٍ منتظمٍ، وقدْ أطلقها الجغرافيّون العرب خلال الفترة العبّاسيّة على المستنقعات الواقعة في القسم الأسفل من الفرات بين الكوفة وواسط شمالاً، والبصرة جنوباً. للتفصيل يُنظر: إبراهيم جدّوع محسن، إمارة البطائح العربيّة دراسة في أحوالها السّياسيّة والفكريّة منذ القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ حتى منتصف القرن السّادس الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة البصرة، ١٩٨٦م.

(٢) يُنظر: أميرة رضا فرحات، الزِّنج وثورتهم المنسيّة، ط١، بيروت، ٢٠١١م: ص١٥٢-١٥٣.

(٣) يُنظر: الاصطخريّ، أبو إسحاق ابراهيم بن محمّد الفارسي، كتاب مسالك الممالك، مطبعة بريل - مدينة ليدن، ١٩٢٧م (دار صادر - بيروت): ص٨١-٨٢.

وبطائح» تسيرُ فيها القوارب الصّغيرة، ثمّ تراجعت عنها المياه بعدما بُنيتْ البصرة وشُقّتْ الأنهار، فغلب الماء على المناطق المنخفضة، فأصبحت أشبه بالمستنقعات، أو الأهوار، تتّصل ببعضها البعض، فيما يُرجع البلاذريّ[١] زمنَ تأسيس البطائح إلى أيّام (قباذ بن فيروز)[٢]؛ إذْ انبثق في أسفل كسْكر[٣] بثقٌ عظيمٌ، فأغفل أمره حتّى أغرقتْ مياهه كثيراً من الأراضي العامرة، وفي عهد (كسرى آنوشروان)[٤] رُدمت بعض هذه

(١) يُنظر: البلاذريّ، فتوح البلدان، نشر مكتبة النهضة المصريّة – القاهرة ١٩٥٧م: ج٢، ص٣٥٨.

(٢) قباذ بن فيروز: وهو أحد ملوك الدولة السّاسانيّة، تولى الحكم عام ٤٨٨م، خلفاً لعمّه الملك المعزول بلاش، وقدْ حاول منذ تولّيه السّلطة القيام بالإصلاح والقضاء على الآداب القديمة، وإضعاف سطوة كبار الأشراف، الأمر الذي دفع بعض كبار رجال الدّين الزرادشتيّين في القصر إلى القيام بالثورة ضدَّه، وعزله، ونصب أخيه جاماساب بدلاً عنه، نجح عام ٤٩٨م في استعادة عرشه، وإخضاع أعدائه، بعدها قام بضرب الدِّيانة المزدكيّة وقتل مؤسّسها(مزدك)؛ لمعارضته تنصيب ابنه كسرى لولاية العهد، وكانت تلك أولى خطواته لتحقيق برنامجه الإصلاحي، توفّي عام ٥٣١م. للمزيد، يُنظر: آرثر كريستنسن، إيران في عهد السّاسانيّينَ، ترجمة يحيى الخشّاب: ص٣٣٠-٣٤٧؛ وقحطان عبد السّتّار الحديثيّ و صلاح عبد الهادي الحيدريّ، دراسات في التاريخ السّاسانيّ والبيزنطيّ، ط١، البصرة، ١٩٨٦م: ص٧٦.

(٣) كسْكر: وهي مدينةٌ بطائحيّةٌ تقعُ على الجانب الشرقيّ من دجلة مقابل مدينة واسط، كانت موجودةً في المنطقة قبل حدوث البطائح، واستمرّت بعد ذلك، وذكر ياقوت الحمويّ أنّ اسمها كان معرّباً عن الفارسيّة، وربّما يرجع إلى لفظٍ عراقيٍّ قديم، وقدْ قام العرب المسلمون بفتحها، وحصلوا منها على غنائم كثيرة، وجنوا أموالاً كثيرة من خراجها. للمزيد، يُنظر: إبراهيم جدّوع ، إمارة البطائح العربيّة: ص٤٦.

(٤) كسرى أنوشروان: وهو الملك السّاسانيّ الثاني والعشرون، سُمِّي (كسرى الأوّل)، تولى السُّلطة عام ٥٣١م، وقدْ شهدت الدّولة في عهده أزهى عصورها، اتّسم حكمه بالعدل، إذْ طُبِّقتْ القوانين في عهده بدقّةٍ وعدالة، وبلغتْ المدائن- عاصمة الدّولة – أقصى اتّساعها، إذْ مدَّ نفوذه جنوباً إلى اليمن بعد أنْ تحالف مع العربِ وطرد الأحباش منها، توفّي عام٥٧٩م. للمزيد، يُنظر: آرثر كريستنسن، إيران في عهد السّاسانيّينَ: ص٣٤٩؛ وقحطان عبد السّتّار الحديثيّ، وصلاح عبد الهادي الحيدريّ، دراسات في التاريخ السّاسانيّ والبيزنطيّ: ص١٥٢-١٥٣.

المستنقعات، فغمرتْ كثيراً من الأراضي، غير أنّه حصل بين سنتي(٦-٧هـ/ ٦٢٨م)، فيضانٌ طاغٍ في نهر دجلة، فانكسرتْ السُّدود، وأغرقت المياه منطقة البطائح، وعبثاً حاول كسرى إبرويز(المظفّر)[١] أنْ يُنقذَ الأراضي الزراعيّة من الغرق، وحدث فيضانٌ آخر أيّام الفتوحات الإسلاميّة للعراق، فاتّسعتْ البطائحُ وعظمتْ، وعلى الرُّغم من أنّ الأمويّينَ استخرجوا بعض الأراضي بالبطائح أيّام معاوية والوليد وهشام، وكانت تدُرُّ عليهم غلّةً وفيرةً، إلّا أنّه لم تُبذل محاولاتٌ جدّيةٌ لوقاية تلك الأراضي في أوقاتِ الفيضان، بل إنّ المشاكل الداخليّة والمصالح السياسيّة كثيراً ما أدّت إلى الوقوف سلبيّاً من الفيضانات في تلك المنطقة، كما حصل أيّام الحجّاج[٢].

نتيجة لذلك الإهمال ازدادت مياه نهر الفرات، إلى درجة أنّها صارت تفيضُ وتغمرُ مساحاتٍ واسعةً من الأراضي، وتكوّنتْ منطقةٌ واسعةٌ من المستنقعات والأهوار التي عُرفت بـ (الجزائر)، وقدْ امتدّت هذه المنطقة -آنذاك- حتّى شطّ العرب[٣].

إنّ تلك البِقاع التي تكتنفها المسطّحات المائيّة، وتخترقها مئات القنوات التي تمتلِئ بالحلفاء والبرديّ والقصب، كان يصعب التنقّل السّريع فيها، وعليه فإنّ هذه الطوبغرافيّة المعقّدة شكّلتْ منذ البداية ملجأً للثائرينَ على مرّ التاريخ، فقدْ شهدت

---

(١) كسرى إبرويز: وهو الملك الرابع والعشرون من سلالة الملوك السّاسانيّين، تولى العرش عام ٥٩٠م خلفاً لوالده هرمزد الرّابع، واجه الدّسائس والمؤامرات الداخليّة الكثيرة وتغلّب عليها، هاجم الدّولة البيزنطيّة، وتمكّن مِن السَّيطرة على الرّها، وأنطاكية، ودمشق، وبيت المقدس، إذْ انتزع الصليب وبعث به إلى المدائن، ثمّ استولى على الإسكندريّة وأجزاء أُخَر من مصر، حتّى تمكّن هرقل آخر الأمر من إيقاف زحفه واستعادة ما سلبه مِن أراضي الدّولة البيزنطيّة، قُتل عام ٦٣٨م، قَتَلَهُ ولدُه قباذ (شيرويه) بسبب الصّراع على العرش. للمزيد، يُنظر: قحطان عبد الستّار الحديثيّ و صلاح عبد الهادي الحيدريّ، دراسات في التاريخ السّاسانيّ والبيزنطيّ: ص١٥٢-١٥٤.

(٢) يُنظر: فيصل السّامر، ثورة الزّنج، ط٢، بغداد، ١٩٧١م: ص٩٨-٩٩.

(٣) يُنظر: طارق الحمداني، مدن العراق وقبائله العربيّة في العصر الحديث، بيروت، ٢٠١٠م: ص٥٩.

هذه البُقعة عصياناً قام به الزُّطّ[١] ضدّ الدّولة العبّاسيّة في القرن الثاني الهجريّ، وبعده بحدود أربعينَ سنة اندلعتْ ثورةُ الزِّنج[٢]، التي شغلتْ الحكومة العبّاسيّة

(١) الزُّط: وهو اسمٌ معرّب أصلُه (جت)، وهم طائفةٌ من الهند ، وجاء -أيضاً- في كتاب تاريخ العرب والتمدن الإسلامي للسيّد أمير علي، ص٢٤٣: بأنّهم قبيلةٌ هنديّةٌ اسمها الزُّط، أو الجت، نزلت على سواحل دجلة، ولم تُعرف طريقة وفودهم إلى المنطقة، الا إنّ البعض يُرجع ذلك إلى عهد السّاسانيّينَ الذين أنزلوهم جنوب العراق في المستنقعات بين البصرة وواسط، فيما يُرجع آخرونَ ذلك إلى أيّام الحجّاج الثقفيّ، الذي جلب جموعاً منهم، وأسكنهم البطائح، فتناسلوا وكثرتْ أعدادهم حتّى بلغتْ ما يقرُب من سبعة عشر ألف نسمةٍ، وعلى الرُّغم من محاسنة المسلمين لهم وإدخالهم في الجيش، إلّا إنّهم أصبحوا يعيثونَ في البلاد فساداً، فعطّلوا المواصلات بين البصرة وبغداد زمن المأمون، الذي لم يترك أمرهم وحاربهم، إلا إنّ نيران حركتهم اشتعلتْ مرّةً أخرى أيّام المعتصم، فبعث إليهم عجيف ابن عنبسة عام ٢١٩هـ/ ٨٣٥م على رأس قوّةٍ ظلّت تقاتلهم حتّى اضطرّتهم إلى التّسليم، فأُرسلوا في زوارق إلى بغداد، ومن ثمّ نُقلوا إلى صقليّة في البحر الأبيض المتوسّط، إذْ هاجمهم الرُّوم وذبحوا معظمُهم، وعندئذٍ تفرّقتْ البقيّة الباقية في تريستا. للمزيد، يُنظر: كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلاميّة، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م: ص٢٠٨؛ وعبد القادر باش أعيان العبّاسيّ، موسوعة تاريخ البصرة، الجزء الأوّل، (د.ط)، بغداد، ١٩٨٨م: ص١٣٦-١٣٧؛ وعبد الجبّار ناجي، من تاريخ البصرة السّياسيّ، إسهامات البصريّين العسكريّة وصمودهم إزاء التحدّيات في التاريخ الإسلامي، البصرة، ١٩٩٠م: ص٥٨-٥٩.

(٢) ثورة الزّنج: وهي الثورة التي قامت بها طائفةٌ من العبيد ذوي الأصول الإفريقيّة، أثاروا الرُّعب في حاضرة الحكومة العبّاسيّة وهدّدوا كيان الدّولة، وكان مسرح هذه الثورة العنيفة في المستنقعات الممتدّة بين البصرة وواسط، وقاد هؤلاء الزّنوج رجلٌ يُدعى (علي بن محمّد)، ادّعى أنّه من وُلد عليّ بن الحسين بن علي عليه السلام، إلا إنّه لم يجهر بعقائد المذهب الشّيعيّ على الرُّغم من ادّعائه النّسب إلى فاطمة وعليّ عليهما السلام، ولكنّه جهر بعقائد مذهب الخوارج الذين جعلوا الخلافة أمراً مشاعاً بين المسلمين، للأحرار والأرقّاء على السّواء. قدم صاحب الزّنج العراق، ودعا إلى تحرير العبيد في البصرة وضواحيها، واستمال قلوبهم، حتى إنّهم تركوا واليهم وانضمُّوا إليه، فعظُم شأنُه، وقويت شوكتُه، ولقيت دعوته قبولاً، ثمَّ سار إلى بغداد سنة ٢٥٤هـ، فعهد الموفّق العبّاسيّ إلى أخيه بقتالهم والقضاء عليهم. للمزيد من الاطلاع يُنظر: فيصل السّامر، ثورة الزّنج؛ وعلي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، (الجاهليّة،الدولة العربيّة، الدولة العبّاسيّة)، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٧١م: ص٤٣١؛ وأميرة رضا فرحات، الزّنج وثورتهم المنسيّة؛ وهادي العلوي، شخصيّات غير قلقة في الإسلام، ط٤، بيروت، ٢٠٠٧م:

كثيراً[١]، وتمكّن سكّانُ البطائح من بناء إمارةٍ شامخةٍ لهم بقيادة (عمران بن شاهين)[٢] (٣٢٩-٣٦٩هـ/ ٩٤٩-٩٧٩م)، نالتْ اعتراف الدّولة العبّاسيّة رغماً عنها[٣].

ثانياً: قيام إمارتَي ربيعة وآل عليّان في (المَدِيْنَة)

شهِدَ العراق خلال القرن الثالث الهجريّ حالةً من الفُوضى وعدم الاستقرار السّياسيّ، لاسيّما بعد مقتل المتوكِّل على الله العبّاسيّ عام (٢٤٧هـ/ ٨٦١م)، ما أدّى إلى ضعف السُّلطة المركزيّة وظهور المتغلِّبينَ من أمراء الأطراف، ومحاولتهم الانفصال وفسح المجال للتيّارات والحركات السّياسيّة والاجتماعيّة المكبوتة أنْ تظهرَ بشكلٍ عنيفٍ، ولعلّ البصرة وما جاورها، ومناطق البطائح، من أكثرها تأثّراً بتلك الفوضى[٤].

وفي إطار السِّياسة العبّاسيّة لاسيّما في عهد النّاصر لدين الله[٥] (١١٨٠-١٢٢٥م)،

ص٢٤٣-٢٥٨.

(١) يُنظر: ولفرد ثسيكر، المعدان أو سكّان الأهوار، ترجمة باقر الدّجيلي، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٦م: ص١٥؛ وفيصل السّامر، ثورة الزّنج: ص٩٩.

(٢) عمران بن شاهين: يُدعى صاحب البطائح، مجهولُ النّسب، كان عليه دمٌ، فهرب إلى منطقة البطائح، واحتمى بها، يتصيّد السّمك والطّيور، رافقه الصيّادونَ، والتفَّ حوله اللُّصوص، فكثُر جمعه، واستفحل أمره، ونَشَبَتْ بينه وبين معزّ الدّولة البويهيّ معارك انتهت بالصُّلح، واستمرّ أميراً على البطائح أربعينَ سنةً لم يظفر به أحد، توفّي سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م، تولّى ابنه الحسن بن عمران الإمارة من بعده، إلّا إنّه قُتل على يد أخيه أبي الفرج، وتُعدُّ سيطرتُه على البطائح بداية عهدٍ جديدٍ مع البويهيّينَ؛ إذْ كَتَب الأخير إلى بغداد يُظهر الطاعة، ويطلبُ تقليد الولاية، وهكذا دخلت البطائح في طاعة البويهيّين. للمزيد، يُنظر: علي حسن غضبان، البويهيّون في فارس، ط١، بيروت، ٢٠١٤م: ص٢٤٣-٢٤٨.

(٣) يُنظر: إبراهيم أيّوب، التاريخ العبّاسي السياسي والحضاريّ، ط١، لبنان، ١٩٨٩م: ص١٣٥.

(٤) يُنظر: عبد الجبّار ناجي وآخرون، الدولة العربيّة في العصر العبّاسي، البصرة، ١٩٨٩م: ص١٨٥؛ وتحسين حميد مجيد، تاريخ البصرة من مقتل المتوكّل حتّى التسلّط البويهيّ، موسوعة البصرة الحضاريّة (الموسوعة التاريخيّة)، جامعة البصرة، المركز الثقافي، البصرة، ١٩٨٩م: ص٧١.

(٥) وهو أبو العبّاس أحمد بن المستضيء بالله، تولى الحكم عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، بعد وفاة والده، بلغت الحكومة العبّاسيّة في عهده قمّة نفوذها وقوّتها؛ إذْ كان له النصيبُ الأوفرُ في القضاء على النفوذ

الرّامية إلى فرض هيبة الدّولة، وتنظيم ما فَسَدَ من الأمور وإصلاحها، تقرّر إعادة سلطة الحكومة على أمراء الأطراف، وفي ظلِّ تلك الأجواء أُسنِدت أمور الوزارة إلى (مؤيّد الدّين عبد الله بن علي)، المعروف بـ (ابن القصّاب)، في وقتٍ كانت عربستان بيد أولاد (شملة)، وهم مختلفونَ فيما بينهم، فطلب الوزير من الحاكم العبّاسيّ أنْ يُرسلَ معه الجيوش، فأجابه النّاصر لذلك، وخرج في عام(٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م)، وحارب بني (شملة)، فتغلّب عليهم، فدَخلتْ عربستان في حوزة الحكومة العبّاسيّة[١]، وبذلك بسط العبّاسيّون سلطتهم على البطائح وجَبَاها عمّالُهم[٢].

عندها أقطع النّاصر منطقةَ الجزائر لكلٍّ مِن ربيعة وطي لمساعدتهم له في حربه ضدّ أولاد (شملة)، فاستقرّ (ابنُ عليّان الطائيّ) في نهر صالح[٣]، واتخّذها مقرّاً له،

السّلجوقيّ في العراق، وإعادة السُّلطة على الأقاليم، وقد جاء عنه في كتاب روضة الأبرار أنّه (كان يتشيّع)، وذكر عنه الشّيخ كاظم الحلفيّ أنّه (الشّيعيُّ المعلوم في بني العبّاس)، توفي عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م. للمزيد، يُنظر: عبد الجبّار ناجي وآخرون، الدولة العربيّة في العصر العبّاسي: ص٤٥١-٤٥٤؛ ونظمي زادة مرتضى أفندي، كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٧١م: ص١٣٥؛ ورسالة الشّيخ كاظم الحلفيّ إلى السيّد نعمة السيّد أحمد آل شبيب، المؤرّخة في ١٩/ ٢/ ١٣٩٦هـ، النجف الأشرف، ورقه(٢).(**نسخةٌ مصوّرةٌ عنها لدى الباحثَين**).

(١) يُنظر: حسين خلف الشّيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، بيروت: ج٣، ص٨٩ .

(٢) يُنظر: جاسم حسن شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم، النجف الأشرف، ١٩٦٥م: ص٧٥.

(٣) نهر صالح: تسمّى حاليّاً بالاسم ذاته، وهي مِن القرى الكبيرة التابعة إلى قضاء (الْمَدَيْنَة)، مسجّلة لدى وزارة الموارد المائيّة، الهيأة العامّة للمساحة، (بغداد) لعام ٢٠٠٧م، (مقاطعة رقم / ١٩)، وهي عبارة عن تلٍّ مرتفعٍ يقع على الجانب الغربي لنهر الفرات إلى الغرب من مركز القضاء، مرّ بها الرّحالة الفرنسيّ الأب بارثيلمي كاريه في يوم الثلاثاء الأوّل من مايس١٦٧٤م، خلال إيابه من رحلته الثانية متّجهاً من الهند إلى حلب عبر نهر الفرات[عن وصف كاريه للمنطقة راجع (ص١٢٩) من البحث]. يُنظر: بارثيلمي كاريه، رحلات الأب بارثيلمي كاريه في العراق والخليج العربي وبادية الشّام(١٦٦٩-١٦٧٤م)، ترجمة أنيس عبد الخالق محمود، وخالد عبد اللّطيف حسين، ط١، بيروت، ٢٠١٤م، ص٢٦٣-٢٦٤؛ محمّد اطخيّخ، قضاء (الْمَدَيْنَة) دراسة في الجغرافية الإقليميّة: ص٤٤-٤٥.

فيما استقرّ (مخزوم)[١] في نهر عنتر[٢]، وتحديداًعام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م)، وأخذ (مخزوم) يجمع إخوته من ربيعة[٣]، الذين استوطنوا تلك المناطق من البطائح، حتى عُرف مخزوم

– تجدر الإشارة هنا إلى أنّ قرية نهر صالح يقطنها حالياً عشائر: السّادة آل شبيب، والسّادة الغوالب، وعبادة، والبخاترة، والنواشي، وبعض من أسرة المظفّر، وقدْ تأثّرتْ المنطقة بظروف عدم الاستقرار السياسيّ التي سادت العراق خلال العقد الأخير من القرن العشرينَ، إذْ اعتُقل وأُعدم عددٌ من أبنائها؛ بسبب معارضتهم لنظام البعث آنذاك، لاسيّما بعد أنْ أصبحتْ أهوارها ملاذاً وملجأً لكثيرٍ من المنتفضينَ من سكّان المدن والأرياف بعد قمع النظام للانتفاضة الشعبيّة التي اندلعت في شعبان ١٤١١هـ/ آذار ١٩٩١م، إذْ أدّى أبناؤها دوراً في تشكيل التنظيمات الأولى للمقاومة المسلّحة في الأهوار وساهموا في قيادتها، الأمر الذي جعل منها –وبحكم موقعها بوصفها خطّاً متقدِّماً للمقاومة– هدفاً لضربات النظام، وفُرِض الحصار عليها في إطار سياسة التضييق التي فُرضت على عموم سكّان الأهوار، وتعرّضت القرية عام ١٩٩٣م للتهجير القسريّ؛ إثر لجوء النظام إلى اتّباع سياسة (الأرض المحروقة) من خلال تجفيف بيئة الأهوار؛ لقطع سبل العيش فيها وتحويلها إلى أراضٍ جرداء لا تصلح للحياة، ما حدا بسكّانها للنزوح إلى المدن، فهاجَر عددٌ غير قليل منهم إلى خارج العراق هرباً؛ من بطش السّلطات الحاكمة آنذاك.(**الباحثان**).

(١) وهو مخزوم بن عامر بن خزيمة بن معمر بن مشكور (منصور) بن صباح بن محمّد بن حبيب ابن مالك بن حنظلة بن شيبان بن محمّد بن عبد الله بن عمرو بن ثعلبة بن عبد الله بن عمرو بن ثعلبة ابن الأسعد بن همّام بن مرّة، سيّد ربيعة. للمزيد، يُنظر:الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة، مخطوط، ورقة (٤).(**نسخةٌ مصوّرةٌ عنها لدى الباحثَينِ**).

(٢) منطقة نهر عنتر: وتسمّى حالياً بالاسم ذاته، وهي إحدى مقاطعات قضاء (الْمَدَيْنَة)، مسجّلة لدى وزارة الموارد المائيّة، الهيأة العامّة للمساحة(بغداد) لعام ٢٠٠٧م بالرقم (٢)، تقع إلى الشّرق من مركز القضاء، وتسكنها عشائر حلاف ربيعة. محمّد اطخيّخ، قضاء (الْمَدَيْنَة) دراسة في الجغرافية الإقليميّة: ص٤٤.

(٣) من الجدير بالذّكر أنّ المنطقة كان يقطنها أقوامٌ من ربيعة، ومنهم: بنو معروف، الذين استقرّوا غرب الفرات في منطقةٍ يُقال لها(سورا)، وكانت تنتشر فروعُهم في البطائح حتّى البصرة، إذْ كوّنوا لهم إمارةً هناك عام ٥٥٨هـ–١١٦٣م، ودخلوا في صراعاتٍ مع عبادة وبني أسد المزيديّين، حتّى تشتّتَ شملهم، وانتهت إمارتهم، ومِن المرجّح نزوح بعض الجماعات من ربيعة من ديارهم في الجزائر إلى جهة الكوت؛ لأنّ ربيعة –آنذاك–لم تكن في تلك الجهات(الكوت) على الظاهر. للمزيد، يُنظر: يعقوب نعوم سركيس، العمارة والكوت، مجلّة لغة العرب: ج٩، السّنة ٨، أيلول ١٩٣٠م، ص٦٥٩–٦٦٠؛ وعلي

بـ(حوش العرب)[١]؛ إذْ قام بتعمير مناطق نفوذه، وبنى القلاع فيها، وأسكَنَ إخوته (صالح وحمود وعلي وعبيد ومنصور وناصر) منطقةَ (إصلين[٢]، والشرش، والقرمة، والسُّويب)، والتفَّ حولَهم جماعةٌ من بني غرّة، وبني ساعدة، وغيرهم[٣]، وبذلك يكونُ مقرُّ إمارة ربيعة في جزائر البصرة، وتحديداً في منطقة نهر عنتر في (المْدَيْنَة)[٤].

بقيتْ إمارة ربيعة في نهر عنتر طول حكم الدّولة العبّاسيّة، حتّى تدفّقِ التّتر على بغداد، وقضائهم على أركانِ الدولة العبّاسيّة في عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وإخضاعهم

الشّرقي، الألواح التاريخيّة، القسم الأوّل، جمع وتحقيق موسى الكرباسيّ، بغداد، ١٩٨٨م: ص٥٧؛ محمّد كريم إبراهيم، البصرة في العصر العبّاسيّ الأخير، موسوعة البصرة الحضاريّة، البصرة، ١٩٨٩م: ص١١٨؛ وعثمان بن سند الوائليّ البصريّ، مطالع السّعود، تاريخ العراق من سنة ١١٨٨إلى سنة ١٢٤٢هـ/ ١٧٧٤- ١٨٢٦م، تحقيق: عماد عبد السّلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسيّ، الموصل، ١٩٩١م: ص٢١٢.

(١) يُنظر: كاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسرين، دار الزهراء، بيروت: ص١٥٤-١٥٥؛ والشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة، ورقة (٤).

(٢) إصلين: وهي إحدى مقاطعات قضاء (المدَيْنَة)، مسجّلة لدى وزارة الموارد المائيّة، الهيأة العامّة للمساحة، (بغداد)، لعام ٢٠٠٧م بالرقم (١٠١)، وهي مرتفعٌ من الأرض يبرز من الجهة الجنوبيّة من الأهوار، كان يقطنه عشائر حلاف ربيعة، ويزاول سكّانها الزراعة، وكثيراً من أهلها يصطادونَ السّمك؛ إذْ يؤخذ الصّيد ليُباع في أسواق البصرة، وفي السّنين التي يطغى فيها الماء بصورة غير اعتياديّة يغمر الماء إصلين كلَّها، فيهاجر أغلب أهلها إلى الجلعة [جزيرة تقع على بعد أميال من الحافة الجنوبيّة للهور]، ويظلّون هناك حتّى ينحسر الماء عن مساكنهم. يُنظر: شاكر مصطفى سليم، الجبايش، ط٢،بغداد، ١٩٧٠م: ص٤٧-٤٨؛ ومحمّد اطخيّخ، قضاء (المْدَيْنَة) دراسة في الجغرافية الإقليميّة: ص٤٤-٤٥.

- تجدر الإشارة هنا إلى تعرّض سكّان منطقة إصلين للتهجير القسريّ عام ١٩٨٨م، وتهديم مساكنهم من قبل السّلطات الحاكمة -آنذاك- وقصفها بالطائرات.(**الباحثان**).

(٣) يُنظر: الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ورقة (٥).

(٤) يُنظر: علي الشرقي، أشهر مدن البطائح الحاليّة، مجلّة لغة العرب، السّنة الخامسة، ١٩٢٧م: ج٩، ص٥٣٥.

بعضَ الممالك لسلطاتهم، ولم تكن منطقة الجزائر بمنأىً عن تلك الأحداث، فعزم أهلُها على الاستقلال وعدم الخضوع، وعليه عقدتْ إمارتَا ربيعة في نهر عنتر، وطي في نهر صالح، حلفاً على التناصر وعدم الخيانة[١]، في الوقت الذي بدأت أعدادٌ من سكّان المدن بالهروب من خطر المغول إلى المناطق الأكثر أمناً، لاسيّما المناطق الواقعة جنوب بغداد، فعلى سبيل المثال، هرب بعض سكّان الحلّة وكربلاء إلى البطائح – التي كانت آنذاك من أعمال البصرة – ليتّخذوا منها ملجأً آمناً، وربّما واصل قسمٌ من السكّان مسيرتهم جنوباً نحو البصرة والجزائر؛ لكونها أكثر بعداً، وتستطيع تلبية موارد عيشهم في زراعة الأرض واستثمار غابات النخيل الموجودة فيها، وبعد تدهور حكم المغول (الأليخانيّين) وسيطرة (الجلائريّين) عام (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) على بغداد، وامتداد نفوذهم إلى المنطقة الوسطى والجنوبيّة من العراق، قاموا بشنِّ غاراتٍ عديدةٍ على أطراف مدينتَي واسط والبصرة، التي كانت تمثّل منطقة إداريّة واحدة في العهد الأليخانيّ، ثمّ استقلّت كلٌّ منهما في وحدةٍ إداريّةٍ كاملةٍ في ذلك العهد، ومع سيطرة (الجلائريّين) على تلك المناطق، كوّنت القبائل العربيّة كيانات ذات شأنٍ سياسيٍّ وعسكريٍّ مكّنتها من التصدّي لهجمات الأقوام الأجنبيّة[٢]، ويبدو أنَّ تحالف إمارتي ربيعة وآل عليّان السّالف الذكر كان جزءاً من تلك التحالفات القبليّة، محاولةً منها لحماية مناطق نفوذها.

وفي عام (٨٠٢هـ/ ١٤١٠م) استولى (التيموريّون) على العراق، وأباحوا بغداد للقتل العام بعد هروب السُّلطان (أحمد الجلائريّ) عنها، وتولّى حفيد (تيمور لنك، ميرزا أبو بكر ابن ميران خان)، منطقتي الجزائر والبصرة، فجاء بعساكره إليها،وبادر بالقتلِ والسّبي

(١) يُنظر: الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ورقة (٥).

(٢) يُنظر: حسين علي عبيد المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني، ٩٥٣ – ١٠٧٩هـ/ ١٥٤٦–١٦٦٨م، دراسة في التاريخ الاجتماعيّ والعمرانيّ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٨م: ص١٥-١٦.

والتخريب[١]، وكان أمير ربيعة في حينها الشّيخ (ولي الله)[٢]، (توفي عام ٨١٢هـ/ ١٤١٠م) وتولّى الإمارة بعده ولده الأمير صالح[٣].

وفي عام (٨١٤هـ/ ١٤١١م) استولتْ أسرة (القرّة قوينلو) (الخروف الأسود) على بغداد، وفي العام التالي أخضعوا لسطانهم البصرة والجزائر، وفوّضوا حكومتها لشاه (محمود)، ابن الملك (قرّة يوسف)[٤]، وفي تلك الأثناء استطاعت القبائل العربيّة أنْ تعقدَ تحالفاً قبليّاً بزعامة الأمير (مانع) شيخ قبيلة المنتفق[٥]، إذْ نَجَحَ عام (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) في استعادة البصرة، ولُقِّبَ بـ (أمير العرب)[٦]، وربّما كان أمراء الجزائر جزءاً من ذلك التحالف، ولم يتخلّفوا عنه، لاسيّما أنّ البصرة والجزائر كانتا تواجهانِ المصيرَ ذاته من

(١) يُنظر: ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها، دار منشورات البصريّ، بغداد، ١٩٦٢م: ص٥٢؛ وعبد الرّحمن كريم اللامي، الأدب العربي في الأحواز من مطلع القرن الحادي عشر الهجريّ إلى منتصف القرن الرابع عشر، بغداد، ١٩٨٥م: ص٣٢؛ ونظمي زادة، كلشن خلفا: ص١٦٩.

(٢) يُنظر: عبد الرّحمن بن خلدون، كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر، ومَن عاصرهم مِن ذوي السُّلطان الأكبر، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣م: ج٦، ص١٥.

(٣) يُنظر: كاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسرينَ: ص١٧٩.

(٤) يُنظر: ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها: ص٥٣.

(٥) إنّ تاريخ تلك الإمارة في البصرة قديم نسبيّاً، وربّما يعود إلى القرن السّابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، وهم ينتسبون إلى قبائل المنتفق(المنتفك) الشّهيرة، ولعلّ مِن أقدم النصوص التي عُرفت عن تاريخ هذه الإمارة وأصولها، هي ما جاء في كتاب (معدن الجواهر في تاريخ البصرة والجزائر) لمؤلّفه: نعمان بن محمّد بن العراق الذي عاش في القرن السّادس عشر الميلاديّ، الذي قال: «إنّ أوّل مَن وليها -أي البصرة- قديماً مِن آل فضل الشّهيرين (بيت المنتفق)، جدُّهم الأكبر مانع بن شبيب بن فضل، في دولة بني أيّوب»، وإنّ أولاد مانع وأحفاده قدْ حكموا البصرة واستقلّوا بها منذ بداية القرن الخامس عشر الميلاديّ، وكان مِن بينهم مانع (أمير العرب)، الذي هو مِن أحفاد مانع الأوّل، وكانت بيده إمرة قبائل المنتفق الشبيبيّين في البصرة عام ١٤١٧م. للمزيد، يُنظر: نعمان بن محمّد بن العراق، معدن الجواهر في تاريخ البصرة والجزائر، مراجعة وتصحيح الدكتور حسن الزّين، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٧م: ص٢٥ ؛ (طارق نافع الحمدانيّ)، مدن العراق: ص٧٣-٧٧ .

(٦) يُنظر: حسين علي عبيد المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٦.

الاحتلال، وهما تُعدَّان -حينذاك- منطقةً إداريّةً واحدةً.

وتُشيرُ المصادر إلى أنّ الصّراع على السّلطة بين زعماء (القرّة قوينلو) قدْ انتهى عام (١٤٣٤م) بسيطرة (أسبان بن قرّة يوسف) على السُّلطة بعد انتزاعها من أخيه (محمّد شاه)، وفرض سلطته على بغداد والحلّة وواسط[١]، وكذلك البصرة، وأخضعوها لسلطتهم، إلّا أنّ سيطرته على البصرة لم تستمرَّ طويلاً؛ إذْ قام أهالي البصرة في عام (١٤٣٥م) بانتفاضةٍ كبيرةٍ ليلة عيد الفطر، آلتْ إلى هزيمة التيموريّين وطردهم من المدينة، وعودة قبيلة المنتفق إلى حكم البصرة بزعامة (غانم بن يحيى)، الذي تزامن حكمُه مع ظهور (محمّد بن فلاح) مؤسِّس إمارة المشعشعينَ في الحويزة[٢]، أمّا الجزائر، فقدْ دخلت هي الأخرى في صراعٍ وحروبٍ مع (القرّة قوينلو)، فيذكر المقريزيّ في أحداث سنة (١٤٣٩م) أنّه كان بين (أسبان) حاكم بغداد، وبين (فضل بن عليّان) الطائيّ، أمير عرب العراق قتالٌ، فانهزم منه (أسبان) أقبحَ هزيمة، ورجعَ إلى بغداد[٣]، وبذلك تمكّنتْ القبائل العربيّة خلال القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ من الانفراد بالسُّلطة وحكم نفسها بصورةٍ مستقلّةٍ[٤].

وهكذا كانت البصرة وما جاورها، تتمتّع بحكمٍ عربيٍّ محلّيٍّ تتقاسمه الإمارات العربيّة المختلفة المحيطة بها مِن الشّرق والغرب والشّمال، فإلى الشّرق منها كانت إمارة المشعشعينَ في الحويزة، وإلى الشّمال والشّمال الغربيّ باتّجاه القُرنة والمدَيْنَة وما يُحيط بها من برٍّ وأهوار كانتْ تمتدُّ ديار آل عليّان، حكّام الجزائر، الذين ينتمونَ إلى قبيلة طي المعروفة،

(١) يُنظر: مجموعة باحثين، العراق في التاريخ، دار الحريّة للطباعة، ط١، بغداد، ١٩٨٣م: ص٥٦٠.

(٢) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٨.

(٣) يُنظر: نوري عبد الحميد العاني، العراق في القرن الخامس عشر الميلاديّ، بيروت، ٢٠١٤م: ص١٠٤.

(٤) يُنظر: نوري عبد الحميد العاني، العراق في العهد الجلائريّ ٧٣٨-٨١٤هـ/ ١٣٣٧-١٤١١م، ط١، بغداد ١٩٨٦م: ص٤٣-٤٤.

وأتباعهم من القبائل العربيّة الأُخَر، التي كانت تتمتّع في ظلِّهم بنوعٍ من الحكمِ الذّاتيِّ، وكثيراً ما كانت سلطة الأمراء من آل عليّان تمتدُّ إلى أنحاء واسط، فتُهدِّد أمنَ الحكومات المتربّعة على عرشِ الحكم في بغداد نفسها[١].

إنّ تنامي نفوذ أُسرة آل عليّان أفرز نوعاً من الصِّراعات الداخليّة بين أمرائها، ففي عام (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م) حَدَثَ بين حاكم الجزائر -آنذاك- الأمير (فضل بن عليّان الطائيّ) وإخوته تجافٍ وتباعد؛ إذْ توجّه على إثره مع بعض أتباعه من الجزائر إلى إحدى قرى الحويزة، وهي قرية (أبي الشّول)، فمال إليه جمعٌ كثيرٌ مِن تلك القرية، وفي السّابع من شهر رمضان من العام ذاته تعرّضت القرية إلى هجوم المشعشعينَ بزعامة (محمّد بن فلاح)، الذي تحرّك إليها بقوّاته من قاعدته في الدّوب، فأسرع الجيشُ الجزائريُّ بقيادة الأمير (فضل بن عليّان) ومَن معه من أهل الحويزة في قرية (أبي الشّول) للدّفاع عنها، ووقعتْ بينهما معركةٌ فاصلةٌ أسفرت عن انتصار المشعشعينَ واستيلائهم على القرية؛ ويعودُ ذلك إلى قلّة الجيش الجزائريّ الذي شارك في المعركة[٢]، وذَكَر السيّدُ علي خان أنّه: «قُتلَ في ذلك اليوم من أهالي الجزائر وأهل الحويزة خلقٌ كثيرٌ، بحيث لم تطأ الخيلُ إلّا على القتلى، وأكثرها أهلُ الجزائر، والغَلَب كان للسيّد محمّد»[٣]، ويبدو أنّ (الفضل بن عليّان) لم يكن مستعدّاً لخوض تلك المعركة، لاسيّما أنّه جاء إلى الحويزة تاركاً الجزائر للأسبابِ المذكورةِ آنفاً.

لم تذكر المصادر التاريخيّة المتوافرة لدينا الدّوافعَ الحقيقيّةَ للخلافات الداخليّة في

---

(١) يُنظر: جعفر الخيّاط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ط١، بغداد،١٩٧١م: ج١، ص٣٣.

(٢) يُنظر: جاسم حسن شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص١٦؛ ومحمّد هليل الجابريّ، إمارة المشعشعين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٣م: ص٤٢.

(٣) الرّحلة المكّيّة: ص٧.

أُسرة آل عليّان، التي تطوّرت إلى حالةٍ من الصّراع الدّمويّ بعد إقدام الأمير (يحيى) على قتل (الفضل بن عليّان)، وانقسامهم على طائفتينِ متنافرتينِ، ما أدّى إلى ازدياد طموح (محمّد بن فلاح المشعشعيّ) في مدِّ نفوذه إلى الجزائر؛ لتأمين الموارد الاقتصاديّة اللّازمة لتموين قوّاته، ذلك الطموح الذي بدأ منذُ الانتصار الذي حقّقه على الجيش الجزائريّ في معركة (أبي الشّول)، وعليه فقدْ زحف (محمّد بن فلاح) بجيشه لتحقيق ذلك الهدف، بيد أنّ ما حصل لم يكن بالحُسبان، وربّما لم يتوقّعه المشعشعونَ أنفسهم، فقدْ سُلِّمتْ إليهم الجزائر من دون قتال؛ لأنّ استمرار الصّراع والانقسام في أُسرة آل عليّان دفع أحدهم -وهو الأمير(شحل) وأتباعه- للذّهاب إلى (محمّد بن فلاح)، وتسليم مناطق نفوذ الإمارة إليه[١]، بعدها شرع بالعمل لبسط نفوذه على الجزائر؛ إذْ استطاع عام (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) إخضاع إمارة ربيعة في نهر عنتر بعد أنْ تمكّن مِن اغتيال أميرها (صالح بن ولي الله)[٢]، ما تسبّب في ضعف تلك الإمارة وتشتّت شملها[٣]، فأصبحتْ عموم مناطق الجزائر تحت قبضته، وأخذَ يهاجمُ القبائلَ المعادية له ويقتلُ فيهم، حتّى لم يبقَ في الجزائر غير مَن أخلَصَ له وتوافَقَ معه، وقضى على مَن خالَفَه، وقدْ نصَّب عليها الأمير (شحل)، الذي دخل في خدمته وطاعته[٤]، الأمر الذي مكّن آل عليّان مِنَ الاستيلاء على عموم الجزائر، بما في ذلك نهر عنتر[٥].

---

(١) يُنظر: السيّد علي خان الموسويّ، الرّحلة المكّيّة: ص٧، ومحمّد هليل الجابريّ، إمارة المشعشعين: ص٤٣؛ وحسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٠٢.

(٢) يُنظر: كاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسرينَ: ص١٥٦، و ص١٧٩.

(٣) يُنظر: الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ورقة (٥).

(٤) يُنظر: جاسم حسن شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص٤٤؛ وعبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٣، ص ١١٦؛ ومصطفى جواد، تذييل في المشعشعين، مجلّة لغة العرب، السنة التاسعة، بغداد، تشرين الأوّل ١٩٣١م: ج١٠، ص٧٦٩.

(٥) يُنظر: كاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسرينَ: ص١٥٦.

يبدو ممّا تقدّم أنّ الأمير (شحل) كان قدْ نجحَ في استغلال وقوفه إلى جانب المشعشعينَ لتحقيق هدفين: أوّلهما مساعدته في التغلّب على منافسيه مِن آل عليّان، وحسم الصّراع الدّاخليّ لصالحه بعد تولّيه شؤون الإمارة، وثانيهما: استغلال قوّة المشعشعينَ في الجزائر لإضعاف القوى المحلّيّة التي مِن الممكن أنْ تقفَ حائلاً أو منافساً له في فرض نفوذه على الجزائر؛ تبعاً لذلك أصبح لأُمراء آل عليّان -على الرُّغم مِن تبعِهم للمشعشعينَ- اليد الطولى في عموم الجزائر، لاسيّما بعد إضعاف إمارة ربيعة وتشتيتها بفعلِ ضربات المشعشعينَ.

إلّا إنّ ذلك الأمر لم يستمرَّ طويلاً، فسرعان ما انقلبَ السيّد (محمد بن فلاح المشعشعيّ) على أعوانِهِ في الجزائر، ولا سيّما الأمير (شحل) وأتباعه، ما اضطرَّهم إلى الهروبِ خوفاً مِن سطوته، إلّا إنّهم لم يجدوا ملجأً لهم «فندمُوا وانقلبوا خايبين[كذا]، وبجوار السيّد لايذين[كذا]، وفي آخر الأمر لمّا رأى قبيحَ طويّتهم، وسوءَ سريرتهم، وتظاهرتْ الشّرارةُ والخيانةُ منهم، قَتَلَهم بأجمعهم، واستأصلَهُم كلَّهم، مالٌ ورجالٌ»[١].

وإزاءَ ذلك أصبح سكّان تلك النّواحي من البصرة حتّى واسط تابعة له، وقدْ بايعتْه قبائلها، ومنها: عبادة، وبنو ليث، وبنو حطيط، وبنو سعد، وبنو أسد، وغيرهم، وأخلصوا له، واجتمعوا عليه، وصارتْ قوّتُه عظيمةً[٢]، إلاّ إنّ سيطرة المشعشعين على الجزائر لم تستقرّ إلّا في عهد السيّد (محسن بن محمّد بن فلاح المشعشعيّ)(٨٦٦-٩١٤هـ/ ١٤٦٢-١٥٠٩م)، إذْ شملتْ دولتُه الجزائرَ كلَّها[٣]، فقد ذكر السيّد علي خان الموسويّ، أنّ السيّد محسن «تملّكَ الجزاير وما يتعلّقها من قِلاعٍ وضياعٍ، وشطوطٍ وأنهارٍ،

---

(١) السيّد علي خان الموسويّ المشعشعيّ، الرّحلة المكّيّة: ص٨.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه: ص١٠.

(٣) يُنظر: عبد النبيّ القيّم، عرب إيران، وتاريخ عرب الأهواز، ترجمة كاظم الجابريّ، ط١، مصر، ٢٠١٣م: ص٧٢.

وقرايا[كذا] وأمصارٍ»[١]، وقدْ قامَ السيّدُ (محسن) ببناء القِلاع في كثيرٍ من الأماكن التي سيطر عليها، وكان يتنقّل للسّكن بينها على مدارِ فصول السّنة، هو وعساكره وذخائره ومواليه[٢].

وفي سياقِ بحثِنا عن تاريخ قلعة (المدينة)، استوقفنا ما وردَ في بعض المصادر، ومنها: مخطوطة السيّد (علي خان المشعشعيّ)؛ إذْ ذَكَرَ: أنّ السيّد (محسن المشعشعيّ) عند بنائه القِلاع قدْ بدأ «بقلعة الحُويزة المعروفة بالمدَيْنَة إلى الآن، وأنزلَ فيها الضُّبّاط، ومُوضِع له فيها»[٣]، وأوردَ عبد النبيّ القيّم في كتابه (عرب إيران): أنّ السيّد (محسن المشعشعيّ) قدْ «بنى في المدينة قلعةً سمّاها قلعةَ المدينة»[٤].

إنّ كلا النّصينِ أثارا لدينا شكوكاً، ودعيانا إلى التوقّف عندهما؛ بسببِ عدمِ ضبطِ كلمة (المدينة) بالحركات، ودفعنا إلى الاحتمال بأنّ تلك الإشارات قدْ يكون المقصود منها قَلْعَة (المدَيْنَة)، لاسيّما أنّ (المدَيْنَة) كانت -حينذاك- خاضعة لسُلطة المشعشعين، هذا فضلاً عن أنّ القِلاعَ غالباً ما كانت تسمّى بأسماء المدن أو المواضع التي تشيَّد عليها، الأمرُ الذي يقوّي من ذلك الاحتمال، يُضاف إلى ذلك، أنّنا ومن خلال مراجعة المصادر المختصّة بتاريخ الحويزة لم نجدْ ما يُشيرُ إلى وجودِ قلعةٍ فيها بهذا الاسم؛ لاسيّما أنّ السّيّد علي خان قدْ أوردَ أنَّ تلك القلعة «معروفة بالمدينة إلى الآن»، أي حتّى عام (١١٢٨هـ -١٧١٦م)، وهو تاريخ كتابة نصِّ المخطوطة، وهذا ما يحملُنا على الاعتقاد بدلالة ما ورد في النصّينِ السّابقينِ على قلعةِ (المدَيْنَة)، التي وصفتْها الوثائقُ العثمانيّة(١٥٥٢)

(١) الرّحلة المكّيّة: ص١٣.
(٢) يُنظر: المصدر نفسه: ص١٩.
(٣) الرّحلة المكّيّة: ص١٨.
(٤) عرب إيران: ص٧٣.

بأنّها «أعظم قِلاعِ الجزائر وأحصنها»[١]

إنّ كلَّ ذلك يقودنا إلى الاحتمال بأنّ (المدَيْنَة) قدْ أصبحتْ مركزاً عسكريّاً وإداريّاً في الجزائر بعد سيطرة المشعشعينَ عليها.

بقيتْ الجزائرُ بيد المشعشعينَ إلى عام (٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م)، وفي شهر ربيع الأوّل من السّنة المذكورة خرج السيّد (فلاح بن المولى محسن المشعشعيّ) من الجزائر، وعادتْ السُّلطة فيها كاملةً إلى آل عليّان[٢].

ثالثاً: (المْدَيْنَة) إبّان الاحتلال الصفويّ للعراق (١٥٠٨-١٥٣٤م)

بعد غزو الشّاه إسماعيل الصّفويّ العراقَ والأحوازَ عام (١٥٠٨م)، أصبحتْ الجزائر في منأىً عن تهديدات المشعشعينَ[٣]، وبذلك أصبحت لآل عليّان في الجزائر، وآل مغامس في البصرة هيمنةٌ فعليّةٌ على شؤون هاتينِ المنطقتينِ قبل وصول العثمانيّينَ، وقدْ جاء في المصادر المعاصرة للأحداث أنّ زعماء آل عليّان مدّوا نفوذهم عام (١٥٢٩م)

---

(١) تقدّم تخريجه في ص١٨ من البحث، هامش(٢).

(٢) يُنظر: حمود حمادي السّاعدي، بحوث عن العراق وعشائره، دار الأندلس، النجف الأشرف،١٩٩٠م: ص٢١٩.

(٣) يُعدُّ حكم المشعشعين في الحويزة الحكم الوحيد الذي طرح نفسه عام ٨٤٥هـ في إطار المذهب الشّيعيّ الإماميّ، حتّى أسّس الشّاه إسماعيل الدّولة الصفويّة بعد ٦٢عاماً من ذلك التاريخ، بوصفه ثاني حكمٍ شيعيٍّ، ومِن الطبيعيّ هنا أنْ لا تستمرّ كلتا القوّتين الشيعيّتينِ في هذا النموّ؛ والسّبب يعود إلى معتقداتِ الشّاه إسماعيل الصفويّ وقناعاته، التي كانتْ قريبةً من معتقدات المشعشعينَ، وإنّ الشّاه إسماعيل كان يخطِّط باستمرار لتوسيع نفوذ دولته على أساس تلك المعتقدات، وبما أنّ كلا القوّتين وصلتا إلى السُّلطة تحت تأثير القوّة العقائديّة والرُّوحيّة ذاتها؛ لذا كان من الطبيعيّ أنْ ينفرد إحداهما بالزّعامة، أمّا الثاني، فيجب أنْ يكونَ تابعاً مطيعاً؛ لذا قام الشّاه إسماعيل بالزّحف على المشعشعينَ وقتل السُّلطان علي والسيّد أيّوب، وما تبقّى منهم، وتسليم الحكم إلى أحد أُمراء القزلباش، وقدْ قام فيما بعد بإعادة الحكم إليهم بعد قبولهم الطاعة والانقياد له. للمزيد، يُنظر: عبد النبيّ القيّم، عرب إيران: ص٧٩-٨١.

إلى البصرة، وطالبوا زعماء آل مغامس بدفع ضريبةٍ سنويّةٍ لهم، وهذا يدلُّ على النفوذ الواسع لآل عليّان في تلك المدّة[٤]، وما يؤكِّد ذلك لجوءالشّيخ (راشد) زعيم أُسرة آل مغامس إلى الاتفاق مع البرتغاليّين على منحهم بعض التسهيلات الملاحيّة والإغراءات الاقتصاديّة مقابل تقديم المساعدة له ضدّ خصومه من آل عليّان، وكان ذلك التحالف مبنيّاً على المصلحة الذاتيّة لكلٍّ مِن الشّيخ راشد والبرتغاليّينَ، وليس تحالفاً استراتيجيّاً؛ لاسيّما أنّ البرتغاليّينَ كانوا يبحثونَ عن كسبٍ جديدٍ لهم في المنطقة[٥]، وعلى وفق ذلك الاتفاق دخلَ البرتغاليّونَ منطقةَ الجزائر بقوّةٍ بحريّةٍ مكوَّنةٍ مِن سفينتينِ وأربعينَ جنديّاً[٦]، بإمرةِ الضّابط البحريّ(ملشبور تافرز دي سوزا Mlshbor Tavares de Souza)، وتوغّلوا شمالاً في الأنهر[٧]، واستطاع أنْ يُنهيَ الخصومات بين البصرة والجزائر، وسلَّم عربُ الجزائر للبصرة حصنينِ كانا قدْ وقعا في قبضتِهم سابقاً، وتعهّدوا -أيضاً- بدفع جزيةٍ سنويّةٍ إلى البصرة، وقدْ سأل البرتغاليّون (راشداً) أنْ يسلِّمهم ستّةَ سفنٍ كانت -آنذاك- في البصرة، وعندما رفض (راشد بن مغامس) هذا الطلب[٨]، قام البرتغاليّونَ بإحراقِ عددٍ من القرى القَصَبِيّة، ثمّ انسحبُوا من دونِ إكمالِ مهمّتهم في الجزائر؛ نتيجةً لعدم إيفاء الشّيخ (راشد بن مغامس) ومماطلته في تنفيذ ما وعدهم به[٩]،

---

(٤) يُنظر: طارق نافع الحمداني، مدنُ العراق: ص٦٥.

(٥) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص٢٥.

(٦) يُنظر: المصدر السابق: ص٢٦.

(٧) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخيّاط، ط٥، بيروت، ٢٠٠٤م: ص٥٨؛ و ج.ج.لوريمر، دليل الخليج (القسم التاريخيّ)، الجزء الأوّل، مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، قطر، د.ت : ص١٠.

(٨) يُنظر: صالح أُوزبران، الأتراك العثمانيّون والبرتغاليّون في الخليج العربي ١٥٣٤-١٥٨١م، ترجمة وتعليق عبد الجبّار ناجي، مطبعة الإرشاد ، بغداد، ١٩٧٩م: ص٢٤-٢٥.

(٩) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص٢٦.

وبذلك لم يتمكّن راشد بن مغامس من تحقيق هدفِه في كسر شوكة قبائل الجزائر بزعامة آل عليّان، وإبعاد خطرهم عنه.

بعد وفاةِ الشّاه (إسماعيل الصّفويّ) عام (١٥٢٤م) تولّى ابنُه الصّبيُّ (طهماسب) خلفاً له، كانت بغداد -حينها- تحت سيطرة (ذو الفقار)، الذي أصبح سيّدَ العراق، وأمر النّاس بأنْ يعترفوا بالتبعيّة للسُّلطان العثمانيّ، وبذلك أضاع الصّفويُّون بغداد بضربةٍ مفاجِئةٍ، ما دفع الشّاه (طهماسب) عام (١٥٣٠م) إلى السّير نحوها بقوّاته وإعادتها للسّلطة الصَّفويّة، وولّى عدداً من الضُّبّاط المخلصينَ له على مناطق العراق، ومنها الجزائر[١]، إذْ عَين والياً من قبله على البصرة ونهر عنتر، اسمُه (قانصو بيك)[٢]، ويُستدلُّ مِن ذلك على أنّ منطقة نهر عنتر -آنذاك- كانت تمثّلُ المركز الإداريّ المعتمَد للصّفويّينَ في منطقة الجزائر قبل وصول العثمانيّينَ وتعميرهم قلعة (المْدَيْنَة)، واتّخاذها مقرّاً لهم، وسيردُ تفصيلُ ذلك لاحقاً - إنْ شاء اللهُ تعالى-.

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص٣٥.

(٢) يُنظر: الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ورقة (٥)؛ وابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها: ص٥٤.

الفَصْلُ الأوّلُ
(المْدَيْنَةُ) في مطلعِ العهدِ العثمانيِّ
(١٥٤٦-١٥٩٦م)

(المَدَيْنَةُ) في مطلعِ العهد العثمانيّ (١٥٤٦-١٥٩٦م)

أوّلاً: موقفُ أمراءِ الجزائر من الاحتلالِ العثمانيّ للبصرة (١٥٤٦م)

إنّ التحالفَ القبليّ في الجزائر الذي ترأّسه آل عليّان في القرن الخامس عشر الميلاديّ، ظهر بصورةٍ أقوى وأشدّ في القرن السّادس عشر، ويرجع ذلك إلى جملةِ تطوّراتٍ سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ نجمت عن وصول العثمانيّينَ إلى جنوبِ العراقِ، ورغبتهم في فرض سيطرتهم المباشرةِ على البصرة والجزائر، وكان العثمانيّون عند دخولهم بغداد عام (١٥٣٤م)، في عهد السُّلطان سليمان القانونيّ[١]، قدْ اكتفوا بالولاء الاسميّ الذي أبداه زعماء القبائل العربيّة في البصرة والأحواز، وكذلك الرؤساء المحلِّيّونَ في أهوار الجزائر والغرّاف؛ وذلك انطلاقاً من سياستهم القائمة على عدم التدخّل في شؤون القبائل طالما كانت مواليةً لهم[٢]؛ إذْ أوفَدَ أهلُ الجزائر ممثّلين عنهم إلى السُّلطان العثماني مع وفود مشابهة

(١) سليمان القانوني: تولى السُّلطة بعد وفاة أبيه السُّلطان سليم الأوّل عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، وقد بلغت الدولة في عهده أوج قوّتها واتّساعها شرقاً وغرباً، إذْ فرض العثمانيّون سيطرتهم على بلغراد عام١٥٢١م، وفتح جزيرة رودس عام ١٥٢٢م، وتبعاً لذلك أعلنت البندقيّة ولاءها للعثمانيّين، وتمَّ الاستيلاء على المجر عام١٥٢٦م، وفشل في احتلال فينّا، وبعد قيام الصفويّين في عهد الشّاه طهماسب بإثارة القلاقل في الأناضول وسعيهم لنشر المذهب الشيعيّ، قام السُّلطان سليمان بالتوجّه إلى تبريز واحتلالها، ثمَّ فرض سيطرته على بغداد عام ١٥٣٤م، في إطار السّعي المحموم لكلتا الدّولتين في السّيطرة على العالم الإسلاميّ لدواعي توسّعيّة ومذهبيّة . يُنظر: أحمد عبد الرّحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣م: ص٢٨؛ ومجموعة من المؤلّفين، موسوعة مشاهير العالم، الجزء الثالث، ط ١، بيروت، ٢٠٠٢م: ص٤٠٨-٤١٢.

(٢) يُنظر: صالح أُوزبران، الأتراك العثمانيّون والبرتغاليّون في الخليج العربي: ص٢٩؛ وطارق نافع الحمداني، مدن العراق: ص٦٥-٦٦.

من مناطق الغرّاف والحويزة والبحرين؛ لإعلان الولاء له[١]، فيما بعث الشّيخ (راشد ابن مغامس) عام (١٥٣٥م) ولدَه (مانع) إلى السُّلطان العثمانيّ، ومعه مفاتيح البصرة، دليلاً على ولائه، وتبعاً لذلك حصلت البصرة على مرتبة (إيالة)[٢]، وأُعيد تثبيت الشّيخ (راشد بن مغامس) والياً عليها[٣]، فيما أصبحت الجزائر بموجب التقسيمات الإداريّة الجديدة لقانون (نامه سليمان) أحد(السّناجق)[٤] التابعة لولاية بغداد، ومنها:«الحلّة وزنبكار، والجزائر، والرّمّاحيّة،وحنبقولة، وقرّه داغ»[٥].

لم تكن السِّياسة القائمة على الاعتراف الاسميّ بالنفوذ العثمانيّ، التي كان يمثّلها الأمير (راشد بن مغامس) وابنه الأمير (مانع)، مقبولةً من جميع الأطراف في البصرة؛ ولهذا فقد أجبر أعيان البصرة الأمير الأخير على التنازل عن ولايته إلى ابن عمِّه الأمير (يحيى بن فضل) في حدود عام (١٥٤٥م)، وقدْ عُرِف الأمير (يحيى) بأنّه صاحب الاتجاه المعارض للعثمانيّينَ، وأنّه لم يقدِّم أيَّ نوعٍ من أنواع الطاعة والخضوع للسِّيادة

---

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص٤٠.

(٢) الإيالة: كلمة تعني التنظيم، أو الإدارة، أو ممارسة السُّلطة، أمّا في المفهوم العثماني، فتُطلق على أكبر الوحدات الإداريّة العثمانيّة، ويتولّى إدارتها شخصٌ يُسمّى بكلربكي (بك البكوات)، برتبة مير ميران –تحريف للكلمة العربيّة (أمير الأمراء)– وتكون له السُّلطة على الرُّتبة الأدنى، وهي سنجق بك . يُنظر: علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨– ١٧٥٠م/ ١٠٤٨–١١٦٤هـ، دراسة في أحواله السّياسيّة، ط١، الموصل، ١٩٨٥م: ص٢١؛ وثريّا فاروقي وآخرون، التأريخ الاقتصاديّ والاجتماعيّ للدولة العثمانيّة، ترجمة الدكتور قاسم عبدة قاسم، ط١، بيروت، ٢٠٠٧م: ج٢، ص٨٠١.

(٣) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص٢٧.

(٤) السّنجق: كلمةٌ تركيّةٌ ذات معانٍ متعدّدةٍ، تأتي بمعنى الرّاية، والعَلَم، واللِّواء، من الحجم الكبير (الذي هو أعظم شأناً من البيرق)، والسّنجق يُطلق –أيضاً– على الوحدة الإداريّة الأصغر من الإيالة، محدّدة الرُّقعة، وكان على رأس السّنجق مير لواء، الذي كان يقدِّم أثناء الحرب عدداً من الجند حسب دخل إقطاعه الخاصّ. يُنظر: علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني: ص٢١.

(٥) ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص٤٠.

العثمانيّة، إذْ أثارت تلك السِّياسة مخاوف العثمانيّينَ، لاسيّما عند تجاهله الأوامرَ العثمانيّة القاضية بأنْ يسلِّم لبغداد بعض الهاربينَ اللّاجئين إلى البصرة، وقدْ شكّل ذلك الامتناع فرصةً سانحةً للعثمانيّينَ للتوسُّع نحو البصرة والقضاء على آل مغامس[١]، وقبيل تحرّك القوّات العثمانيّة باتجاه البصرة عام (١٥٤٦م)، بعث (إياس باشا) رسالةً[٢] إلى حاكم الجزائر (علي بن عليّان)، جاء فيها:«منذ مدّةٍ طويلةٍ تربطنا (وإيّاكم) علاقةٌ ودّيّةٌ كبيرةٌ، وإنّنا على مقربةٍ من بعضنا البعض، ويرد الكفّار -والقصد منهم هنا البرتغاليّونَ- من مختلف المناطق بشكلٍ مستمرٍّ وبأمان، وطلب منّي السُّلطان سليمان قبل أيّام أنْ أتوجّه إلى البصرة، وأقوم بفتحها، وأتوجّه منها إلى هُرمز والهند، ومحاربة البرتغاليّينَ الضّالّينَ، وإنهاء جميع إدارتهم والقضاء عليهم، وقوّاتي على وشكِ التحرّك، وسنأتي عن طريق (زكية)، ونمتلكُ كلَّ المستلزمات من مدافعَ كبيرةٍ وسفنٍ، وكلّ ما يستلزمُه الجُند، وسنلتقي في القُرنة، منها سننطلق في السّيطرة على البصرة عن طريق النهر والبر»[٣]، وتُبين هذهِ الرّسالة أنّ الهدفَ الاستراتيجيّ للعثمانيّينَ في تلك المرحلة هو الوصول إلى منطقة الخليج العربيّ والهند، ومِن هنا تتوضّح أهمّيّة السّيطرة على البصرة بوصفِها البوّابة الرئيسة لانطلاق العثمانيّينَ نحو أهدافِهم، فيما تُمثِّل منطقة الجزائر الطريق الاستراتيجيّ الذي يُؤمِّن ارتباط العثمانيّين بتلك الأهداف، ويُظهر مضمون الرِّسالة محاولة (إياس باشا) تجنّب الصِّدَام مع ابن عليّان أمير الجزائر باستمالته إليه، ويُمكن أنْ نميِّزَ في ذلك مستويينِ من التعامل، **المستوى الأوّل**: اعتمد على سياسة الترغيب من خلال التذكير

(١) يُنظر: طارق الحمداني، انتفاضات القُوى العربيّة المحلّيّة في البصرة والجزائر ضدّ التوسّع العثماني خلال القرن السّادس عشر، مجلّة آفاق عربيّة، السنة التاسعة، العدد (٨)، بغداد ١٩٨٤م: ص٦٨.

(٢) هذه الرّسالة ذكرها الباحث صالح أُوزبران، وهي محفوظةٌ في لشبونة. يُنظر: فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثمانيّ، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانيّة، ط١، دار المدار الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٢م: ص٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٤١.

بالصِّلات السّابقة، ومن المحتمل أنْ يقصد بذلك التزامات الولاء التي قدّمها أُمراء الجزائر للسُّلطان سليمان القانونيّ عند سيطرته على بغداد -كما مرّ بنا سابقاً- ، وعلى المستوى ذاته حاول (إياس باشا) - في رسالته - إيجاد مشتركات عقائديّة مع ابن عليّان، تتمثّل في توحيد الجهود لصدِّ البرتغاليّينَ (الكفّار)، أمّا **المستوى الثاني**، فيقومُ على الترهيب، من خلال تصوير (إياس باشا) لابن عليّان مدى قوّة الجيش العثمانيّ القادم إلى البصرة لمحاربة آل مغامس، وتجدر الإشارة هنا إلى ماذكره المؤرّخ التركي صالح أُوزبران من وجود مراسلات للتقارب بين البرتغاليّينَ و(علي بن عليّان)، والشيخ (يحيى) حاكم البصرة، قبل دخول العثمانيّينَ البصرة عام (١٥٤٦م)[١]، وربّما تكون تلك المراسلات سبباً في محاولة العثمانيّين استمالة ابن عليّان إلى جانبهم.

ومهما يكن مِن أمرٍ فقدْ تحرّك والي بغداد (إياس باشا) على رأس حملةٍ برِّيّةٍ كبيرةٍ تُقدَّر بعشرة آلاف مقاتلٍ[٢]، وكانت تحت إمرة (علي باشا)، الذي ينسب إلى أُسرة (ذي القدر)، كما قام بتسيير أُسطول مكوَّن من (١٢٠) سفينة، وقدْ سلّم قيادته إلى أمير سنجق الموصل[٣]، وعن ذلك يذكر لونكريك أنّ الأسطول العثمانّي بلغ ثلاثمائة سفينة شراعيّة لنقل الذخائر والمؤن، فيما تقدّم حاكم البصرة شمالاً حتّى منطقة الجزائر لملاقاة الجيش العثمانيّ[٤].

وكان أهلُ الجزائر متأهّبينَ لمساندة قوّات آل مغامس، وحاول ابن عليّان -حاكم المدينة- التصدّي للقوّات العثمانيّة، إذْ سار على رأس ثلاثة آلاف مقاتل مِن أتباعِهِ[٥]،

---

(١) يُنظر: صالح أُوزبران، الأتراك العثمانيّون والبرتغاليّون في الخليج العربي: ص٤٠.
(٢) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص٤٧.
(٣) يُنظر: فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني: ص٤١.
(٤) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص٤٧.
(٥) يُنظر: فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني: ص٤٢.

وبعد قتالٍ عنيفٍ لم تستطع قوّات ابن مغامس وقبائل الجزائر المساندة له الوقوفَ بوجه القوّاتِ العثمانيّة الكبيرة، إذْ انسحب المقاومونَ من ساحة المعركة، واختفوا في أعماق الجزائر بعد اندحار ابن مغامس ولجوئه بعدها إلى نجد[١].

تبعاً لذلك، دخل العثمانيّونَ البصرة، وأعلنوا إلغاء الضّرائب السّابقة، وأحلّوا مكانها الضّرائب التي (أمر بها الشّرعُ)، وبقي (إياس باشا) والياً عليها، غير أنّ ذلك لا يعني الخضوع التام للسُّلطة العثمانيّة، إذْ كانت روح الثورة تتّقدُ في نفوس سكّان القبائل العربيّة، لاسيّما في مناطق الجزائر؛ بحكم طبيعتها الاستقلاليّة الرّافضة للاحتلال والتبعيّة لأيّة سلطةٍ خارجيّةٍ مهما كانت، وقدْ زاد ذلك الرّفض عندما أراد العثمانيّونَ إخضاعَ المنطقة إلى سلطتهم المباشرة وإدارتها على وفقِ نظامِ الإقطاع العسكريّ[٢]؛ لذا وقفتْ القبائلُ العربيّةُ في الجزائر ضدَّ العثمانيّينَ منذُ وصولهم البصرة عام (١٥٤٦م)[٣].

---

(١) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص٢٩ .

(٢) كان السُّلطان يُقطِع القادة والأغوات والحكّام مساحاتٍ واسعةً من الأراضي الصّالحة للزّراعة، الذين عُرِفوا حسب تقسيماتها بأصحاب (التِّيمار)، وتتراوح مساحتُه بين (٣٠٠-٥٠٠) فدّان، و(الزعامت) إقطاعٌ أكبر من التِّيمار، تزيد مساحته على (٥٠٠) فدّان، وعادةً ما يملكه البكوات والزُّعماء والباشوات، ويتراوح دخلُه بين (١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠) أقجة سنويّاً، (والأقجة عملة فضِّيّة، وهي وحدةُ النقد الأساسيّة في الدّولة العثمانيّة حتى النصف الأوّل من القرنِ السّابع عشر)، أمّا (الخاصّ)، فهو إقطاعٌ كبيرٌ يزيد وارده السّنويّ على (١٠٠٠٠٠) أقجة، وعادةً ما يُمنح للولاة من الوزراء، وهناك أراضٍ (خواصّ) في عدّةِ ولاياتٍ، مسجّلة باسم السُّلطان تحت عنوان (خواصي همايون)، وكانت الإقطاعيّات العسكريّة تتوزّعها الولايات العثمانيّة، وتنقسم الولايات إلى سناجق، ويتألّف كلُّ سنجقٍ من التيمارات والزّعامات. للتفصيل يُنظر: خليل علي مراد، تأريخ العراق الإداريّ والاقتصاديّ في العهد العثمانيّ (١٦٣٨ - ١٧٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٦م: ص ٢٨٩- ٣٠٩.

(٣) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص٤٧؛ وابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها: ص١٥؛ وجعفر الخيّاط، صور من تاريخ العراق: ص٣٦؛ وغافن يونغ، العودة إلى الأهوار، ترجمة فريد شكاره، دار الشؤون الثقافية العامّة ،بغداد، ١٩٩٠م: ص٥٠.

لقدْ قطعتْ تلك القبائل جميع الطُّرق المؤدِّية إلى ولاية البصرة، عندها أصدرتْ السُّلطاتُ العثمانيّةُ أوامرها القاضية بتأديب الثائرينَ هناك إلى (علي باشا) تمرّد رئيس إنكشارّيي بغداد -وربّما واليها- وبعد أنْ أكمل استعداداته العسكريّة توجّه بقوّاته نحو البصرة، فتوقّفَ في الغرّاف، وانضمَّ إليه هناك (علي بك)، وكان (سنجق بكي) لتلك المنطقة، فنزلَ الجيشُ الموحّد إلى جانب الفرات، وضرب حصاره على (المدَيْنَة)، التي كانت مقرّاً لـ(عبد الحسين بن عليّان)، قائد الثوّار، وبعد ثلاثة أيّام من القتال استولى العثمانيّونَ على (المدَيْنَة)، وكُسِرت حماسة القبائل، وفرَّ زعيم آل عليّان مع أتباعه متفرِّقينَ في الأهوار، إلّا إنّهم لم يتركوا المقاومة، بل استمرّوا في التعرّض للجنود العثمانيّينَ، وقطع طُرق إمدادهم، وعليه أقام (علي باشا) الاستحكامات القويّة لضبط المواصلات المائيّة، وبعد أنْ أكمل عمليّة التهدئة -مؤقّتاً- عاد إلى مقرّه في بغداد[1]، وبذلك انقادت الأطراف، ودخلتْ الجزائرُ- اسميّاً - في حوزة الدولة العثمانيّة؛ إذْ اكتملت سيطرةُ الدولة العثمانيّة على العراق[2]، ويتّضح ممّا تقدّم أنّ (الْمَدَيْنَة) كانت آخر معاقل المقاومة، التي فرضَ العثمانيّونَ سيطرتهم عليها.

تمكّن العثمانيّونَ من فرض نفوذهم على البصرة وإنهاء حكم آل مغامس عليها، إلّا أنّهم عجزوا عن تحقيق هذا الأمر بالنسبة لإمارة آل عليّان في الجزائر؛ ويعودُ السّببُ في ذلك إلى طبيعة المنطقة التي كان معظمها مناطقَ أهوارٍ ومستنقعاتٍ، ولم يكن بوسع العثمانيّينَ الوصول إليها بسهولة، فضلاً عن صلابة أهلها وشجاعتهم، وعليه كان هدفُ العثمانيّين مضنياً في تحطيم قوّة تلك العشائر وإخضاعها بصورةٍ نهائيّةٍ للسّيطرة العثمانيّة[3]؛ لذا لجؤوا إلى ممارسة الضّغط الاقتصاديّ ضدّ السكّان، وتطبيق سياسة

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص٤٨.

(٢) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م: ج٤، ص٦٣.

(٣) يُنظر: طارق نافع الحمداني، انتفاضات القوى العربيّة المحلّيّة في البصرة والجزائر: ص٦٩.

الأرض المحروقة تجاه العشائر، من خلال تدمير المزروعات، وقلع الأشجار المثمرة، ومنها النخيل، التي توجد على نطاقٍ واسعٍ في منطقة الجزائر وما يُحيطُ بها[١].

على الرُّغم من وجود الحامياتِ العسكريّةِ العثمانيّةِ في الجزائر، إلّا إنّها لم تتمكّن من السّيطرة الفعليّة الكاملة على عموم مناطق الأهوار الوعِرة، الأمر الذي مكّن قائد المقاومة القبليّة (علي بن عليّان) من إعادة تنظيم أتباعه، مستغلّاً ظروف الصِّراع بين الدولتينِ العثمانيّة والصّفويّة، وقيام الحرب بينهما عام(١٥٤٨م) بحجّة مساعدة الدّولة العثمانيّة لشقيق الشّاه (طهماسب) الأمير (إلقاصب ميرزا)، الذي كان يبحث عن الإسناد والحماية لدى السُّلطان العثمانيّ سليمان القانونيّ، الأمر الذي ساعد على إنعاش الآمال العربيّة بدرجة ملحوظة، وبدأ ابن عليّان بالإعداد لانتفاضةٍ عامّةٍ في جنوب العراق، فقام بتوحيد القبائل على جانبي الفرات الأسفل في ضواحي البصرة تحت سلطته[٢]، وقدْ شكّلتْ تلك الانتفاضة دعماً للصَّفويّينَ، الذين حاولُوا عدم الانجرار إلى العمليّات العسكريّة داخل العراق، بل قامُوا بدعم الحركات المحلّيّة المعارضة للعثمانيّينَ في محاولةٍ منهم لإثارة الفتن والقلاقل في معسكر العدُوّ[٣]، ونجح عام (١٥٤٩م) في السَّيطرة على المناطق الواقعة شمال البصرة، وفَرَضَ حصاراً اقتصاديّاً على (المدَيْنَة) بعد قطع الطُّرق المؤدِّية إليها، ومَنَعَ وصول الإمدادات والتجهيزات إلى القوّات العثمانيّة الموجودة فيها، وعندما شعر الحاكمُ العسكريُّ العثمانيُّ في منطقة الجزائر (علي بيك) بحرجِ موقفِه

(١) يُنظر: حسين علي عبيد المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٥٣.

(٢) يُنظر: ألكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتي، ط١، البصرة، ١٩٨٩م: ج٢، ص٧٠-٧١؛ وأحمد عبد الرّحيم مصطفى، في أُصول التاريخ العثمانيّ: ص٩٢.

(٣) يُنظر: نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربيّة ١٥١٦-١٥٧٤م، ترجمة يوسف عطا الله، ط٢، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٤م: ص١١٥.

سارع إلى طلب المعونة من والي البصرة، فقام الأخير بإحالة طلبه إلى بغداد[١]، ما دفع العثمانيّين إلى توجيه حملةٍ عسكريّةٍ كبيرةٍ ضمّتْ قوّاتٍ مِن ولايتي ديار بكر وقرمان، فضلاً عن قوّات ولاية بغداد والانكشاريّة الموجودين فيها[٢]، وقدْ توجّهتْ تلك الحملة إلى (الْمَدَيْنَة) التي اتّخذها الثوّارُ مركزاً قياديّاً لهم، وتشير المعلومات التي أوردها نظمي زادة إلى «أنّ العثمانيّينَ كانوا قدْ فرضوا حصاراً كبيراً على (الْمَدَيْنَة)، واستخدموا كلَّ أنواع المدفعيّة والبنادق لإخضاعِ الثوّار، إلّا أنّهم تصدّوا للقوّات العثمانيّة، وقدْ اتّخذَ القتالُ بينَ الطرفينِ شكلَ الملاحم الأسطوريّة»[٣]، واستمرّتْ الحرب بين العسكرينِ حدود أربعة أيّام، لم يَقوَ ابنُ عليّان بعدها على المقاومة[٤]، فاستولتْ العساكر العثمانيّة على (الْمَدَيْنَة) عاصمة الجزائر[٥]، عندها اضطرّ ابن عليّان إلى طلب الصُّلح[٦]، وفُرِضَت عليه الموافقة على دفع خمسَ عشرةَ سكّة (Sikke) -وهو نقدٌ عثمانيٌّ- ذهباً كلَّ سنة إلى الحكومة العثمانيّة، وأنْ يُعيدَ بناء بعض الحُصون، ومن ضمنِها القُرنة[٧].

(١) يُنظر: طارق نافع الحمداني، انتفاضات القوى العربيّة المحلّيّة في البصرة والجزائر: ص٦٩.

(٢) يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة أواسط القرن العاشر الهجريّ/ السّادس عشر الميلادي: المجلّد الثاني، ص١٠٧.

(٣) نظمي زادة مرتضى أفندي، كلشن خلفا: ص٢٠٢-٢٠٣؛ وعمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربيّ (١٥١٦-١٩٢٢م)، بيروت: ص٩٣؛ وطارق الحمداني، مدن العراق: ص٦٧.

(٤) يُنظر: ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها: ص٥٧ .

(٥) يُنظر: عبد الكريم محمود غرايبة، مقدّمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠-١٩١٨م، دمشق، ١٩٦٠م: ج١، ص١٠٧.

(٦) يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١٠٧.

(٧) يُنظر: صالح أُوزبران، الأتراك العثمانيّون والبرتغاليّون في الخليج العربي: ص٩٢، هامش ٩.

ثانياً: الإدارةُ العثمانيّة في (الْمَدَيْنَة) والجزائر

وتبعاً لذلك دخلت (الْمَدَيْنَة) عام (٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م) في حكم العثمانيّينَ[١]، إلاّ إنّ ذلك الصُّلح لم يدُم طويلاً، إذْ عاودَ ابنُ عليّان ومَن معه من قبائل الجزائر تصدِّيه للقوّات العثمانيّة[٢]، وتهديده الطُّرق الموصلة إلى البصرة[٣]، ولم تخضعْ (الْمَدَيْنَة) وعموم الجزائر -آنذاك- للتقسيمات الإداريّة العثمانيّة، التي أصبحت البصرة بموجبها إيالة (ولاية) عثمانيّة، حينما قُسِّمت إلى ثمانية ألوية «البصرة، وهي مركز الإيالة، شرش، غزّاف، صدر سويب، زكية، محرزي، قبان، قطيف»، وثلاث نواحي «عشّار، وناحية الشّمال [يقصد بها شمال مركز الإيالة حتّى الدِّير] وناحية خلق»[٤]، ومِن المرجَّح أنَّ عدم خضوع (الْمَدَيْنَة) والجزائر -حينذاك- للتقسيمات الإداريّة لولاية البصرة يرجع بطبيعة الحال إلى فقدان الاستقرار الأمنيّ في تلك المنطقة؛ نتيجةً لاستمرار المقاومة القبَلِيّة بزعامة آل عليّان، وفشل العثمانيّين في القضاء عليها، أو إضعافها، الأمرُ الذي حال دون إمكان بناء نظامٍ إداريٍّ فيها، واستمرار بقائها تحت سلطة الحاكم العسكريّ العثمانيّ.

يُستدَلُّ من خلال الوثائق العثمانيّة أنّ منطقة (الْمَدَيْنَة) والجزائر لم يتمَّ إلحاقها بالنظام الإداريّ العثمانيّ إلّا في عام (٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م)، إذْ سعى العثمانيّونَ بعد فتحِهم قلعة (الْمَدَيْنَة) -التي وُصفتْ بأنّها «أعظم قلاع الجزائر وأحصنها»- إلى تنظيم الشؤون العسكريّة والإداريّة فيها، أُسوةً بمناطق البصرة الأُخَر، وعليه وجّه الدِّيوان الهمايوني (السُّلطاني) في استنبول في(٢٩ جمادى الأولى ٩٥٩هـ/ ٢٣ آيار١٥٥٢م) أوامره إلى

(١) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص٧١.

(٢) يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١٠٧.

(٣) يُنظر: طارق الحمداني، مدن العراق: ص٦٧.

(٤) عارف مرضي الفتح، الإيجاز في تاريخ البصرة ونجد والحجاز، الدّار العربيّة للموسوعات، بيروت، د.ت: المجلّد الأوّل، ص٤٥٠؛ وحسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثمانيّ: ص٤٤.

والي بغداد (علي باشا) لبذل قصارى مساعيه في مسألة إصلاح الجزائر، على أنْ تواصل القوّات الموجودة معه – مِن ديار بكر وقرمان والقبوقوليّة – والمكلّفة بالسّيطرة على المنطقة، البقاء في الخدمة، على أنْ يحتفظ منها بما يحتاجه، إلى حين استقرار الأوضاع في المنطقة، والسّعي بكلِّ جهده للقبض على ابن عليّان– الذي وُصِف بـ(المفسد)– مؤكِّداً ضرورة (تطهير البلاد منه)؛ لأنّ بقاءه فيها يجعلها عُرضة للاضطراب الدّائم[١].

ومن خلال الأمر السُّلطاني المذكور آنفاً يتّضحُ أنّ سياسة الحكومة العثمانيّة اتّسمتْ بتكثيف جهودها ضدَّ ابن عليّان؛ لأنّه شكّل العامل الأقوى في تحجيم سيطرتهم على الجزائر، وباعتقادهم أنّ القبض عليه سيؤدّي إلى استقرار المنطقة، ويبدو أنّهم باتُوا على قناعةٍ تامّةٍ بأنّ ابن عليّان استطاع أنْ يحولَ دون ذلك، وكان أمراً طبيعيّاً أنْ تصفَه بالمفسد.

وجد البابُ العالي في اسطنبول ضرورةً في إلحاق المنطقة إداريّاً بالدولة العثمانيّة، عندها وجَّه الدِّيوان الهمايوني جملةً من الأسئلة إلى والي بغداد (علي باشا)، بُغية الإحاطة بكلّ ما يتعلّق بأحوال المنطقة وأوضاعها، وتضمّنتْ تلك الأسئلة مايأتي:

–هل في المنطقة أماكن تصلح –إداريّاً– أنْ تكونَ ألويةً غير منطقتي صدر الدّار وشطّ طويل[٢]؟

– وفي حال تحويل منطقة الجزائر إلى بكلربكيّة (ولاية)، فأينَ يمكن أن يقيمَ الوالي؟ وهل قلعةُ (الْمَدَيْنَة) صالحةٌ لتكون مقرّاً للولاية أو لا؟

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد في ٢٩/ جمادى الأولى/ ٩٥٩هـ الموافق ٢٣/ آيار/ ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١٠٩–١١١.

(٢) يُسمّى حاليّاً بنهر الطويل، وهو على الضفّة الشّماليّة لنهر الفرات، ويقعُ في أراضي قرية خميسة الحاليّة، ويؤكِّد ذلك ما ذكره عبّاس العزّاوي في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص١٣٤، من أنّ نهر الطويل يقعُ في الضفّة المقابلة لقلعة الرّحمانيّة. (**الباحثان**).

- وهل وارداتُ المنطقة قادرة على تغطية مرتّبات الوالي وأُمراء السّناجق والأفراد العسكريّينَ؟ وكيف؟

- إلى كم لواءٍ يمكن تقسيم المنطقة؟ وكم أميرٍ تحتاج الألوية؟

- وهل من المناسب أنْ تتحوّل قلعة ((المْدَيْنَة) المفتوحة)إلى (مركز) ولاية مستقلّة؟، أو يتمَّ تحويلُها إلى (مركز) لواء تابع لولاية البصرة؟ أو يتمَّ تحويل قلعة ((المْدَيْنَة) المفتوحة) إلى ولاية مستقلّة، وإلحاق البصرة بها بوصفها لواءً؟[١].

بناءً عليه قدّم والي بغداد (علي باشا) مقتراحاته إلى الدّيوان الهمايونيّ للنظر بها، إذْ وجد أنّ طبيعة منطقة الجزائر واتّساعها استوجبت بناء قلعتين أُخريتين، فضلاً عن قلعة (المْدَيْنَة)؛ لأنّه كان يرى صعوبة التصدّي للعشائر الرافضة للوجود العثمانيّ، وكبح جماحها، من دون مرابطة قوّات عسكريّة فيها، لإخافة أفراد تلك العشائر وإشاعة الرُّعب في قلوبهم، الأمرُ الذي يضطرّهم إلى الفرار من جزيرةٍ إلى أخرى، كما أبلغ الدّيوان الهمايونيّ بعدم حاجته إلى الجنود من الفرسان (الخيّالة) مطلقاً، بل إلى حملة البنادق ورماة السِّهام[٢].

لعلَّ مقترح الاستغناء عن صنف الخيّالة يعود إلى دراية والي بغداد بطبيعة المنطقة، التي تتكوّن في غالبيّتها من جزرٍ متناثرةٍ يتطلّبُ التنقّل فيما بينها إلى الزَّوارق بدلاً من الحيوانات التي يعتمدها صنفُ الخيّالة.

بناءً عليه، أصدر الدّيوان الهمايونيّ في اسطنبول في (٧ شعبان ٩٥٩هـ/ ٢٩

---

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد في ٢٩/ جمادى الأولى/ ٩٥٩هـ الموافق ٢٣/ آيار/ ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١٠٩-١١١.

(٢) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد علي باشا، في ٧/ شعبان/ ٩٥٩هـ الموافق ٢٩/ تمّوز/ ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات، المصدر السّابق: ص١١٥-١١٦.

تمّوز١٥٥٢م) عدّة أحكامٍ موجّهةٍ إلى والي بغداد (علي باشا)، تضمّنتْ جوانب عسكريّة وإداريّة وماليّة، إذْ منح السُّلطان سليمان القانونيّ والي بغداد ترقيةً بمائة ألف أقجة، وأرسل إليه بخِلعته السُّلطانية تقديراً لجهوده في فتح قلعة (الْمَدَيْنَة)، وأمره بتحصين الأماكن المفتوحة، وعدم ترك أيّة منطقة من دون تأمين الحماية اللّازمة لها[١].

استناداً إلى سجلّات الأحكام العثمانيّة، فقدْ أصدر الدّيوان الهمايونيّ كذلك أوامر أُخَر إلى حاكمَي (العماديّة والجزيرة)، وأمراء سناجق (هيتوم وصوران وبابان وسيدي عجوز)؛ لتهيئة مقاتلين وتجهيزهم بالأسلحة والمعدّات، مع موادَّ غذائيّة تكفيهم لمدّة شهرٍ؛ ليكونوا جاهزين للتوجّه إلى منطقة الجزائر بعد تلقّيهم إشعاراً من والي بغداد، على أنْ يرافقهم أشخاصٌ أكفَاء، وأغوات(رؤساء) العشائر من تلك المناطق؛ ليقوموا بحفظ الأمن في المناطق المفتوحة وحراستها بالتناوب، وقدْ تراوح عددُ الأشخاص الذين حدّدَ الدّيوانُ الهمايوني إرسالَهم من كلِّ لواءٍ من ألفٍ إلى خمسمائةٍ حسب إمكان تلك الألوية، كما وردتْ في هذه الأوامر إشارةٌ إلى أمرٍ موجّهٍ إلى سلطان (حسين بك) حاكم العماديّة لتهيئة اسطول مكوّن من خمسمائة قطعة لنقل هؤلاء المقاتلين عَبر نهر دجلة[٢].

أمّا في الجانب الإداريّ، فقدْ أمر الدّيوان الهمايوني والي بغداد (علي باشا) في (٢٩ تمّوز١٥٥٢م) بناءً على مراسلاته السّابقة معه، بتحويل قلعة ((الْمَدَيْنَة) والجزائر) إلى ولاية مستقلّة[٣]، وأصدرَ في اليوم ذاته حكمًا سلطانيّاً إلى والي البصرة (قباذ باشا) يقضي بتفويضه أمر ولاية ((الْمَدَيْنَة) والجزائر)، وأكّد عليه أنْ يكونَ «مُجِدًّاً وغيوراً في إحياء

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد علي باشا، في ٧/ شعبان/ ٩٥٩هـ الموافق ٢٩/ تمّوز/ ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١١٦.

(٢) يُنظر: (دفتر المهمة رقم ٨٨٨، ص١٤١ب). نقلًا عن: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١١٣.

(٣) يُنظر: المصدر نفسه: ص١١٣.

وإعمار وحفظ وحماية الولاية»، وطبقاً لما ورد في الحكم ذاته، فقدْ تمّ تخفيض وضع البصرة الإداريّ بتحويلها من ولاية إلى لواءٍ (سنجق) تابع للولاية الجديدة، وعيّن (محمّد بن قباذ باشا) أميراً للواء البصرة، وفوّض (لقباذ باشا) النظر في أمور الولاية واللِّواء معاً، وفوَّضَ إليه كذلك أمرَ الأماكن المفتوحة من الولاية، وأنْ يقومَ بتصحيح وضعها وإصلاحها بكلِّ الطرق الممكنة، سواء بالاستمالة أم السّيطرة[١].

أمّا من الناحية الماليّة، فقدْ أدرك الدِّيوان الهمايونيّ عدمَ قدرة منطقة ((الْمَدَيْنَة) والجزائر) على تغطية نفقاتها الماليّة بالاعتماد على إمكاناتها الذاتيّة؛ لذا أوعزَ الدّيوان إلى مسؤول الماليّة في ولاية بغداد بدفعِ مرتّبات الجنود من الأموالِ الفائضة عن نفقات الخزينة في تلك الولاية، ويبدو أنّ الدّيوان كان يخشى من عدم كفاية هذه الأموال؛ لذا أوعزَ إلى دفتر دار[المسؤول عن الإدارة الماليّة] ولاية ديار بكر بتوفير ما يُمكن توفيرُه من خزينة ولايتِه، وإرساله إلى بغداد، وذلك بعد إخراج مايلزم صرفُه في (وَان وديار بكر)، ومِن ثَمَّ إرسال كلّ تلك الأموال على وجه السُّرعة إلى ولاية ((الْمَدَيْنَة) والجزائر)، وقدْ برّرَ الدّيوانُ الهمايوني تلك الإجراءات بصعوبة إرسال الأموال مباشرةً من مركز الدّولة في اسطنبول إلى الجزائر، وأكّدَ ضرورةَ استمرار توريد الأموال إلى الولاية الجديدة ريثما يتمُّ تنظيم أمورِها، وتحصيل الأموال اللّازمة منها[٢].

إنّ بيئةَ الجزائر المائيّة وانتشار الأهوار على مساحةٍ واسعةٍ منها، حتم على العثمانيّينَ توفير ما يكفي من وسائط النقل الملائمة للاتصال ونقل الجنود بين أرجائها، وتبعاً

---

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في استنبول إلى بكلربكي البصرة قباذ باشا، في ٧/ شعبان/ ٩٥٩هـ الموافق ٢٩/ تمّوز/ ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١١٨-١١٩.

(٢) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد علي باشا، في ٧/ شعبان/ ٩٥٩هـ الموافق ٢٩/ تمّوز/ ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات ، المصدر السّابق: ص١١٧.

لذلك، واستناداً إلى ما جاء في سجلّات الأحكام العثمانيّة ، فقدْ صدرتْ الأوامرُ السُّلطانيّة إلى دفتر دار عربستان بشأن بناء ثلاثمائة سفينة وإرسالها إلى المنطقة عَبر نهر الفرات، وأَمَرَ الدّيوان الهمايوني -كذلك- والي حلب بتجهيز مستلزمات تلك السُّفن مِن ترسانة السُّفن في منطقة (بيره جك)، وحدَّدَ الدّيوان مواصفاتها: على أنْ تسعَ كلُّ واحدةٍ منها عشرةَ مجدِّفينَ، وعشرةَ مقاتلينَ مع لوازمهم، وتكون على غرار الزَّوارق المستخدمة في البحار، وليس على غرار السُّفن المستخدمة في نهر الفرات؛ لتكون لها القُدرة على التحرّك والمناورة في الأماكن التي يكثر فيها القصب، وطلب من والي حلب مفاتحة أمراء السّناجق والقضاة في سواحل نهر الفرات، لتوفير النجّارين والمستلزمات الأُخَر لتلك السُّفن[١].

أمّا في الجوانب التنظيميّة الأُخَر، فقدْ أشارتْ الوثائق العثمانيّة إلى اهتمام العثمانيّينَ في الجانب القضائيّ لولاية ((الْمَدَيْنَة) والجزائر)؛ إذْ أمر الدّيوان بتعيين قاضي الحلّة (مولانا علاء الدِّين) قاضياً للولاية، وطلب منه الإسراع في التوجّه إلى المنطقة لمزاولة عملِهِ[٢]، وأصدر في(٢٩تمّوز١٥٥٢م) إذناً بالموافقة على بناء جامعٍ في داخل (الْمَدَيْنَة) لتُقام فيه صلاة الجمعة، وكان ذلك بناءً على طلب والي بغداد (علي باشا)[٣].

إنّ حرص الدّولة العثمانيّة على إشاعة الاستقرار والأمن في ولاية الجزائر دَفَعَ الدّيوان الهمايوني إلى التدخّل في تحديد السّياسة الواجب اتّباعها من قبل الوالي تُجاه السكّان، إذْ أكّدَ الدّيوان ضرورةَ اتخاذ الإجراءات الرّادعة بحقِّ المناوئينَ، وأنْ يسلكَ سبيلَ اللِّينِ

(١) يُنظر: (دفتر المهمّة رقم ٨٨٨، ص٣٣٩)، نقلًا عن: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١١٤.

(٢) يُنظر: (دفتر المهمّة، رقم ٨٨٨، ص٣٤٦)، نقلًا عن: فاضل بيات ، المصدر السّابق: ص١١٤-١١٥.

(٣) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي الجزائر و(الْمَدَيْنَة) قباذ باشا، في ٧/ شعبان/ ٩٥٩هـ الموافق ٢٩/ تمّوز/ ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات: المجلّد الثاني، ص١٢٠.

مع الأفراد المسالمينَ وحماية مصالحهم، وتكريم المتعاونينَ منهم، وفي هذا المنحى أوردتْ سجلّاتُ الأحكام العثمانيّة، مرسوماً سلطانيّاً في (٨ شعبان ٩٥٩هـ/ ٣٠ تمّوز١٥٥٢م)، يقضي بتكريم أمراء العشائر، ولم يتردّدْ الدّيوان الهمايوني في إرسال خطابٍ إليهم باسم السُّلطان سليمان القانونيّ؛ تقديراً لمواقفهم تجاه الدولة العثمانيّة، ومنهم: الشّيخ (محمّد ابن عبد العزيز) المعروف بـ(شيخ بني أَخلاف)، الذي أسدى خدماته للدّولة، وأسهَمَ في بناء قلعة الجزائر، فكُرِّمَ بمنحِهِ منصبَ لواء[1]، فيما أكّدتْ أحكامٌ أُخَر موجّهةٌ إلى والي ((الْمَدَيْنَة) والجزائر) تضمّنتْ العملَ على إحياء الولاية وإعمارها، وعدم التعرّض لممتلكات الأهالي، والحفاظ على المكانة السّابقة للشّيوخ والعلماء والأمراء والأعيان في الولاية، وسائر الأهالي، من دون تغيير، وتركهم يتصرّفونَ بما يملكونَ من البساتين والكروم، وغيرها من الأملاك، ومنع التعرّض مطلقاً لما يخصُّهم بشكلٍ كلّيٍّ أو جزئيٍّ؛ وذلك لزرع الاطمئنان في نفوس العشائر، ونزع الخوف عن قلوبهم، وأكَّدَ الدِّيوانُ في الوقت ذاته عدمَ جواز التغافل عمّا وصفه بـ(حِيَل الأعراب)، وعدم فسح المجال لأصحاب الأملاك ممّن يدّعونَ الإمارة والملك، ويَدعُون إلى (الفتنةِ والفسادِ)، ودعا إلى ردعِهم، والتنكيلِ بهم، ولعلَّه كان يقصدُ بذلكَ ابن عليّان وأتباعَه مِن أُمراء الجزائر وشيوخها، الرّافضينَ للوجودِ العثمانيّ في بلادِهم، وأكّدتْ الأحكامُ -كذلك- مصادرةَ كلِّ مايمتلكُهُ ابنُ عليّان مِن أموالٍ وأملاكٍ، ومصادرة أملاك جميعِ الفارّينَ من السكّانِ وأموالهم[2].

بدأ (قباذ باشا) عمله فعليّاً مِن مقرّه في قلعة (الْمَدَيْنَة) لإدارة شؤون ولاية (الْمَدَيْنَة والجزائر)، فضلاً عن لواء البصرة، وهذا ماتدلُّ عليه الوثائق العثمانيّة في ضوء الأحكام

(١) يُنظر: (دفتر المهمّة رقم ٨٨٨، ص٣٤٢ أ). نقلًا عن: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١٢٠-١٢١.

(٢) يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص١٢١-١٢٣.

السُّلطانيّة الموجّهة إلى الوالي (قباذ باشا)، ومطالبتُه برفع تقارير مفصّلة عن أحوال الجزائر والبصرة بما في ذلك منطقة الأحساء[١]، ولم توضِّح الوثائق طبيعة علاقة الوالي (قباذ باشا) بمنطقة الأحساء، ويبدو أنّها كانت -آنذاك- سنجقاً تابعاً لولاية (الْمَدَيْنَة والجزائر).

واضطلع الوالي (قباذ باشا) -بناءً على الأوامر الصادرة له من اسطنبول- بمهامّ إضافيّة تمثّلتْ في متابعة تحرّكات الحملة البحريّة العثمانيّة، التي تحرّكت في نيسان (١٥٥٢م) بقيادة القبودان[٢] (بيري الريس)، قائد الأسطول العثماني في السُّويس؛ لمنازلة البرتغاليّين في الخليج العربي[٣]، وأنْ يكتبَ إلى الباب العالي لإحاطته علمًا بتفاصيل تلك

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلر بكي الجزائر و(الْمَدَيْنَة)، في ٢٦/ شوّال/ ٩٥٩هـ الموافق ١٥/ تشرين الأوّل/ ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص٢٩٦.

(٢) القبودان: كلمةٌ إيطاليّةٌ معناها الرئيس، انتقلت إلى العثمانيّين بعد جلب أساتذة السُّفن المهرة، ومعلِّمي البحريّة من البندقيّة؛ لبناء الأسطول العثماني، والقبودان في الحكومة العثمانيّة يعني أمير البحر، وكان مقرّه في البصرة في منطقة المنّاوي. للمزيد، يُنظر: علاء موسى كاظم نورس، وعماد عبد السّلام، إمارة كعب العربيّة في القرن الثامن عشر على ضوء الوثائق البريطانيّة، بغداد، ١٩٨٢م: ص ٥٣.

(٣) من الجدير بالذّكر أنّ الصراعَ (العثماني- البرتغالي) بدأ منذ سيطرة العثمانيّين على مصر ١٥١٧م وتهديد البرتغاليّين للوجود الإسلاميّ، ونيّتُهم في السَّيطرة على مقدّسات المسلمينَ في مكّة والمدينة، وتأسيساً على تلك النيّة، سارع العثمانيّونَ إلى توحيد جهودِهم مع شريفِ مكّة والقوى اليمنيّة لمواجهة البرتغاليّين، وتمكّن الأُسطول العثمانيّ في السُّويس عام ١٥٣٧م من منازلة البرتغاليّين وطردهم من عدن، ومِن ثمّ اتّجه إلى الخليج العربي واستولى على مسقط، وحاصر جزيرة هرمز، وتمكّن من مساعدة أهل القطيف على الإطاحةِ بالبرتغاليّين وتسليم المدينة للعثمانيّين، وفي إطار الهجمات والهجمات المضادّة بين البرتغاليّينَ والعثمانيّينَ، تمكّن البرتغاليّونَ لاحقاً من تدمير حامية القطيف، في حين لم يحقّقوا شيئاً في البصرة، وقدْ دفع ذلك العثمانيّونَ إلى الانتقام، فسيَّروا عام ١٥٥٢م الحملة البحريّة - التي نحن بصددها- بقيادة (بيري الريس) المكوّنة من ثلاثينَ سفينةً، ونحجت تلك الحملة في إنزال ضربات شديدة بالبرتغاليّين في مسقط، والسّيطرة عليها بعد أنْ أوقعُوا بقائد الحامية البرتغاليّة (داليسباو)،

الحملة[1]، وطبقاً لما ورد في الأمر السُّلطانيّ الموجّه إلى بكلربكي ولاية الجزائر و(الْمَدَيْنَة) أنّ بيري الريس أرسل رسالةً إلى والي (الجزائر والمدَيْنَة) مع أحدِ رجاله من البحّارة، أورَدَ فيها كلَّ مايتعلّق بحملتِه، وما حقّقه من انتصارات بحريّة على البرتغاليّينَ في الخليج العربيّ، وكان إرسالها في أثناء حصار القبودان (بيري الريس) للبرتغاليّين في جزيرة هرمز، وقدْ طلب الوالي (قباذ باشا) من الدِّيوان الهمايونيّ أنْ يُصدر أمراً إلى الأُسطول العثمانيّ للمرابطة في البلاد التي يحتلُّها في الخليج العربيّ وضبط موانئها؛ لأنّ وجود الأُسطول العسكريّ في تلك الأرجاء يُعدُّ ذا فائدةٍ لحفظ البصرة وضبطِ الأمن في منطقة الجزائر، وردع تحرّكات القزلباش(الصّفويّينَ)، وقدْ وعَدَ الدِّيوانُ الوالي (قباذ باشا) بتنفيذ طلبه في حالة فتح هرمز والبحرين، وفوّض إليه صلاحيّة تدبير أمور الأُسطول كافّة بالتداول مع القبودان (بيري الريس)، لاسيَّما فيما يخصُّ اتخاذ القرار

وشنّتْ السُّفُن العثمانيّة هجوماً على جزيرة قشم، لكنّها عجزت عن دخول جزيرة هرمز؛ بسبب وصول النجدات البحريّة البرتغاليّة المرسَلة مِن الهند، وشهِدَتْ المدّة من ١٥٥٢-١٥٥٤م بعض التطوّرات التي أدّت إلى أنْ يتولّى (مراد بيك) سنجق القطيف، وقيادة سفن الأُسطول العثمانيّ المتبقّية في البصرة، وتقدّم (مراد بيك) بأُسطوله عَبر الخليج العربيّ نحو البحر الأحمر لمواجهة الأُسطول البرتغاليّ المتّجه نحو جدّة، غير أنّ القائد البرتغاليّ (دي فورتها) تمكّن من هزيمة (مراد بيك)، واضطرّه إلى العودة بسفنه المتبقّية نحو البصرة، إذْ عهد السُّلطان العثمانيّ بقيادتها إلى (علي بن حسين)، الذي غادر البصرة في تمّوز ١٥٥٤م، وهُزِم في العام ذاته أمام البرتغاليّين في مسقط.للتفصيل، يُنظر: فتحيّة البراوي ومحمّد نصر مهنّا، الخليج العربي دراسة في تاريخ العلاقات الدوليّة والإقليميّة، الإسكندريّة،(د.ت): ص١٢٥-١٢٦؛ ومحمّد حسن العيدروس، السّياسة العثمانيّة تجاه الخليج العربي في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، ط١، دار المتنبّي للطباعة والنشر، (د.ت):ص١٠-١١؛ ومركز الدراسات والوثائق في رأس الخيمة، الصِّلات التاريخيّة بين الخليج العربي والدولة العثمانيّة، ط١، رأس الخيمة، ٢٠٠١م: ص٨٣ .

(١) حكم موجّه من الدِّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي الجزائر والمدَيْنَة، في ٢٦ شوّال ٩٥٩هـ الموافق ١٥ تشرين الأوّل ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص٢٩٦.

المناسب بشأن بقائه في الخليج أو عودته إلى مصر، وطالبه بتوفير المستلزمات الضّروريّة له، وتغطية نفقاته[١].

من الواضح أنَّ تفويض أمرِ الأُسطول إلى بكلربكي (الجزائر والمدَيْنَة) بالتشاور معَ القبودان (بيري الريس)، قدْ وسّع من سلطات الوالي (قباذ باشا) لتشمل المناطق المفتوحة في الخليج العربي، وقدْ يعودُ ذلك إلى قناعة الدّيوان الهمايوني بأنّ المنطقة تمرُّ بوضعٍ حسّاسٍ، وأنَّ الوجودَ العثمانيَّ هناك كان يواجه تحدّيات من جهاتٍ مختلفة، تتمثّل بالبرتغاليّين والصّفويّين، فضلاً عن مقاومة آل عليّان في الجزائر؛ لذا فإنّ استحصال موافقة اسطنبول على أيّ تحرّكٍ تقوم به القوّات العثمانيّة لمواجهة هذه التحدّيات يحتاج إلى وقتٍ ليس بالقصير، ولعلَّ تفويض تلك الصّلاحيّات للوالي (قباذ باشا) كان مِن أجل تسهيل مهمّته في السّيطرة على المنطقة.

ونظراً إلى عدم قدرة ولاية (الْمَدَيْنَة والجزائر) على تمويل نفقات الأُسطول بالكامل، فقدْ أصدر الدّيوان الهمايونيّ أوامره إلى والي ديار بكر لإرسال (عشرينَ ألفاً ذهباً) إلى بغداد، ومنها إلى البصرة؛ ولسرعة وصول المبلغ إلى البصرة أمر الدِّيوان والي بغداد بإرسال مايُعادل المبلغ من خزينة ولايته إلى البصرة بطريقةِ القَرض، الأمرُ الذي يدُلُّ على مدى الاهتمام الذي كانت تُوليه الدّولة لهذا الأُسطول[٢]، وأَمر الدّيوان قائد الأسطول (بيري الريس) بإبقاء عددٍ من سفن الأُسطول في البصرة في حال اتّخاذه قراراً بالعودة إلى مصر، مؤكّداً حاجة البصرة إليها، وموضّحاً أنّ حقيقة إرسال الأُسطول إلى المنطقة كان

---

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي (الْمَدَيْنَة) والجزائر، في ١٨ ذي القعدة ٩٥٩هـ، الموافق ٥ تشرين الثاني ١٥٥٢م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص٢٩٧-٢٩٩.

(٢) يُنظر: (دفتر المهمّة ٨٨٨،ص٤٨٩ أ). نقلًا عن: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص٢٩٥.

لهذا الغرض[١]، ولعلّ ذلك يبين رغبة الدولة العثمانيّة في أنْ تجعل من السُّفن المتبقّية في ميناء البصرة نواةً لبناء قوّةٍ بحريّةٍ عثمانيّةٍ في منطقة الخليج العربي.

إنّ استمرار آل عليّان في التصدّي للوجود العثمانيّ ورفضهم التخلّي عن المقاومة، أدّى بطبيعة الحال إلى عرقلة تنفيذ الإجراءات الإداريّة والتنظيميّة الأُخَر لولاية الجزائر، الأمرُ الذي دفعَ العثمانيّينَ إلى ملاحقتهم ومحاولة إضعافهم بمختلفِ الوسائل الممكنة، إلّا إنّ عدم كفاءة قوّاتهم للقتال في بيئة الأهوار التي يتحصّنُ بها ابن عليّان وأتباعه حال دون ذلك، وفي عام (١٥٥٤م)، قام الوالي (مصطفى باشا) -والي الجزائر والبصرة آنذاك- بتكليف (سيدي علي الريس) قائد السُّفن العثمانيّة في البصرة لمساعدته[٢]، وكان (مصطفى باشا) -حينذاك- يواجه خطرين في آنٍ واحدٍ، وهما: قوّة المشعشعينَ في الحويزة، وآل عليّان في الجزائر، فقرّرَ أنْ يهاجم الحويزة بنفسه، ويكلِّف (سيدي علي) بمعاونته في مهاجمة آل عليّان في السُّفن التي تحت قيادته في البصرة[٣]، فتوجّه بخمس (قدرغاتات) [نوعٌ من السُّفن الحربيّة]، وفيها عساكر مصريّة، لكنّ آل عليّان كسروا (سيدي علي) شرَّ كسرةٍ، وكبّدُوه أكثر من مائة قتيلٍ من رُماة البنادق، فاضطرب (سيدي

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى قبودان الهند بيري بك، في ١٨ ذي القعدة ٩٥٩هـ الموافق ٥ تشرين الثاني ١٥٥٢م . يُنظر: فاضل بيات، المصدر السّابق: ص٣٠٣.

(٢) يُنظر: طارق نافع الحمداني، مدن العراق: ص٦٨.

(٣) يُنظر: جعفر الخيّاط، صور من تاريخ العراق: ص٣٦-٣٧؛ ومحمّد حسين الزبيديّ، إمارة المشعشعيّين أقدم إمارةٍ عربيّة في عربستان، دار الحريّة ، بغداد، ١٩٨٣م: ص٧٩.

علي) لهذا الحادث[١]، وباءت حملته بالفشل[٢].

مع اشتداد حدّة الصِّراع بين العثمانيّين وقبائل الجزائر، فَقَدَ آلُ عليّان كلَّ أملٍ لهم في الحصول على المساعدات من بلاد فارس، التي عقدت مع الدّولة العثمانيّة أوّلَ معاهدةِ صلحٍ عام (١٥٥٥م) في (أماسية)، وهكذا اضطرّ ابنُ عليّان إلى التوجّه نحو الجزيرة العربيّة وتقوية اتّصالاته مع الشّيخ (المطهّر بن شرف الدّين) إمام الزيديّين في اليمن، الذي كان هو الآخر رافضاً السَّيطرة العثمانيّة[٣] هناك، وأنْ يحصلَ منه على مساعداتٍ

---

(١) ويذكر سيدي علي في كتابه (مرآة الممالك)عن تلك المعركة، قائلًا: «إني رأيتُ في إحدى اللّيالي في الحلم بأنّي فقدتُ سيفي، وما أنْ بدأتُ أُصلّي إلى الله لنصرةِ الإسلام حتّى صحوتُ من نومي، إذْ تذكّرتُ شيئاً مشابهاً حدث للشّيخ محيي الدّين (قبطان عثماني) وتسبّب في هزيمته، فأصابني هلعٌ شديدٌ، فأبقيتُ هذا الحلم سرّاً، لكنّه بقي يقضُّ مضجعي وقتاً طويلاً، وحينما أرسل مصطفى باشا كتيبته من الجنود لاحتلال الجزائر التي شاركتُ فيها بخمسة قوادس، انتهتْ الحملةُ بخسارتنا مئة جنديّ، كلُّهم من المصريّين، فصدّقتُ تماماً أنّ هذا تحقيقٌ لحلمي». يُنظر: سيدي علي الريس، مرآة الممالك،(تُرجِم ضمن كتاب رحلات بين العراق وبادية الشّام خلال القرن السّادس عشر)، ترجمة وتعليق أنيس عبد الخالق محمود، ط١، بيروت، ٢٠١٣م: ص٣٩-٤٠.

(٢) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص٩٢؛ ومصطفى عبد القادر النجّار، البصرة أوّل قاعدة بحريّة للتوسّع العثماني في الخليج العربي ١٥٤٦-١٨٦٩م، مجلّة دراسات تاريخيّة، العدد الثالث، جامعة دمشق، كانون الأوّل، ١٩٨٠م: ص٩٨.

(٣) وطبقاً لما أورده قطب الدّين محمّد بن أحمد النهروالي المكّي في كتابه (البرقُ اليماني في الفتح العثماني): أنّه بعد أنْ حاول العثمانيّون تقوية وجودهم في اليمن في عهد الوالي (أُوزدمير باشا)، و(فرض الأمن والنظام، ونشر العدل فيها)، توجّس الإمام الزيديّ (المطهّر بن شرف الدّين) خيفةً من سياسة الوالي العثماني، ووقع الخلاف بين الطرفين، الأمر الذي أدّى إلى صِدام مسلّح راح ضحيّته الكثير، بعد لجأ الإمام الزيدي (المطهّر بن شرف الدّين) إلى التحصُّن في قلعة (ثُلا) الحصينة؛ ولعدم وجود القوّات الكافية لدى الوالي أُوزدمير باشا اضطر إلى طلب المساعدة من والي مصر العثمانيّ (مصطفى النشار)، الذي اتّجه إلى اليمن في عام ١٥٥٢م، واتّفق الواليان على القيام بالعمليات العسكريّة ضدّ المطهّر، ودار القتال بين الطرفين، إلّا إنّ مصطفى النشار أراد منح الأمان للمطهّر بن شرف الدّين واستمالتِه، على الرُّغم من عدم قناعة والي اليمن بذلك الإجراء، فأوقف القتال، ولم يكتفِ بمجرّد الصُّلْح، بَلْ

ماليّةٍ وعسكريّةٍ[١]، وكان ابن عليّان يتمتّع بثقةٍ عاليةٍ (لا حدودَ لها) عند إمام الزيديّين، الذي أمَّنَ له أطيبَ العلاقات مع بلدان الخليج العربيّ وبلاد فارس[٢]، وقدْ حاولَ أمراء آل عليّان تقوية تعاونهم مع الإمارة المشعشعيّة للقتال ضدَّ العثمانيّين وإرغامهم على تسليم البصرة، فتمَّ الاتفاق بينهما، وباشرا هجماتهما حتى هدَّدا أسوارها، فبات الوالي العثماني(علي باشا) قلقاً عمّا ينجم عن تلك الحركات، التي أدّت إلى ضعف نفوذه خارج الأسوار، وإنّ «الوالي كان يعيش في الفترات الهادئة بأبّهةٍ مبنيةٍ على إيرادات كمركه الأكيدة والغزيرة، إلا إنّ حكمه لم يتعدَّ خندق المدينةِ إلّا قليلاً»[٣]، ولم تُشر الوثائقُ العثمانيّةُ بوضوحٍ إلى الوضع الإداريّ لولاية(الجزائر والمدَيْنَة) في ظلِّ تصاعد قوّة آل عليّان، ويبدو من خلال ماسبق أنّ مقرّ الولاية نُقِلَ من (الْمَدَيْنَة) إلى قلعة البصرة.

يُمكن أنْ نستدلَّ على ذلك الواقع من خلال الكتابات المعاصرة لتلك المدّة، لاسيّما الانطباعات التي أوردها الرحّالة الأجانب الذين زاروا البصرة خلال النصف الثاني من القرن السّادس عشر الميلاديّ، إذْ كتب الرحّالة (قيصر فردريك Frederick)، الذي زار البصرة عام(١٥٦٣م) واصفاً أحوالهاالسِّياسيّة بـ«إنّها كانت تُحكم من قبل عرب الجزائر، ولكنّها الآن تحكم من قبل الأتراك»[٤]، وهو لا يختلفُ في ذلك عما ذكره

منحَ التكريم باسم السُّلطان للمطهّر «ومنح له لواءً سلطانيّاً، وأوثقه عهداً وأماناً، وألبسه الخلعة السُّلطانيّة...وجعله من المطيعين للسَّلطنة». يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص٢٨٣-٢٨٤.

(١) يُنظر: ألكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها: ص٧١.

(٢) يُنظر: نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربيّة: ص١٧٣.

(٣) محمّد هليل الجابريّ، إمارة المشعشعين: ص١١٤-١١٥.

(٤) فلاح حسن عبد الحسين، مدينة البصرة كما وصفها الرحّالة الأوربيّون في العصر الحديث، موسوعة البصرة الحضاريّة (الموسوعة التاريخيّة)، جامعة البصرة، المركز الثقافي، البصرة، ١٩٨٩م: ص٣١٤.

الرحّالة الإيطاليّ (سيزار فدريجي Cesar Vidriga) خلال زيارته لها عام (١٥٧٢م)، فقدْ ذكر أنّ البصرةَ كانت -فيما سبق- تحت حكم (العرب الجزائريّين)، ولكنّها -الآن- تحت سيطرة (التركي الأعظم)، الذي يحتفظ بقوّةٍ عسكريّةٍ كبيرةٍ هناك، ولا تزال القبيلة التي تسمّى (عرب الجزائر) تستحوذُ على مساحاتٍ واسعةٍ من هذه المنطقة، ولا قِبَل للأتراك في التغلُّب عليها؛ لأنّ مناطقها مقسّمة إلى جزرٍ متعدِّدةٍ بواسطة الكثير من القنوات؛ لذا فالأتراك غير قادرين على توجيه أيِّ جيشٍ ضدّها، سواء برّاً أم بحراً؛ ولأنّ سكّانها شجعان ومجبولون على الحربِ أيضاً[١]، فيما أورد الرحّالة الإيطالي (بالبي Balbi)، الذي زار البصرة عام (١٥٨٠م): «إنّ البصرة تحت حكم الأتراك حاليّاً، لكنّها كانت من قبلُ في قبضة العرب، الذينَ يُقال لهم (الجزريّون)، الذين يمتلكونَ الآن بلداً واسعاً، حيث لا تصلهم يد الأتراك؛ لأنّ منطقتهم تخضع لعامل المدّ والجزر، ومعظم أراضيهم تُحيطها المياه فتُصبحُ عند المدِّ أشبه بالجزيرة، بل قَدْ يغمرها الماء، لهذا السّبب لا يستطيع الجيش النظاميّ التوغّل فيها، لا عن طريق الماء ولا عن طريق اليابسة، وسكّانُ هذه المناطق هم رجالُ قتالٍ لذلك؛ يتوجّب على الأتراك إبقاء حاميةٍ كبيرةٍ لهم في البصرة تُكلّفها نفقات باهضة»[٢]، أمّا الرحّالة الإنكليزيّ (رالف فيج Ralph Vij)، فقدْ أورد عام (١٥٨٢م): «إنّ البصرة تُحكم من قبل الأتراك، ولكنّها كانت تحت حكم العرب الجزائريّينَ»[٣]، وهذا ما أكّده كذلك الرحّالة البريطاني (جون نيبوري John Nepouri)، الذي جاء إلى البصرة عام (١٥٨٣م)، وذكر: «أنّها فيما مضى تحت حكم العرب، لكنّها -الآن- خاضعة للسُّلطان التركيّ، وليس بمقدور الأتراك إخضاع

(١) يُنظر: سيزار فيدريجي، رحلة سيزار فيدريجي بين حلب والبصرة ١٥٦٣-١٥٨١م، (تُرجم ضمن كتاب رحلات بين العراق وبادية الشّام خلال القرن السّادس عشر): ص٧٣.

(٢) رحلة بالبي إلى العراق، ترجمة الأب بطرس حداد، ط١، بغداد، ٢٠٠٥م: ص٩٢.

(٣) نقلًا عن: فلاح حسن عبد الحسين، مدينة البصرة كما وصفها الرحّالة الأوربيّون: ص ٣١٤.

هؤلاء العرب؛ لأنّهم يسيطرونَ على بعض الجُزر الواقعة على نهر الفرات، التي يتعذّر على الأتراك السّيطرة عليها، وإنّهم لايستوطنونَ في منازلَ ثابتة، وإنّما يتنقّلونَ من مكانٍ إلى آخر»[١].

من خلال استعراضنا ما أورده الرحّالةُ الأجانبُ، نجدُ أنّ هناك إشارات واضحة إلى مدى قوّة الثوراتِ العشائريّة المتكرّرة لأهل الجزائر بزعامة (علي بن عليّان)، وتأثيرها على سلطة العثمانيّين، وعلى الرُّغم من الحملات التأديبيّة العثمانيّة ضدَّها، فإنّ السُّلطات المحلّيّة أو المركزيّة في بغداد لم تستطِع القضاءَ على ثوراتها، أو الحدّ منها، وقدْ علَّل ذلك الرحّالة الإنكليزيّ (جون إيلدرد John Ilderd)، الذي زار البصرة عام(١٥٨٣م) بقوله: «إنّ تلك العشائر تتمتّع بمواقع حصينة في الأهوار، وغير مستقرّة في مكانٍ واحدٍ مع عوائلها»[٢]، ما جعل العثمانيّين يضعونَ لآل عليّان شأناً في حساباتهم، وهذا ما أكّدته الوثائقُ العثمانيّةُ التي أوردها (إمنبر Aminbr) في أطروحته للدكتوراه، بأنّ العثمانيّينَ الذين كانوا يرغبونَ في تقوية نفوذهم في جنوب العراق -وبالذات في البصرة- كانوا يتردّدونَ عام (١٥٥٩م) في إرسال سفنهم مِن (بيره جك)[٣] إلى البصرة؛ وذلك خشية تعرّض آل عليّان لها، وما يعزِّزُ هذا الرأي ما ذكره الرحّالة فردريك عام (١٥٦٣م)، إذْ قال: «مِن الصُّعوبة بمكانٍ قهر القبائل العربيّة في الجزائر من قبل الأتراك؛ وذلك لأنّ النهر يقسم مواطن استقرارهم إلى جزر محاطة بالقنوات، ولا يستطيعُ الأتراك جلب أيّ

(١) جون نيوبري، العراق وبادية الشّام في رحلة جون نيوبري ١٥٨٣م، (ترجم ضمن كتاب رحلات بين العراق وبادية الشّام خلال القرن السّادس عشر: ص١٠٩.

(٢) نقلًا عن: فلاح حسن عبد الحسين، مدينة البصرة كما وصفها الرحّالة الأوربيّون: ص٣١٥.

(٣) بيره جك:مدينة بأرض الجزيرة على الضفّة اليُسرى لنهر الفرات، ومعناها (القلعة الصّغيرة)، وكانتْ تابعةً لولاية حلب حسب التقسيم الإداريّ العثماني، وهي ذات أهمّيّة تجاريّة؛ كونها ملتقى القوافل الآتية من شمالي الشّام إلى الجزيرة، ومنها إلى شمال العراق. علي شاكرعلي، تاريخ العراق في العهد العثماني: ص٥٨.

قوّةٍ ضدَّهم لا عن طريق النهر ولا عن طريق البر، وسببٌ آخر، وهو أنّ سكّان هذه الجزائر يتّسمونَ بكونهم رجالاً أقوياء وأشدّاء، ومحاربينَ شُجعان»[١].

إنّ تعاظم قوّةَ القبائل العربيّة في الجزائر وتهديدها الوجود العثماني في البصرة، دَفَعَ البابَ العالي إلى اتّخاذ عدّةِ إجراءاتٍ عسكريّةٍ لتعزيز السُّلطة العثمانيّة في المنطقة، وفي هذا الخصوص تُشير سجلّات الأحكام العثمانيّة (دفتر المهمّة رقم ٣، ص٢٦٣، حكم ٧٦٤)، إلى أنّ الدّيوان الهمايوني وجّه أوامره إلى والي حلب محمّد باشا في (١٢ شباط ١٥٦٠م) لبناء السُّفن في ترسانة السُّفن في (بيره جك) لسدِّ حاجة البصرةِ منها، وطلب منه جمع المعلومات الكافية عن أوضاع المنطقة التي تمرُّ خلالها تلك السُّفن قبل ورودها البصرة، ويبدو أنّ الدّيوان الهمايوني كان يتوجّس خيفةً مِن تعرّضها لهجمات ابن عليّان في حال مرورها عَبر مناطق الجزائر، وفي(٨ آذار ١٥٦٠م) -أي بعد مرور أقلّ من شهرٍ- صدر أمرٌ لاحقٌ مِن الدّيوان الهمايوني إلى الوالي المذكور يؤكّد مضمونَ الأمرِ السّابق بضرورة التأكّد من سلامة الطريق قبل الإقدامِ على إرسال السُّفن إلى البصرة[٢].

يُستدَلُّ من ذلك على مدى حضور ابن عليّان الواضح في ذهنيّة القيادة العثمانيّة العليا في اسطنبول، ومستوى ما كان عليه من القوّة والتأثير ضدَّ الوجود العثماني في المنطقة، لاسيّما تهديده الطريق الاستراتيجيّ الذي يربط البصرة وموانئ الخليج العربي مَعَ الولايات العثمانيّة الأُخَر، وهذا ما تُشير إليه الأحكام اللّاحقة الموجّهة إلى والي حلب في (٢٦ آيار ١٥٦٠م)، التي استدرك فيها الدّيوان أوامره السّابقة، وقرّر إرسال الأخشاب ومستلزمات بناء السُّفن من ترسانة (بيره جك) إلى بغداد عَبر (نهر عيسى)[٣]، ومنها

---

(١) نقلًا عن: طارق نافع الحمداني، مدن العراق: ص٦٩ .

(٢) نقلًا عن: فاضل بيات، البلاد العر بيّة في الوثائق العثمانيّة أواخر عهد السُّلطان سليمان القانوني، ط١، اسطنبول ٢٠١٤م: المجلّد الثالث، ص٢٧٠-٢٧١.

(٣) نهر عيسى: وهو من أكبر أنهار بغداد، يأخذ مياهه من نهر الفرات، وينحدرُ مارّاً بمناطق المحول

إلى ولاية البصرة؛ ليتمَّ بناء تلك السُّفن فيها[١]، ولعلَّ ذلك الإجراء جاء بسببِ قناعة العثمانيّينَ بصعوبة إيصال هذه السُّفن إلى البصرة بعد بنائها في حلب نتيجة المخاطر التي تتعرّض لها عند مرورها عَبر أراضي الجزائر، ويُبيّن ذلك مدى ضعف السّيطرة العثمانيّة في المنطقة، على الرُّغم مِن كلِّ التنظيمات العسكريّة والإداريّة السّابقة التي اتُّخذت في المنطقة بعد فتح قلعة (المْدَيْنَة)، ومن الجدير ذكره بهذا الشأن: أنّ الوثائق العثمانيّة التي بين أيدينا عن تلك المدّة تكاد تخلو من أيّةِ إشارةٍ واضحةٍ عن منطقة (المْدَيْنَة والجزائر) بوصفهما ولاية عثمانيّة كما في السّابق، في حين كانت جُلُّ مخاطبات الدّيوان الهمايوني موجّهة إلى والي البصرة، الأمرُ الذي يؤكِّد إعادة البصرة لوضعها الإداريّ بوصفها ولايةً عثمانيّةً بعد أنْ خُفِّضت إلى لواءٍ تابعٍ لولاية (المْدَيْنَة والجزائر)-كما مرّ بنا- ومِن الواضح أنّ الجزائر قدْ فَقَدَتْ وضعها الإداريّ بوصفها ولايةً عثمانيّةً -حينذاك-.

أخذتْ السَّيطرة العثمانيّة على الجزائر بالضّعف التدريجيّ أمام مقاومة العشائر الرّافضة للوجود العثمانيّ، والمنضوية تحت لواء آل عليّان؛ إذْ شهِدتْ منطقة الجزائر والبصرة اضطرابات عنيفة تمثّلتْ في عزم ابن عليّان على طرد العثمانيّينَ من البصرة بعد هجماته على قلاع الجيش العثمانيّ في (المدَيْنَة والرّحمانيّة والفتحيّة) في الجزائر، فضلاً عن حصاره سورَ مدينة البصرة وقلعتها، وأمام عجز والي البصرة العثماني عن التصدّي لقوّات ابن عليّان، وإقراره بعدم قدرته على التصدّي لحصاره، اضطرّ إلى مفاتحة والي

والياسريّة، حتى يصبَّ في الجانب الغربي لنهر دجلة جنوب بغداد على بعد ١٢كم منها، وكان يُعدُّ طريقاً رئيساً للتجارة النهريّة إلى بغداد. للمزيد، يُنظر: ناجية عبد الله إبراهيم، ريف بغداد دراسة تاريخيّة لتنظيماته الإداريّة وأحواله الاقتصاديّة (٥٧٥-٦٥٦هـ)(١١٧٩-١٢٥٨م)، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ط١، ١٩٨٨م: ص٤٦-٤٧.

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي حلب الوزير محمّد باشا، في غرّة رمضان/ ٩٦٧هـ الموافق ٢٦/ آيار/ ١٥٦٠م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص٢٧١-٢٧٢.

بغداد والاستنجاد به، وبناءً على الأوامر المستعجلة الصّادرة إليهم من الدّيوان الهمايوني، فقدْ أرسل كلٌّ مِن ولاة ديار بكر وشهرزور[وردت في نصِّ الوثيقة شهرزول] ستّة من أُمراء السّناجق من ديار بكر مع جنودهم ومقاتليهم الأكفَاء، وخمسة من أُمراء سناجق شهرزور إلى بغداد، فيما صدرتْ الأحكام السُّلطانيّة إلى والي بغداد في (١٨ شوّال ٩٧٢هـ/ ١٩آيار ١٥٦٥م) قاضيةً بإيصال تلك القوّات -ومن دون تأخير- إلى والي البصرة؛ لتقديم العون له ومساعدته في فكِّ الحصار عن قلعة (المدَيْنَة)، وأكّدَ بأنْ «لا يُفوِّتَ دقيقةً واحدةً» لتنفيذ ذلك الأمر، وأنْ يستطلعَ الأسباب والدّوافع التي حدت بـ (الأعداء) إلى التحرّك نحوَ ولاية البصرة في ذلك الوقت، على أنْ يكتبَ بتفصيلِ ذلك إلى اسطنبول[١]، ولم يكتفِ الدّيوان بإرسال تلك القوّات، بل أصدر أوامرَ لاحقةً إلى والي شهرزور بالتوجّه بنفسه مع العساكر السُّلطانيّة التابعة لولايته، وبالسُّرعة الممكنة إلى ولاية البصرة، فيما أمر آغا (كوكوللية) ديار بكر مع جميع مقاتليه وأمراء السّناجق العشر في الولاية مع جنودهم ومقاتلي العشائر، بالتوجّه إلى ولاية بغداد للخدمة فيها، بعد إرسال غالبيّة قوّاتها لنجدة والي البصرة[٢]، وتمكّنتْ تلك القوّات عند وصولها إلى البصرة من إنقاذ قلعة البصرة وفكّ الحصار الذي فرضه المهاجمونَ بزعامة آل عليّان على (الْمَدَيْنَة)[٣].

---

(١) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد في ١٨ شوّال ٩٧٢هـ الموافق ١٩ آيار ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص٢٥٧.

(٢) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد في ١٣ ذي القعدة ٩٧٢هـ الموافق ١٢ حزيران ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثاني، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٣) حكم موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى أمير سنجق عانة في ١١ محرّم ٩٧٣هـ الموافق ٨ آب ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، المصدر السّابق: ص٢٥٨-٢٥٩.

ثالثاً: حملة إسكندر باشا الجركسي على (الْمَدَيْنَة) عام (١٥٦٧م)

أدركَ العثمانيّونَ بعد حصار البصرة مدى الخطر الذي يشكِّله ابن عليّان حيال وجودهم في المنطقة، ولم يكتفوا بإبعاد خطره عن الولاية، بل أَتبعوا ذلك بإجراءاتٍ أُخَر تمثّلتْ في فرض الحظر الاقتصاديّ على المناطق التي تقعُ تحتَ سيطرته، في محاولةٍ منها لإضعافه وإجباره على الرُّضوخ لسُلطةِ الدّولة؛ إذْ أصدرَ الدّيوان الهمايوني في (١١ محرّم ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م) أمراً سلطانيّاً إلى والي البصرة، يقضي بمنع تزويد منطقة الجزائر بالحديد والرصاص، وآلات الحرب والخيل، والمؤن الغذائيّة، لاسيّما الحبوب، وأنْ يتقيّدَ -وبشدّةٍ- في إغلاق حدود ولايته بالشّكل الذي لايُبقي أيَّ احتمالٍ لتسرّبِ الموادّ إلى تلك المناطق التي سمّاها الدّيوان بـ (دار الحرب)، وأنْ لايفوِّتَ (دقيقةً واحدةً في باب الانتباه والاهتمام)، وأمر بإلقاء القبض على المخالفينَ[1].

إنّ مضمونَ الحكم الهمايوني بإغلاق حدود ولاية البصرة وضبطها، وفرض الحظر على الجزائر ووصف بـ(دار الحرب)، يدلُّ بوضوحٍ على فقدان العثمانيّين سلطتهم نهائيّاً على تلك المنطقة، ووقوعها بالكامل تحت سيطرة آل عليّان، فضلاً عن أنّ الوثائق العثمانيّة لم تُشِر إلى أيِّ وجودٍ عثمانيٍّ في المنطقة -حينذاك-.

في وقتٍ لاحقٍ صدرتْ الأوامر السُّلطانيّة إلى والي بغداد والقاضية -كذلك- بالحيلولة من دونِ تزويد منطقة الجزائر-التي وصفها الدّيوان بـ(بلاد المفسد ابن عليّان)- بأيّ شيءٍ من الأسلحة ومستلزمات بناء السُّفن والموادّ الغذائيّة، فضلاً عن منعِ أهلِها مِن نقل موتاهم ودفنهم في الأراضي التابعة للدّولة العثمانيّة[2]، ولعلّ

---

(١) حكم رقم (٦٧)، موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي البصرة، المؤرّخ في ١١ محرّم ٩٧٣هـ الموافق ٨ آب ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العر بيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص١٩٤-١٩٥.

(٢) حكم رقم (٥٩٧)، موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد، المؤرّخ في

المقصود بهذه الأراضي مقبرة (وادي السّلام) في النجف الأشرف، التي اعتادَ سكّان الجزائر دفن موتاهُم فيها.

ويتّضح من الأحكام السُّلطانيّة الموجّهة إلى والي بغداد سعي الدّولة العثمانيّة إلى إكمال طوق الحصار الاقتصاديّ على الجزائر من جهة الشّمال، وإغلاق جميع المنافذ التي تزوّد العشائر المنتفضة بما تنتفع به؛ من أجل إضعاف قدرتها القتاليّة والاقتصاديّة، بوصفهِ إجراءً مؤقّتاً، ريثما تتمكّن الدّولة من إعادة المنطقة إلى سلطتها.

إنّ تعاظم قوّة آل عليّان وتهديدهم ولاية البصرة أخذ يسبِّب قلقاً واضحاً لدى السُّلطة العثمانيّة في اسطنبول، وبدأتْ تفكِّر بجدِّيّة في القيام بحملةٍ عسكريّةٍ كبيرةٍ وشاملةٍ لإنهاء الانتفاضة العشائريّة في الجزائر، الأمر الذي تطلّب القيام بتقصّي المعلومات الكافية عن المنطقة؛ لذا طلب الدّيوان الهمايوني من والي البصرة في(١٨ محرّم ٩٧٣هـ/ ١٥ آب ١٥٦٥م) إحاطته علماً بشؤون المنطقة، مشدِّداً في الوقت ذاته على ضرورة الحِفاظ على سرّيّة الأمر وعدم إفشائه، وعرض ذلك بتقريرٍ مفصَّلٍ عن أحوال الجزائر وممرّات الجزر، ومدى ملائمة الطرق النهريّة ومناطق الأهوار للسُّفن العثمانيّة، وتحديد الموضع الذي يتيسّر للأُسطول وسفن النقل المحمّلة بالمؤن الغذائيّة الوصول إليه، وبيان رأيه حول التدابير والسُّبُل الواجب اتباعها لإعادة السّيطرة على المنطقة، وذلك بمقتضى معرفته بأحوالها، وتقدير حجم القوّات اللّازمة، ونوع الأسلحة الملائمة للاستخدام في مثل تلك الأرجاء، مع تقدير (الوقت المناسب) للقيام بالحملة[1]، ولعلّ

٣جمادى الأولى ٩٧٣هـ الموافق ٢٦ تشرين الثاني ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص١٩٥-١٩٦.

(١) حكم رقم (١١٩)، موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي البصرة، المؤرّخ في ١٨ محرم ٩٧٣هـ الموافق ١٥ آب ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص٢٦١.

المقصود بالوقت تحديد فصول السّنة الأكثر ملائمةً لتحقيق الانتصار، من حيث ملائمة المناخ للجنود الذين يُجلبُ أغلبهم من الولايات الشّماليّة، إذْ يشكِّلُ الصّيف القائظ عبئاً آخرَ مضافاً إلى الأعباء البيئيّة الأُخَر في المنطقة التي عليهم مواجهتها، فضلاً عمّا تشهده بيئة الأهوار من انحسار المياه في بعض الأوقات من السّنة، ما يؤدّي إلى صعوبة حركة القوّات والسُّفن.

وعليه رفع والي البصرة تقريراً مفصّلاً إلى اسطنبول عن الأوضاع العامّة في منطقة الجزائر وموقف عشائرها من الدولة العثمانيّة، والإجراءات اللّازم اتّخاذها بحقِّهم، وقدْ ذكر التقرير أنّ أكثر العشائر عداءً للوجود العثمانيّ هي عشيرة(المعاويد)[1]، موضِّحاً دورها في مقاومة ذلك الوجود، ومؤكِّداً استحالة أنْ تتمكّن العشائر الباقية من إلحاق أيِّ ضررٍ بولاية البصرة من دون دعم تلك العشيرة، ما يدلُّ على أنّها من العشائر الكبيرة ذات النفوذ الواسع في الجزائر، وشكّك التقرير بنوايا العشائر التي أعلنت طاعتها للدّولة، مؤكِّداً استعدادهم للعصيان متى ماسنحتْ لهم الفُرصة للقيام بذلك، واقترح اتّخاذ التدابير بحقِّهم قبل فوات الأوان وفقدان السّيطرة على ولاية البصرة، فضلاً عن ذلك فَقَدْ عَرَض التقرير وصفاً لطوبغرافيا المنطقة، وأنّها تتكوّن من (٣٠٠) نهر، وأنّ كلَّ القِلاع والقرى الموجودة فيها تغمرها المياه، وحدّد التقريرُ نوعَ القوّاتِ المناسبة للعمل في تلك البيئة وحجمها، وقَدْ ركّز على صنف القوّات البحريّة التي تتناسب وطبيعة المنطقة، إذْ طلب إرسال خمسمائة سفينة مِن (بيره جك)، ومائتي سفينة من بغداد مع مدافعها ومقاتليها، وألفي انكشاريٍّ، وخمسة آلاف مقاتلٍ مع فرسانِ القوّات السُّلطانيّة، وعشرة آلافٍ مِن رُماةِ السِّهام الكُرد، ولتحقيق استقرار الأوضاع الأمنيّة في المنطقة اقترح الوالي

(١) وردت في بعض المصادر باسم عشيرة معاوي، وهم من القبائل العربيّة التي ترجع في أصلها إلى آل بوحميدي القاطنة في الجزائر، وهم من قبائل بني مشرف. يُنظر: عبد النبي الجزائريّ، حاوي الأقوال في معرفة الرجال، تحقيق مؤسّسة الهداية لإحياء التراث، قم، (د.ت): ج١، ص٤٢.

في تقريره بناء قلعتينِ، إحداهما في الموضع المعروف بـ(صدر الدّار)[١]، على أنْ يُرابط فيها مائتا فارس وأربعمائة من رماة السِّهام وحملة البنادق، فيما تُبنى القلعة الأخرى في المكان المطل على (شطّ طويل)؛ وذلك لحظر حركة رجال العشائر باتجاه البصرة، وجعل شطّ العرب سدّاً منيعاً أمام تهديد آل عليّان.

ومِن جملة الحلول التي طرحها والي البصرة إنشاء السُّدود على منافذ الأنهار لتحقيق غرضين: أحدُهما التحكّم بالزّراعة وتطويرها، أمّا الغرضُ الآخر، فيتمثّل بفرض السّيطرة على السكّان وحملهم على الإذعان لسُلطة الدّولة، واستحصال الضّرائب منهم حسب القانون، فضلاً عن أنّه يمكّنُ الحكومة من تهديدهم في حالة العصيان بكسر السُّدود وإغراقهم بالمياه وأخذ أبنائهم رهائن، وبذلك يتمُّ جمعُ موردٍ ماليٍّ كبيرٍ يمكّن خزينةَ الولاية من تغطية نفقات البصرة والجزائر، وإرسال الفائض منه إلى اسطنبول[٢].

بناءً على التقرير المقدّم من والي البصرة، أصدر الدّيوان الهمايوني في (١٤ ربيع الأوّل ٩٧٣هـ)، الموافق (٩ تشرين الأوّل ١٥٦٥م) أوامره إلى والي بغداد (إسكندر باشا)[٣]–

---

(١) ذُكر ذلك الموضع في أصل الوثيقة باسم (صدر وار)، وحُدِّد بأنّه مكان التقاء نهر الفرات مع نهرٍ آخر لم يُذكر اسمه، بل ورد فارغاً في الأصل، ومِن المحتمل أنْ يكونَ نهر دجلة، أي إنّه يقعُ في ملتقى النهرين في القرنة، وقَدْ يكونُ في الجهة الغربيّة مقابل منطقة السُّويب، التي وردت في أغلب المصادر باسم (صدر سويب)، وقَدْ تكونُ (صدر الدّار) قرينةً لها.

(٢) حكم رقم (٣٥٣)، موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد إسكندر باشا، المؤرّخ في ١٤ ربيع الأوّل ٩٧٣هـ/ ٩ تشرين الأوّل ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص٢٨-٢٩.

(٣) إسكندر باشا: والي بغداد سنة ٩٧٤هـ، وهو من الجراكسة من قبيلة قبارتاي، كان من مماليك خسرو باشا والي ديار بكر، تخرّج حتّى زادتْ رتبتُه وصار رئيس البوّابين، ثمّ رئيس الجاوشيّين، ولمّا عُزل من هذا المنصب عُهدتْ إليه دفتريّة (الدّفتر دار، وتعني المحاسب) حلب، وبعدها دفتريّة الأناضول، ثمّ نال إمارة الأناضول، توفّي سنة ٩٧٧هـ . يُنظر:عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص١٠٥.

بعد أنْ أطلعه على مضمون ذلك التقرير- بأنْ يُولي الاهتمامَ الكاملَ لمتابعة أحوال بلاد الجزائر وأوضاعها، وتوضيح كلّ الأمور المهمّة، واقتراح التدابير المناسبة لمواجهة الاعتداءات على ولاية البصرة، وفتح الأماكن التي يستلزمُ فتحُها، وأنْ يعرض ذلك بتقريرٍ إلى الدّيوان الهمايوني[١].

بدأ الاستعداد في ولاية البصرةِ بتوفير مايلزم للقيام بالحملة العسكريّة على الجزائر وذلك بالتعاون مع ولايات بغداد وديار بكر وشهرزور، إذْ فاتح والي البصرة الدّيوان الهمايوني للموافقة على صنع المدافع محلّيّاً في الولاية، معتمداً على الخبراء المهرة لديه، والتمس الدّيوان إرسالَ الموادّ اللّازمة من الولايات الأُخَر للقيام بذلك العمل، ومنها حطب شجر(العرعر)، ويبدو أنّه مِن أنواع الحطب المستخدم لإيقاد أفران صهر المعادن، ولم يكن متوافراً في ولاية البصرة بما يكفي، إذْ طلبَ إرسال مائتي (كلك) منه، وخمسة (أكلاك) من التُّراب، ويبدو أنّه كان من التُّراب الخاصّ، ويستخدم لعمل قوالب صبّ المدافع، ولم يكن متوافراً في البصرة أيضاً، وطلب تزويده بـ (قنطارين) من أسلاك الحديد، وثمانية قناطير من القصدير؛ لذا أرسلَ الدّيوانُ جواباً إلى والي البصرة في (٢٣ جمادى الآخرة ٩٧٣هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٥٦٥م) يُبلّغه بالموافقة على القيام بعمليّة إنتاج المدافع في ولاية البصرة، وتزويده بأعدادٍ من من السُّجناء ممّن أُدينوا بالجرائم من ولايتي بغداد وديار بكر؛ لاستخدامهم في عمليّة تجديف السُّفن، فضلاً عن أعدادٍ من الجنود الانكشاريّة؛ لاستخدامهم في حِفظ قلعة البصرة[٢]، وفي اليوم ذاته أصدر

(١) حكم رقم (٣٥٣)، موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي بغداد إسكندر باشا، المؤرّخ في ١٤ ربيع الأوّل ٩٧٣هـ/ ٩ تشرين الأوّل ١٥٦٥م، فاضل بيات، البلاد العر بيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص٢٩.

(٢) حكم رقم (٨٣٢)، موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي البصرة، المؤرّخ في ٢٣ جمادى الآخرة ٩٧٣هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العربيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص٢٦٧-٢٦٨.

الدّيوان أوامره إلى والي شهرزور لتأمين طلبات والي البصرة من حطب شجر(العرعر) من دون تأخير[١]، وكذلك إلى والي ديار بكر ليتقيّد بتوفير احتياجات والي البصرة من التراب والحديد والقصدير[٢].

وقدْ وصفَ لنا أحدُ الباحثينَ المحدثينَ، وهو (ستربلنك Stripling)، هذا الحصار والطريقة التي كان أفراد القبائل العربيّة يُحاربونَ العثمانيّينَ بها، بقوله: «وكانت القوراب المصنوعة من جذوع النّخيل تنزلُ في الأنهار، وهي محصّنةٌ بجذوع النخيل والقصب، وعلى الرُّغم من أنّ القوّات العثمانيّة المتركّزة في القلاع القريبة من البصرة كانت ترشقها بأسلحتها، إلّا إنّ القذائف لم يكنْ لها إلّا تأثيرٌ قليلٌ على الأعشاب الطريّة، وإنّ القوارب نفسها كانت تُحرقُ من قبل القبائل العربيّة، ثمّ تُوجّه باتجاه القلاع، بينما ينهزم طاقمها سباحةً ما يؤدّي إلى اختناق أفراد الحاميات العثمانيّة جرّاء الدُّخان المتصاعد منها، كما أنّهم كانوا عاجزينَ عن إطفائها؛ لأنّ القوّات البريّة التابعة للقبائل العربيّة كانت مختفية من وابل النيران، وتتصيّد كلَّ مَن يظهرُ للعيان»[٣].

وتشيرُ المصادر إلى أنّ آل عليّان قدْ استفادوا مِن اتّفاقهم مع الإمارة المشعشعيّة، إذْ اتّخذوا مِن أراضيها قاعدةً لهجماتهم على الممتلكات العثمانيّة، في وقتٍ كان يمتدُّ سلطانهم إلى أنحاءِ واسط[٤]، وتلقّى ابنُ عليّان مساعداتٍ ماليّةً وبشريّةً وأسلحةً من إمام

(١) حكم رقم (٨٣٠)، موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي شهرزور، المؤرّخ في ٢٣ جمادى الآخرة ٩٧٣هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، البلاد العر بيّة في الوثائق العثمانيّة: المجلّد الثالث، ص٢٦٩.

(٢) حكم رقم (٨٢٨)، موجّه من الدّيوان الهمايوني في اسطنبول إلى بكلربكي ديار بكر، المؤرّخ في ٢٣ جمادى الآخرة ٩٧٣هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٥٦٥م. يُنظر: فاضل بيات، المصدر السّابق: ص٢٦٩.

(٣) نقلًا عن: طارق نافع الحمداني، مدن العراق: ص ٦٩-٧٠ .

(٤) يُنظر: محمّد هليل الجابريّ، إمارة المشعشعين: ص١٨٢ .

الزيديّين في اليمن (المطهّر بن شرف الدّين)[١]، ما حدا بالسُّلطان العثمانيِّ (سليم الثاني) عام(١٥٦٦م) لإصدار أوامره إلى والي بغداد (إسكندر باشا) لمحاربة ابن عليّان[٢].

وعلى إثر ذلك، وفي عام (١٥٦٧م)، وجّه العثمانيّون حملةً عسكريّةً كبيرةً ضدّ آل عليّان، لم تشهد لها المنطقةُ مثيلاً من قبل، قادها (إسكندر باشا) والي بغداد، ومعه ولاة شهرزور والبصرة، والأمراء الذين اختارهم من الأكراد، إذْ سيّرتْ الدّولةُ في هذه المرّة ألفين من الانكشاريّة، وعدداً كبيراً من المدافع، وفي مَعبر الفرات عند (بيره جك) تداركت الحكومةُ (٤٥٠) سفينةً جعلتها أسطولاً مائيّاً حسب الفرمان الصّادر، كما جهّز جيشاً آخر من العرب والأكراد هناك بلغ ستّة آلاف مقاتلٍ، ليكونوا بهذه الحملة، فوُضِعتْ المعدّات اللّازمة في السُّفن المذكورة، وتحرّك الأسطول عن طريق الفرات متّجهاً في طريقه إلى الحلّة، وهناك أقام الجيش مدّةَ شهرينِ للاستراحة، على أمل أنْ يزولَ موسم الحرّ ويحلّ البردُ، وبعدها تحرّكتْ تلك القوّات من الحلّة إلى لواء الرّماحيّة والسّماوة باتّجاه الجزائر، أمّا (إسكندر باشا) نفسه، فقدْ ترك بغداد على رأس قوّةٍ برِّيّة من أجل الالتحاق بالقوّات العثمانيّة المتوجّهة ضدّ آل عليّان، والتحق الأسطول بجيش (إسكندر باشا) بعد وصوله إلى الجزائر قرب قلعة (زرتوك)، وهناك وافت (١٥٠) سفينة التحقت بالأسطول، أتتْ من بغداد عن طريق دجلة[٣].

وفي تلكَ الأجواءِ المشحونةِ بالتحدّي، بعث إسكندر باشا برسالةِ تهديدٍ إلى الأمير (علي بن عليّان) وأتباعه يهدِّدُهم فيها، ويتوعّدُهم لخروجهم وحملهم السِّلاح بوجه السُّلطات العثمانيّة، جاء فيها:

---

(١) يُنظر: نيقولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربيّة: ص١٧٣.

(٢) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص١٣٢؛ ومحمّد هليل الجابريّ، إمارة المشعشعين: ص١٨٢.

(٣) يُنظر: محمّد هليل الجابريّ، إمارة المشعشعين: ص١٠٦.

«أرى تحتَ التُّرابِ وَميْضَ بَرقٍ ويُوشِكُ أنْ يكونَ له ضِرامُ[١]
فإنّ النّارَ مِن عُودَينِ تُورَى وإنَّ الحربَ أوّلُها كلامُ
وإنْ لمْ يُطفِهَا عقلاءُ قومٍ يكونُ وَقودُها جُثثٌ وَهَامُ[٢]

أمّا بعدُ، يعلمُ الأميرُ علي، وجعفر الدّجلي[٣]، وسائر مشايخ معاوي، أنّا جندُ الله تعالى، خلقَنَا مِن سَخَطِه، وسلَّطنا على مَن حلَّ عليه غضبُه، لا نرحمُ مَن بكى، ولا نرِقُّ لَمَن شَكَا، قدْ نَزَعَ الرّحمةَ مِن قلوبِنا، فالويلُ ثمَّ الويلُ لمن لمْ يكنْ مِن حِزْبِنا، قدْ وَطِئنا البِلادَ، وأيْتَمْنا الأولادَ، فعليكم بالهربِ، وعلينا بالطَّلَبِ، فأيُّ أرضٍ تحويكم؟ وأيُّ بلادٍ تؤويكم؟ هل لكم مِن سيوفنا خلاصٌ، أو مِن سهامِنا مناصٌ؟ خيولُنا سوابقُ، وسيوفُنا بوارقُ، ورماحُنا خوارقُ، وليوثُنا لواحقُ، مَن طلب أمانَنَا سَلِم، ومَن أراد حربَنَا نَدِم، مُلكُنا لا يُرام، وجارنا لا يُضَام، فإنْ أنتُم أطعتُم أمرنا، وقبلتُم شرطَنا فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإنْ خالفتُم وأبيتُم، وفي بغيكم تماديتُم، فلا تلومُوا إلّا أنفسكم، وذلك بما كسبتْ أيديكم، فقدْ أعذر مَن أنذر، ونصَحَ وما قصَّر، فالحصونُ بين أيدينا لا تَمنَع، والعساكرُ لقتالنا لا تَردُّ ولا تَدْفَع، ودعاؤكم علينا لا يُستجابُ ولا يُسمع؛ لأنّكم أكلتُم الحرامَ، وخُنتُم الذِّمام، وأظهرتُم البِدَع، وضيّعتُم الجُمَع، ﴿**فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ**

(١) أوردها ابنُ الأثيرفي كتابه الكامل في التاريخ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م: ج٤، ص٣٦٥: «وأخشى أنْ يكونَ لها ضِرامُ».

(٢) هذه الأبيات لنصر بن سيّار والي خرسان، ضمَّنها في رسالةٍ بعثها إلى الحاكم الأمويّ مروان بن محمّد؛ محذِّراً مِن تعاظم النشاط العبّاسيّ ضدّ الدّولة الأمويّة، وقدْ وردت في الأصل كمايأتي:

أَرى بينَ الرَّمادِ وميضَ جمرٍ فأحجُ بأنْ يكونَ لهُ ضِـــرامُ
فإنَّ النّار بالعوديـــنِ تُذْكَى وإنَّ الحربَ مبدؤها الكــلامُ
فقلتُ مِنَ التعجّبِ: ليتَ شعري أأيقاظٌ أُميّةُ أمْ نيـــامُ؟!

للتفصيل يُنظر: محمّد بن جرير الطبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م: ج٧، ص٣٦٩.

(٣) الظاهر أنّه مِن الزّعامات العشائريّة المعروفة آنذاك.

الْهُوْنِ﴾[١] بما كنتُم تكسبونَ، وبما كنتُم تستكبرونَ، وقدْ ثَبَتَ عندنا أنّكم الفجرة، فسلَّطنا عليكم أمراء مدبِّرة، وحكّام مقدرة، فعزيزُكم عندَنا ذليلٌ، و كثيرُكم لدينا قليلٌ، فلكم الويلُ ثمّ الويلُ لـمَن بأيدينا الطويل، فميِّزوا بعقولكم طُرُقَ الصَّوابِ، وأسرعوا إلينا بردِّ الجواب، قبل أنْ تُضْرِمَ الحربُ نارَها، ويشتعِلَ بكم شرارُها، وتُدهَونَ منّا بأعظمِ داهيةٍ ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾[٢]، لا تُبقي لكم جاهاً ولا عزّاً، ويُنادي عليكم منادي الفنا ﴿**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾[٣]، فقدْ أنصفنا فيما أرسلنا إليكم، فرُدّوا الجوابَ قبل حلولِ العَذاب، وأنتُم لا تَشعرونَ، فكونُوا على أمركم بالمِرصَاد، وعلى سعيكم بالاقتصادِ، فإذا وَصَلَكُم كتابُنا هذا فاقرؤا أوّلَ النَحْلِ[٤]، وآخرَ صاد[٥]، وقَدْ نثرنا جواهرَ الكلامِ، وأتممنا بالسَّلام على أهل السَّلام»[٦].

على ضوء ذلك، ردّ الأمير (علي بن عليّان) برسالةٍ شديدةٍ كتبها قاضي الإمارة الشّيخ (محمّد بن الحارث المنصوريّ)[٧]، تُظهر الثّقة العالية بالنفس[٨]، والاعتزاز

---

(١) من قوله تعالى في سورة الأحقاف، الآية: ٢٠، ﴿**فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾.

(٢) سورة القارعة، الآية: ١٠-١١.

(٣) سورة مريم، الآية: ٩٨.

(٤) سورة النحل، الآية : ١، قوله تعالى: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾.

(٥) سورة ص، الآية : ٨٨، قوله تعالى: ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾.

(٦) السيّد علي خان الموسويّ، الرحلة المكّيّة: ص٥٩-٦٠.

(٧) محمّد بن الحارث: لقّب بالجزائريّ نسبةً إلى الجزائر، وينتسبُ إلى ربيعة، والحارث هو الأخ الأصغر لجبر بن الأمير صالح، ومن ذرِّيته أُسرة (آل فرج الله)، التي تسكن حالياً في قضاء (الْمَدَيْنَة)، ووصفه السيّد حسين بن السيّد حيدر الحسينيّ الكرَكيّ في إجازته بالفقيه المتكلّم، قال: إنّه يروي عنه السيّدُ حسين بن السيّد حسن الحسينيّ الموسويّ الكرَكيّ، وقال عنه الحرُّ العامليّ: كان فاضلاً عالماً شاعراً صدوقاً محقّقاً من تلامذة الشّيخ علي بن عبد العالي العامليّ الكرَكيّ. يُنظر: عبد النبيّ الجزائريّ، حاوي الأقوال: ج١، ص١٣-١٤.

(٨) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرةُ في مطلع العهد العثماني: ص١٥٠.

بالرّوح العربيّة الأصيلة، جاء فيها:

بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيْمِ

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكَ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، أمّا بعدُ: عن كتابٍ وَرَدَ مخبراً عن الحضرةِ الخاقانيّةِ، والسّدّة السُّلطانيّة، حضرة (إسكندر باشا) بصّره اللهُ تعالى وأرشدَه، فهو صدرُه صحيحٌ عندنا، وذو عقلٍ رجيحٍ، ولسانٍ فصيح، إعلم -هداكَ اللهُ إلى طريق الرّشاد- أمّا قولك: «**فإنّنا مخلوقونَ مِن سخطه، ومسلّطونَ على مَنْ حلَّ عليه غضبُه، لا نرقُّ لمن بكى ولا نرحم لمن شكا**»، قَدْ نَزَع اللهُ الرّحمةَ مِن قلوبكم، فذلك مِن أكبر عيوبِكم؛ لأنّ هذا مِن صفاتِ الشّياطينِ، لا مِن صفاتِ السّلاطينِ، وكفى هذا شاهداً وموعظةً ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾[2] إلى آخره، وقلتُم: إنّنا أظهرنا البِدَع، وضيَّعنا الجُمَع، ونكّسنا الأديانَ، وأظهرنا الفُسوقَ والعِصيان، فإنْ كان الشِّركُ بِفِرْعونَ معكزاً، فأنتُم صرفتُم [صرتُم] للشرّ مركزاً، إلا إنّكم أشرُّ مِن قوم لوطٍ وصالحٍ، وما علمكم بنافعٍ ولا صالحٍ، فنحنُ الموفونَ حقّاً، المعترفونَ بالولايةِ صِدْقاً، لا يدخُلنا عيبٌ، ولا يخالطُنا ريبٌ، القرآنُ علينا نزَلْ، والرّبُّ بنا رحيمٌ لمْ يزلْ، تحقّقنا تنزيلَه، وعرفْنا تأويلَه، فنحنُ العارفونَ بالأصولِ والفروعِ، والعاملونَ بما أُمِرنا مِنَ المشروعِ، إنّما النّار لكم خُلِقَتْ، ولجلودِكُم أُضْرِمَتْ؛ لأنّكم منكرونَ أهلَ الولايةِ، ومقدّمونَ عليهم الذينَ هم ليسُوا مِن أهلِ الهدايةِ، فالعجبُ العجبُ تهدِّدونَ اللّيوثَ بالتِّيوس، والسِّباعَ بالضِّباع، والكُماةَ[3] بالقِراع، خيولُنا سوابقُ برقيّةٌ، وترسُنا مصريّةٌ، وأسيافُنا يمانيّةٌ،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٢)سورة الكافرون، الآية: ١.

(٣) جمع كمي، وهو الشُّجاع، أو لابس السِّلاح. يُنظر: القاموس المحيط: ج٤، ص٥٥٦.

ورماحُنا خطّيّةٌ، وأكتافُنا شديدةُ المضاربِ، وسلطانُنا شاعَ ذكرُه في المشارقِ والمغاربِ، فرسانُنا ليوثٌ إذا ركبتْ، وعقبانٌ إذا طلبتْ، ودروعُنا جلودُنا، وجواشنُنا صدورُنا، قلوبُنا قويّة لا تفزعُ، وجمعنا لا يروَّعُ، وقولكم: «عندنا تهديدٌ»، فنحنُ أهلُ الوعدِ، وأنتُم أهلُ الوعيد، بقوّة الله العزيزِ الحميدِ، لا يهولنا منكم تخويفٌ، ولا يرجفنا منكم ترجيفٌ، فإنْ أطعناكم فذلك طاعةٌ، وإنْ قتلناكم فنِعم البضاعةُ، وإنْ قتلتمونا، فبيننا وبينَ الجنّةِ ساعة، وأمّا قولكم: «قلوبُنا كالجبالِ، وعددُنا كالرّمالِ»، فاعلموا أنّ القصّاب لا يهوله كثرةُ الغنم، وكثيرُ الحطب يكفيه قليلُ الضَّرَم، أيكونُ من الموت فرارٌ وعلى الذُّل قرارٌ؟ ألا ساءَ ما تحكمون، الفِرار من الدّيار كالفِرار من المنايا، تمحون مَن أملته الدّنيا غاية المنايا، فنحن إنْ عشنا سعداء، وإنْ متنا شهداء، ألا إنّ حزبَ الله هم الغالبونَ، تريدونَ منّا الطاعةَ، لا سمعَ لكم ولا طاعة، وتزعمونَ أنْ نسلِّمَ إليكم الأمرَ من قبل أنْ يُكشف الغطاءُ، ويحلَّ عليكم منّا الخطاءُ، فهذا الكلام في نظمه تركيكٌ، وفي سلكه تشكيكٌ، فقولوا لكاتبِكم الذي وصف مقالتَه وصنّف رسالتَه، ما قصر لوجيز اللّغة، والله ما كان كتابُكم هذا إلا كصريرِ بابٍ، أو كطنينِ ذبابٍ؛ لأنّكم استخففتُم النّعمة، واستوجبتُم النقمة، سنكتبُ ما قالوا ونمُدّهم من العذابِ مدّاً[1]، وإنّما أردتَ بهذهِ التهاديد الكاذبة لإظهاربلاغتِك، واستظهار فصاحتِك، ألا أنتَ كما قالَ القائلُ: «حفظتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ»[2]، ﴿**وَسَيعْلَمُ الذينَ ظلمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقلِبُونَ**﴾[3]، ولكم منّا الخطابُ، وسيأتينا منكم ردُّ الجوابِ، ﴿**أتى أمرُ اللهِ فلا تَستعجلوه**﴾[4]، وقدْ نظمنا جواهرَ الجوابِ

(١) هذه العبارة مأخوذةٌ من قولِه تعالى في سورة مريم، الآية :٧١ ﴿**سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً**﴾.

(٢) عجزُ بيتٍ للشّاعر المعروف أبي نواس، وشطرُه: «**قُلْ لمنْ يدّعي في العِلم فلسفةً**». ديوان أبي نواس، شرح وضبط وتقديم: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٨٧م: ص١٢.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٤) من سورة النحل، الآية: ١.

بما أتى، والسّلام على مَنِ اتّبَعَ الهُدى»[١].

وفي الوقتِ نفسِه أرسل السُّلطان العثمانيّ سليم الثاني(١٥٦٦-١٥٧٤م) رسالةً مطوّلةً باللّغة العربيّة إلى (علي بن عليّان)، يرغّبه ويهدّده، ومن ضمن ما جاء فيها: «... فأمّا الذينَ هم بغَوا، وعصَوا لأمرنا وطغَوا، وخالفُوا وتكبّروا، وأبوا واستكبروا، ولمقتضى الشّريعة ألغَوا، وتوهّموا أنّ سدّتنا السَّنيّة بعيدةٌ مسافةً، وكثيرةٌ مساحةً، وعملوا بما خطر ببالهم من عدم إطاعتهم وامتثالهم لأمرنا، فلننسيَنّهم بما كانوا يعملونَ ...»[٢].

وحالما وصلتْ القوّات العثمانيّة إلى الجزائر عام (١٥٦٧م) أعلنتْ هجومها على العشائر العربيّة الموجودة في صدر البحرين (جزيرة صغيرة لم يعرف مكانها بالتحديد)، وهناك دارتْ معارك عنيفة بين الجانبين، خسر فيها الطرفان كثيراً من الأموال والأنفس والممتلكات، اضطرّ آل عليّان على أثرها إلى أنْ يعقدوا هدنةً مؤقّتةً مع العثمانيّين لكسب الوقت؛ إذْ بعث الأمير علي من قبله ابن أخيه وقاضي إمارته (محمّد بن الحارث)، وفي الدّيوان (الجلسة) المنعقد من جانب (إسكندر باشا) طلبوا ذلك (الصُّلْح)، فخلع عليهم الباشا خلعاً ثمينةً، وفي الجلسة التالية اشترط الباشا على المفاوضين: إنْ كان (علي بن عليّان) صادقاً في طلب الصُّلح وجب عليه أنْ يؤدّيَ في كلِّ سنةٍ لخزانة البصرة خمسة عشر ألف دينارٍ ذهباً، وأنْ يتركَ جملةً من أولاد الشيوخ رهائنَ في البصرة، عندَها أبدى المفاوضون قبولهم تلك الشروط وذهبوا، وبذلك تمّ تسخير الجزائر جملةً، ونهض

---

(١) نعمة الله الجزائريّ، زُهر الرّبيع، النجف، ١٩٥٤م: ص١٢٦-١٢٩؛ ويُنظر: السيّد علي خان الموسويّ، الرِّحلة المكّيّة: ص٦٠-٦١، وعبد النبيّ الجزائريّ، حاوي الأقوال: ج٢، ص٤٤-٤٦، وطارق نافع الحمدانيّ، مدن العراق: ص٧٠-٧١، ويوجدُ اختلافٌ في العبارات بين هذه المصادر.

(٢) فريدون بيك، مجموعة منشآت، ج٢، ص ٥٦٦-٥٦٨، نقلًا عن: حسين محمّد القهواتي، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الأول والثاني(١٥٣٤-١٦٣٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥م: ص٢٩٤، هامش (٣).

الجيش والأسطول من هناك، ووصل إلى المحلّ المسمّى (صاعبة)[١]، فجاء حينئذٍ أخو الأمير (علي بن عليّان) الأمير (سلطان) بخمسينَ سفينةً، فأظهر الطّاعة والانقياد، وفي هذا المحلّ وصل أُسطول البصرة المتكوّن من تسعة (أغربةٍ) مع (علي باشا)، فالتقَوا هناك، ونزلوا قلعة الفتحيّة[٢]، ومن ثمّ جاء الوزير (إسكندر باشا) من البر، وكذلك وصل شيوخ الجزائر ورؤساؤهم إلى الباشا، وأعطوا الرّهائن وأطاعوا، ولكنّ عرب نهر الطويل مقابل قلعة الرّحمانيّة[٣] بقوا على عنادهم وتصلّبهم، ولم يُلبُّوا الدّعوة، وإنّ رئيسهم (فضل) لم يأتِ إلى الوزير ليُبدي طاعته، ومن ثَمّ سارتْ الجيوش إليهم، وطالتْ الحرب معهم نحو خمسة أيّام، انتهتْ بهزيمتهم، وقتل عددٍ كبيرٍ منهم، وتشتّتَ

---

(١) تسمّى حاليّاً باسم (الصّعيبة)، وتقع قرب نهر صالح (مقرّ آل عليّان) إلى الغرب من مركز قضاء (الْمَدَيْنَة)، وهي إحدى المقاطعات التابعة له، ومسجّلة لدى وزارة الموارد المائيّة الهيأة العامّة للمساحة (بغداد) لعام ٢٠٠٧م بالرقم (٥٤) . يُنظر: محمّد اطخيّخ، قضاء (الْمَدَيْنَة) دراسة في الجغرافية الإقليميّة: ص٤٤-٤٥.

(٢) وهي إحدى المقاطعات التابعة إلى قضاء (الْمَدَيْنَة)، مسجّلة لدى وزارة الموارد المائيّة الهيأة العامّة للمساحة (بغداد) لعام٢٠٠٧م، (مقاطعه رقم/ ٢٩)، يُنظر:محمّد اطخيّخ ماهود، قضاء (الْمَدَيْنَة) دراسة في الجغرافية الإقليميّة: ص٤٥، وتقع الفتحيّة على الجهة المقابلة لمركز قضاء (الْمَدَيْنَة) على الضفّة الشماليّة لنهر الفرات، وقدْ وصفها الرحّالة الفرنسيّ الأب بارثيلمي كاريه عند مروره في نهر الفرات ونزوله فيها في ٣٠/ نيسان/ ١٦٧٤م، إذْ قال: «وعند منتصف النهار نزلنا عند فتحيّة، وهي بلدة عربيّة صغيرة لا بأس بها، تقع على ضفاف النهر[الفرات] الذي يسقي هذه المنطقة من خلال عددٍ من التيّارات الصّغيرة، التي تفصل بساتين الفواكه والحدائق، وهذه البساتين والحدائق مظلّلة بأنواعٍ كثيرةٍ من الأشجار المثمرة التي يقصدُها سكّان هذه البقعة الجميلة العرب». يُنظر: بارثيلمي كاريه، رحلات الأب بارثيلمي كاريه في العراق والخليج العربي وبادية الشام(١٦٦٩-١٦٧٤م): ص٢٦٢.

(٣) الرّحمانيّة: وهي إحدى القرى التابعة إلى قضاء (الْمَدَيْنَة)، مسجّلة لدى وزارة الموارد المائيّة الهيأة العامّة للمساحة (بغداد) لعام٢٠٠٧م، (مقاطعه رقم/ ٤)، تبعد حوالي ٥كم إلى الشرق مركز القضاء، وتقع على الضفّة الجنوبيّة لنهر الفرات عند الحافة الشرقيّة لنهر عنتر. يُنظر: محمّد اطخيّخ ماهود، قضاء (الْمَدَيْنَة) دراسة في الجغرافية الإقليميّة: ص٤٥.

الآخرون، وانتهب الجيش بيوتهم وأموالهم، وأحرق قراهم، وقطع أشجار النخيل التي كانت مصدر عيشهم؛ بهدف إضعاف قوّتهم الاقتصاديّة، ومن ثَمّ عاد الأسطول إلى بغداد في أوائل رمضان من عام (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م)[١].

تبعاً لذلك فرض العثمانيّون سلطتهم على الجزائر، ونظّموا مركزاً للحكومة هناك[٢]، وقاموا بتعمير قلعة (الْمَدَيْنَة)[٣]، وبناء عدّة قلاع أُخَر، منها قلعة (الإسكندرية)[٤]، ولعلّها سُمّيتْ بهذا الاسم؛ نسبةً إلى قائد الحملة العثمانيّة (إسكندر باشا الجركسي)، فضلاً عن ذلك، فقدْ دخلتْ المنطقة ضمن التقسيمات الإداريّة لولاية البصرة عام (١٥٧٢م)؛ إذْ قسّمت هذه الولاية إلى ثمانية عشر لواءً، وقفز هذا العدد إلى سبعةٍ وعشرين لواءً وستّ نواحٍ بين عامي (١٥٧٤-١٥٧٥م)[٥]، ومن الألوية التي ورد ذكرها في الوثائق الموجودة في دائرة أرشيف الدّولة في اسطنبول (State Archives of Istanbul) فهي: الغرّاف (Garraf)، والحمّار (Hammar)، و(الْمَدَيْنَة) (Madina)، وفتحيّة (Fethiyya)، وزكيّة (Zakiyya)، والقرنة(Qurna)، وصدر اسويب (Sadr Sevib)، والرّحمانيّة (Rahmaniyya)، وطرّة الجزاير (Turra-i Jezayir)، وقين قناد (Keyn Kinad)، ومعدان (Madan)، وواقي (Vaki)، وقناهية

(١) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص١٣٢-١٣٤؛ وطارق نافع الحمداني، انتفاضات القوى العربيّة المحلّية في البصرة والجزائر ضدّ التوسّع العثماني خلال القرن السّادس عشر، مجلّة آفاق عربيّة، السنة التاسعة، العدد (٨)، بغداد ١٩٨٤م: ص٧٠؛ وعمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربيّ (١٥١٦-١٩٢٢م): ص١٨٦-١٨٧.

(٢) يُنظر: محمّد بن خليفة بن حمد بن موسى النبهاني الطائي، التحفة النبهانيّة في تاريخ الجزيرة العربية، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م: ص٣٠٩.

(٣) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص١٣٤.

(٤) يُنظر: حمود حمادي السّاعدي، بحوث عن العراق وعشائره: ص٢٢٠.

(٥) يُنظر: حسين علي مصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص٤٥.

(Kinahiyya)، وطاش كوبرو (Taskopru)، واقجه قلعة (Akea Kale)، وعرجة (Arja)، ومهري (Muharri)، وشرير (Sharir)، وجارور(Jarur)[١]، فضلاً عما ذكرته السجلّات العثمانيّة من ألويةٍ أُخَر، منها:«نهر عنتر، قبان، بربر، بوحميد»[٢]، وما تزال أغلب تلك المواضع تسمّى بأسمائها حتّى هذا التاريخ[٣].

لقدعادتْ (الْمَدَيْنَة) عاصمة الجزائر الرئيسة وحاضرتها[٤] قبل أنْ تفقدَ أهميّتها بتولي آل أفراسياب حكم البصرة، الذين جعلوا من القُرنة حاضرة للجزائر، -وسيردُ تفصيلُ ذلك لاحقاً-[٥].

يُلاحظ من التقسيمات الإداريّة المذكورة آنفاً، زيادة عدد الألوية في منطقة الجزائر وما جاورها، بينما لم يرِدْ أيُّ شيءٍ بصدد التقسيم الإداريّ لجنوب البصرة، عدا ذكر لواء أبي الخصيب، وفضلاً عن ذلك يُذْكر -أيضاً- أنّ ريع هذه الألوية وواردتها لا يُسلَّم إلى مسؤوليها، بل إلى مسؤولي الألوية المجاورة الأُخَر، فعلى سبيل المثال، أُعطي

---

(١) يُنظر: صالح أُوزبران، الأتراك العثمانيّون والبرتغاليّون في الخليج العربي: ص٣٤.

(٢) يُنظر: حسين علي مصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص٤٥.

(٣) وبهذا الشأن يُعلّق الأستاذ الدّكتور عبد الجبّار ناجي على تلك الأسماء المشار إليها في أعلاه بأنّ القراءة الصّحيحة لـ Vaki (واكي)، وهي قرية جنوب (الْمَدَيْنَة) حاليّاً، و(كناحية) بدلاً من (قناهية) شمال غربي ناحية الهوير، وربّما يقصد بمنطقة (أقجة) قلعة قرية (الجلع) الحاليّة غرب (الْمَدَيْنَة)، وإنّ هناك قرية تسمّى (خيط المعدان)، وأخرى (الجري)، (وقدْ تكون هي جارور)، وربّما يقصد بـ(شرّير) منطقة الشّرِش الحاليّة. صالح أُوزبران، الأتراك العثمانيّون والبرتغاليّون في الخليج العربي: ص٣٦، هامش ٥٣.

(٤) علي الشرقي، الجزائر، مجلّة العرب، ١٩٢٧م: ج٩، ص٥٢٧؛ وعبد الرزّاق الحسنيّ، العراق قديمًا وحديثاً، ط٢، دار اليقظة العربيّة، بغداد، ١٩٨٢م: ص١٨٥.

(٥) يُنظر: علي الشرّقي، أشهر مدن البطائح الحاليّة، مجلّة لغة العرب، السّنة الخامسة، ١٩٢٧م: ج٩، ص٥٣٥؛ وعلي الشّرقي، النوادي العراقيّة، القسم الثاني، جمع وتحقيق موسى الكرباسي، بغداد، ١٩٨٩: ص٢٩، هامش (٧).

ريع لواء (الغرّاف) إلى (حيدر بگ)، بك لواء (الْمَدَيْنَة)، وريع لواء (الْمَدَيْنَة) أُعطي إلى (سعيد بگ) بگ لواء الغراف، وريع لواء (الرّحمانيّة) أُعطي إلى (محمّد بگ) بگ حفا في الأحساء، ولواء (حفا) أُعطي ريعه إلى (برويز بگ)، بگ الرّحمانيّة[١]، ويبدو أنّ ذلك يرجع إلى محاولة السّلطات العثمانيّة ضبط واردات تلك المناطق، وعدم إعطاء الفرصة لمسؤولي الألوية للقيام بعمليّة الاختلاس[٢]، وإلى جانب ذلك أبقتْ الدّولة العثمانيّة منطقة الجزائر بيد شيوخها الذين قامُوا بجباية الضّرائب في مناطقهم (ديرتهم)، أو تمّ تعيينُ أشخاصٍ بمعرفةٍ من أولئك الشّيوخ أو اتّفاقٍ معهم، ومن الأسماء التي ذُكِرتْ في هذا المجال مثلاً: (شيخ ناصر ولد خليط، ونصر الله ولد حسين، وحسب الله بن مسعود، وشيخ ناصر آل مصدق)، وعلى الرُّغم من ذلك لم تُشِر سجلّات الدولة العثمانيّة في تلك المدّة إلى أسماء شيوخ القبائل وعشائرهم، ولم يروا فيها اسم عشيرة، بل جاء بدل ذلك تسمية (جماعة) أو (طائفة)، ويقصد بها على الأرجح مفهوم (العشيرة)، ولا بدّ من أنّ القصدَ من ذلك هو التقليلُ من أهمّيّة تلك التكوينات الاجتماعيّة، أو التفريقُ والتشتيتُ، على وفق السّياسة العثمانيّة المتّبعة آنذاك ضدّ العشائر، فوردتْ على سبيل المثال: جماعة بني مالك، وجماعة مير منصور (بني منصور)، وجماعة العطب، وجماعة السّواعد، وجماعة آل غزّة، وجماعة آل نصّار أتباع كعب، وجماعة آل عليّان، وطائفة البونجم، وطائفة آل حسين وعمامه، وأسماء أُخَر، مثل (السّيابجة)، ولعلّها من بقايا العهد الإسلاميّ[٣].

على الرُّغم من الإجراءات العسكريّة والإداريّة السّالفة التي اتّخذها العثمانيّون

(١) يُنظر: صالح أُوزبران، الأتراك العثمانيّون والبرتغاليّون في الخليج العربي: ص٨١.
(٢) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرةُ في مطلع العهد العثماني: ص٤٦.
(٣) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرةُ في مطلع العهد العثماني: ص١٤٩-١٥٠.

لإخضاع المنطقة، إلا إنّ أمراءَها لم يستمرّوا طويلاً في الخضوع للإرادة العثمانيّة[١]، ويظهرُ أنّ الأمير (علي بن عليّان)[٢] لم يلتزم بشروط الصُّلح المبرمة مع العثمانيّين عام (١٥٦٧م)، وبعد مرور سبع سنين (أي بحدود عام ١٥٧٤م)، وبعد أنْ (قصرتْ همّةُ الباشا عنه)، حاول الإفلات من ذلك الاتفاق، الأمرُ الذي أثار حفيظةَ الباشا ودفعه للتضييق على السكّان، فأمر بسدّ (الشّطوط)[٣]، وأنزل قوّاته على السَّدِّ الذي أقامه، وأمر أنْ تُرمَى الجُثَثُ بماءِ الوشيل الذي يصلُهُم، حتّى أشرف النّاس على الهلاك، فحمل الجميع السّلاح، وتقدّموا على القوّة العثمانيّة الموكّلة بحماية السّدود، ودفعوهم عنها، وكسروها، بعد مقتلةٍ عظيمةٍ من الجانبين، الأمر الذي اضطرّ الجنود العثمانيّينَ إلى الانسحاب من المعركة[٤].

وظلّتْ الدّولة العثمانيّة تعاني كثيراً من جرّاء استمرار ثورة آل عليّان في منطقة الجزائر، طول عهد السُّلطان سليم الثاني، وحتّى أواخر عهد السُّلطان مراد الثالث(١٥٧٤-

---

(١) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص١٣٤؛ وطارق نافع الحمداني، انتفاضات القوى العربيّة المحلّيّة في البصرة والجزائر ضدّ التوسّع العثماني خلال القرن السّادس عشر: ص٧٠؛ ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها: ص٥٧.

(٢) عاش الأمير علي هذا طويلًا، وتوفي عام ٩٨٨هـ/ ١٥٧٩م. يُنظر:حمود حمادي السّاعدي، بحوث عن العراق وعشائره: ص٢٢١.

(٣) لا بأس بالتذكير هنا بالمقاربة الكبيرة بين سياسة الاحتلال العثماني تلك، وسياسة السّلطات الحاكمة في عهد نظام البعث، التي لجأت عام ١٩٩٢م إلى الأُسلوب ذاته في تجفيف الأهوار بعد قطع مجرى نهر الفرات وتحويله عن هور الحمّار، من خلال إقامة السَّدّة الترابيّة المسمّاة (٧١٢) إلى الغرب من مركز قضاء (الْمُدَيْنَة) بحدود (٣كم)، وعلى الرُّغم من وضع الحمايات العسكريّة عليها، إلا إنّ المقاومين من أبناء الأهوار قاموا في ليلة العاشر من شباط ١٩٩٣م بالهجوم على السّدّ، في محاولةٍ لإعادة الحياة إلى منطقة الأهوار، إذْ تمكّنوا من السَّيطرةِ عليه بعد معركةٍ عنيفةٍ مع القوّات النظاميّة، استُشهد خلالها سبعة من المهاجمين.(**الباحث بحكم معاصرته للأحداث**).

(٤) يُنظر: السيّد علي خان الموسويّ، الرِّحلة المكّيّة: ص٦٢.

١٥٩٥م)، إذْ ترد إشارةٌ في رسالةٍ بعثتْها السُّلطانة صفيّة إلى الملكة إليزابيث الأولى، ملكة إنكلترا، في عام (١٥٩٣م)، إلى أنّ زوجها قد ملك(الجوازر) من جملةِ ما ملك من بلادِ الدّنيا؛ إذْ ذكرت أنّ زوجها مراد الثالث: «... هو ملكُ الأقاليم السّبعة، والأركان الأربعة من المعمورة، وهو إمبراطور الرّوم والعجم، وهنغاريا، وأرض التاتار، وقرمانيا، والحبشة، والجوازر، والشّيروان، وبلاد المغرب ... وحاملُ تاجِ الهند والسِّند، وبغداد، وبلاد الإفرنج، وبلغراد »[٥]، ومِن هذه الوثيقة المهمّة تتّضح أهميّة ثورة آل عليّان في الجزائر، حتّى إنّ السّيطرة عليها صارت مجالاً للمباهاة أمام ملكة إنكلترا، التي تجهلُ -بالتأكيد- أينَ كان موقعُ الجزائر، في الوقت الذي تناستْ السُّلطانة صفيّة ذكر بلادٍ مهمّةٍ خاضعةٍ للدّولة العثمانيّة، مثل: القاهرة، ودمشق[٦].

ويرى الدّكتور حسين القهواتيّ أنّ الدّولةَ العثمانيّةَ حتّى هذا التاريخ وبعده، لم تستطِع كبحَ جماح الثورةِ في منطقة الجزائر، على الرُّغم من مُدّعى السُّلطانة، أو الدّولة العثمانيّة، وكلُّ ما ذُكر هو ردُّ فعلٍ لعجزها عن الانتصار على العشائر الثائرة[٧].

وتزوّنا المصادر التاريخيّة بأنّ ابنَ عليّان قد استمرّ بالهجوم على الحاميات العسكريّة العثمانيّة في (الْمَدَيْنَة) حتى تمكّن عام (١٥٩٦م) من السّيطرة على قلعة الرّحمانيّة، وأخذ يهدِّدُ والي البصرة (علي باشا) في عقر داره[٨]، ويتّضح ممّا تقدّم أنّ السُّلطات العثمانيّة -وعلى الرُّغم مِن كلِّ التدابير الصّارمة- لم تستطِع القضاء على حركة المقاومة العشائريّة في الجزائر، وقدْ ظلّتْ تلك العشائر مصدرَ تحدٍّ دائمٍ للدّولة العثمانيّة.

---

(٥) حسين محمّد القهواتي، العراق بين الاحتلالين العثمانيّين الأوّل والثاني: ص٢٩٥، هامش (٢).

(٦) يُنظر: المصدر السّابق، المورد نفسه.

(٧) يُنظر: المصدر السّابق: ص٢٩٦.

(٨) يُنظر: علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني: ص١٢٧.

الفصلُ الثّاني
أحوالُ (المْدَيْنَة) منذُ قيامِ حكومةِ أفراسياب (١٥٩٦م) حتّى عام (١٧١٨م)

أحوالُ (المْدَيْنَة) منذُ قيامِ حكومةِ أفراسياب (١٥٩٦م) حتّى عام (١٧١٨م)

حكومةُ أفراسياب في البصرة وعلاقتُها بأُمراء الجزائر

أ- سيطرةُ أفراسياب على الجزائر

إنّ تاريخ العقود الثلاثة الأخيرة من القرن السّادس عشر يشهدُ ببقاء منطقة الجزائر بعيداً عن السّيطرةِ العثمانيّة[١]، ففي العقد الأخير من ذلك القرن كانت الأوضاع السياسيّة والإداريّة والاقتصاديّة في ولاية البصرة قدْ ساءتْ إلى درجةٍ كبيرةٍ، واقتصر نفوذ واليها العثمانيّ علي باشا (١٥٦١-١٥٩٦م) على القلعة التي أطلَقَ عليها العامّة (حوش الباشا)، وفَقَدَ سيطرتَه على مجريات الأمور؛ لذلك قاطعه النّاس وأحجمُوا عن مراجعتِهِ، ما أدّى إلى نُضوب وارداته، وعجزه عن مواجهة المشاكل السياسيّة والماليّة في الولاية، وعدم قدرته على تدبيره أرزاق الجند، الأمر الذي أوقعه في موقعِ الحرج[٢]، فضلًا عن تزايد نفوذ القبائل العربيّة في الجزائر بزعامة ابن عليّان، وتصاعد نشاط هجماتها ضدّ المراكز العثمانيّة، وتعاظم نفوذ القوى المحلّيّة في البصرة وبعض الشّخصيّات المتنفّذة فيها، وبشكلٍ أدق، نفوذ (أفراسياب) الذي عزَّز مِن قوّته، وبَدَأ باحتلال مكانةٍ بارزةٍ في البصرة، وانتهى الأمر بانتقال السّلطة السّياسيّة إليه[٣]، بعد أنْ اشترى إمارة البصرة

(١) يُنظر: طارق نافع الحمداني، مدن العراق: ص٧٠-٧١.

(٢) يُنظر: تافرنييه، العراق في القرن السّابع عشر، تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، ١٩٤٤م: ص٩٦.

(٣) يُنظر: طارق نافع الحمداني، موقف القوى المحلّيّة من الولاة العثمانيّين في البصرة خلال القرن السّادس عشر، مجلّة دراسات للأجيال، العدد الثالث، السنة الخامسة، ١٩٨٢م: ص٢١٣-٢١٤.

من الوالي (علي باشا) بثمانية أكياسٍ من الذّهب، بشرط أنْ يكونَ (أفراسياب) خاضعاً لسلاطين آل عثمان، وأنْ يخطبَ لهم على المنابر، ويضربَ السِّكّةَ باسمِهم، وعلى تلك الشّروط استلم (أفراسياب) إمارة البصرة، وذلك عام (١٥٩٦م)[١].

إنّ تولّي أفراسياب ولاية البصرة قوَّض من نفوذِ المشعشعين، بعد أنْ امتنع من إعطاء الأموال إلى السيِّد (مبارك المشعشعيّ)، التي كان يأخذها من البصرة، وهي أشبه بالجزية (الخاوة)، وتمكّن كذلك من فتح أغلب مناطق الجزائر[٢]، وفي الوقت ذاته أعادَ المنتفق مِن أولاد مغامس نشاطَهُم في بادية البصرة، وقويتْ شوكتُهم، فاستفزَّ السَّيّد (مبارك) وجودُهم في (الْمَدَيْنَة)، وبالتحديد في منطقة نهر صالح[٣]، وأَخَذَ بالزَّحفِ بجيشه القَبَلي على الجزائر في عام (١٠٠٦هـ-١٥٩٧م)، واستولى عليها، وقَتَلَ أميرَها (ابنَ مغينش)[٤].

استمرَّ (أفراسياب) والياً على البصرة لمدّة سبع سنوات، ثمّ خَلَفَهُ ابنُه (علي باشا) عام (١٦٠٣م)[٥]، الذي تمكّن من إعادة الجزائر لسلطته[٦].

إنّ (علي أفراسياب) وحكومته لم يدفعا الجزية، ولم يبذلا الطّاعة لبغداد ولا اسطنبول؛ ولذلك لم تكن البصرة -حينذاك- في حوزة الحكم العثماني، وإنّما كانت خارجةً عنه؛ لذا استطاع (علي أفراسياب) أنْ يوسِّعَ حكمَه، ويوطِّدَ دعائم النظام خارج المدينة

---

(١) يُنظر: علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة: ص١٢٩.

(٢) يُنظر: فتح الله الكعبي، زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٢٨؛ وعبّاس العزّاويّ، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص١٧٣؛ وجاسم حسن شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص١٠٥-١٠٦؛ وعلي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة: ص١٢٩.

(٣) يُنظر: السيّد علي خان الموسويّ، الرِّحلة المكّيّة: ص٤٢.

(٤) يُنظر: حمود حمادي السّاعدي، بحوث عن العراق وعشائره: ص٢٢١.

(٥) يُنظر: فتح الله الكعبي، زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٢٨ ؛ وعبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٤، ص١٧٣.

(٦) يُنظر: حمود حمادي السّاعدي، بحوث عن العراق وعشائره: ص٢٢١.

وضواحيها، إلا إنّ قبائل الأهوار (الجزائر) كانت كثيراً ما تُثير القلاقل على حكومة البصرة[١]، وقدْ يرجع ذلك إلى النزعة الاستقلاليّة المتجذِّرة بين أفراد تلك القبائل، وتجدر الإشارة إلى أنّ سيطرة أُسرة أفراسياب على تلك المناطق، وحرمان المشعشعينَ من الحصول على وارداتها، ومنع إعطائهم الجوائز، دَفَعَ السيّد (مبارك المشعشعيّ) إلى شنِّ حملةٍ أخرى على الجزائر في يوم الأربعاء (٧ شوّال١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م)، وقتْلِ بعضِ أحرارهم[٢]، ومِن أبرزهم أمير ربيعة نهر عنتر (صالح بن غالب)، وقَتَلَ معه أخاه عبدالله، ومحمّد بن أجود، وعثمان بن باهض، وغيرهم، إلا إنّ تلك الحملة لم تحقِّق هدف المشعشعينَ في الاستيلاء على الجزائر[٣].

إلى جانب ذلك حاول الأمير (علي أفراسياب) كسب القوى والزّعامات المحلّيّة في الجزائر، لاسيّما (نعمة الله ابن عليان)[٤]، وقدْ أورَدَ ذلك المؤرّخ المعاصر للأحداث عبد علي الحويزيّ، مؤكِّداً أنّه «جعلَهُ أعزَّ كلِّ رفيقٍ، بل في مرتبة الأخ الشّقيق، بعد أنْ تغيّرتْ أحوالُه، وساءتْ معيشتُه، فألجأهُ إلى نفسه، وأمَّرَه في بلاد أبيه»[٥]، وكذلك شملتْ عناية (علي أفراسياب) كلّاً مِن (عليٍّ، وأخيه عيسى)[٦]، أمراء نهر عنتر، وتغير حالهما، إذْ ذَكر

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٢٨.

(٢) يُنظر: جاسم شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص١٠٥-١٠٧.

(٣) يُنظر: الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ورقة ٥-٦؛ وكاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسرينَ: ص١٧٨؛ وحمود حمادي السّاعدي، بحوث عن العراق وعشائره: ص٢٢١.

(٤) ذكره الحويزيّ باسم نعمة الله بن محمّد بن سلطان.

(٥) السّيرة المرضيّة في شرح الفرضيّة، تحقيق محمّد الخال، باسم تاريخ الإمارة الأفراسيابيّة، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦١م: ص١٦.

(٦) ولدى الأمير علي إخوةٌ آخرون، وهم: إبراهيم ونصر[ومِن ذرِّيّتِهِ عشيرة آل بو درويش أحد مكوّنات عشيرة حلاف جنزي]، وهاشم وسالم وكاظم وسعد ومنشد وقاسم وحطّاب ومبارك ونوح وجاسم ومحسن وضمد. يُنظر: كاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسِّرينَ: ص١٧٨؛ وحسين حاجم بريدي النواصر، معجم النّاصري لنسب وتاريخ العشائر العراقيّة، ط٤، إيران ، ٢٠١٢م:

الحويزيُّ في وصفه حالَ (عيسى): «ورَقَتْ به أحوال الزّمان إلى أنْ شملتْه عناية مولانا -سلّمه الله- وأبيه من قبله، غير أنّه بلغ في زمان صاحب السّعادة [علي أفراسياب] إلى أنْ استقلَّ بأمور الطّرف الصّالح من مملكة الجزائر، ودرَّتْ عليه أخلافُ الدّنيا، ورضَعَ ثديَ السّعادةِ، وكثُرتْ أموالُه وأموالُ أخيه الأمير علي، وحشّدوا خلقاً كثيراً من الرِّجال وكماة الأبطال»[1].

إنّ هذه النّصوص تدُلُّ على مدى استقرار العلاقة بين أُمراء الجزائر والإمارة الأفراسيابيّة، لاسيّما بعد اعترافها بسلطة أمراء آل عليّان وربيعة، ما انعكس بطبيعة الحال على الواقع الاقتصاديّ للمنطقة؛ بعد أنْ كانت تمثّل بؤرةَ المقاومةِ ضدَّ العثمانيّين، ويبدو أنّ (علي أفراسياب) أراد من خلال ذلك تأمين أوضاعه الداخليّة لمواجهة الأخطار الخارجيّة المتمثّلة بالتهديدات الصّفويّة، وخطر القوى الأوربيّة في الخليج العربي، فضلاً عن معرفته بمدى قوّة عشائر الجزائر وعنادهم بزعامة آل عليّان، الذين عجزتْ القوّاتُ العثمانيّة عن إرضاخهم.

من جانبٍ آخر، يُمكن عدُّ استجابة آل عليّان لعلي باشا نابعةً من شعورهم بأنّ السّياسة العربيّة للإمارة الأفراسيابيّة قدْ تنسجم مع طموحات أهل الجزائر وتطلّعاتهم، وهذا يُناقضُ ما دَرَجَتْ عليه السّياسة العثمانيّة[2]، وقدْ أَرجعَ بعضُ المؤرّخين المعاصرينَ تلك الاستجابة إلى كونِ حكم (علي أفراسياب) يقومُ على أُسس تطبيق العدالة بشكل مُرْضٍ، ما ساعد على سيادةِ الإحساس بالاطمئنان تُجاهه، وليس بمستبعَدٍ كونُ هذا الشعور من أهلِ البصرة متأتّياً من معرفتهم بأنّ (أفراسياب) ليس غريباً عنهم، لا لغةً ولا نسباً، وليس له ارتباطاتٌ بسلطةٍ أجنبيّةٍ، ولعلّ هذا هو التفسير المنطقيّ للاستقرار

ص١٣٥-١٣٦.

(١) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٣.

(٢) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٠٣.

النِّسْبيّ لهذه الإمارة، التي امتدّتْ سيطرتُها على مناطق صعبة المنال كإمارة آل عليّان[١].

ب- موقفُ أمراء الجزائر من حكومة (علي باشا أفراسياب)

إزاء تفاقم الصّراع الصّفويّ - العثمانيّ على العراق، تمكّن الصّفويّونَ من إعادة سيطرتهم على بغداد (١٠٣٣هـ/ ١٦٠٢م)[٢] بزعامة الشّاه عبّاس الأوّل(١٥٧١-١٦٢٩م)، وبدوره أمر القائد (صفي قلي خان) بالزّحف بجيشٍ كبيرٍ إلى البصرة بعد أنْ رفض (علي أفراسياب) طلب الشّاه (عبّاس الصّفويّ) تقديم فروض الطاعة والانقياد لأوامره ونواهيه[٣]، وإزاء ذلك، طلب (علي باشا) المساعدة من العثمانيّين على الرُّغم من أنّ أمله كان ضعيفاً في الحصول عليها؛ بسبب ولائه الاسميّ لهم، وما إنْ حلَّ شهر آذار (١٦٢٤م) حتّى كانت البصرةُ تنتظر هجوم الخان، وهي عالمةٌ بزحفه من الحويزة، وفي غضون ذلك أعار البرتغاليّونَ (علي أفراسياب) خمسَ سفنٍ مسلّحةٍ، بعد أنْ دَفَع لهم ما أرادوا، ومِن ثَمّ أُعلنَ التجنيدُ العامُّ في البصرة، فتوجّهتْ القوّاتُ المتطوّعة إلى معسكره، وفي عدادها الصّابئة والمسلمون، وقُسِّمتْ القوّة البحريّة، فرافقتْ ثلاث سفنٍ منها (علي

---

(١) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزي، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٣؛ وحسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثمانيّ: ص١٠٣.

(٢) كان ذلك إثر الحركة الانفصاليّة في بغداد التي قام بها بكر صوباشي (ضابط في الشرطة العثمانيّة) عن الحكومة المركزيّة في اسطنبول عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م، الذي كان يُريد من الدولة العثمانيّة أنْ تعترفَ له بوضعٍ شبه مستقلٍّ على غرار وضع آل أفراسياب في البصرة، لكنّه جُوبِه بالرّفض، وعندما اقترب من بغداد جيش يقوده والي ديار بكر بادر صوباشي بالانتقال إلى صفِّ الشاه عبّاس الصّفويّ، الذي قرّر أنْ يسبقَ العثمانيّينَ، فسار حثيثا إلى بغداد واستولى عليها، على الرُّغم من المقاومة اليائسة التي أبداها بكر، الذي عاد مرّةً أُخْرَى فأظْهَر إخلاصه للسُّلطان العثمانيّ، بعد أنْ أقرّ الباب العالي به واليا على بغداد، فأعدمَهُ الشّاه عبّاس الصّفويّ بعد تمكّنه من بغداد. يُنظر: ألكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها: ص٧٦-٧٧.

(٣) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٥؛ وعلي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة: ص١٣٠.

باشا) إلى القُرنة، إذْ كانَ مِن المتوقّع أنْ يحاولَ الصّفويّونَ العبور، وانحدرتْ اثنتانِ إلى الجنوب لوقف أيِّ تقدّمٍ يحدثُ مِن تلك الجهة[١].

في ذلكَ الحين، وصلتْ قوّة (علي باشا) البحريّة إلى القبان[٢]، واستصحبَ معه في حملتِهِ كلّاً مِن عيسى (أمير نهر عنتر) مع عددٍ يسيرٍ من أتباعِهِ، وناصر الدّين الزّبيديّ (أمير قلعة القُرنة)، فيما تخلّف عنها الأمير نعمة الله بن عليّان، وعبد الله بن مانع (أمير بادية البصرة من قبيلة المنتفق)[٣]، وعند وصول جيش (علي أفراسياب) إلى قلعة القُرنة، وعزمه على مواجهة الخان الصّفويّ، وعند انشغاله في تدبير شوؤن القلاع المشرفيّة[٤] من البصرة، تعلّل (ناصر الدّين الزبيديّ) وكَرَّ راجعاً إلى قلعته في القُرنة، فيما انكفأ الأمير(عيسى بن محمّد) إلى نهر عنتر زاعماً أنّه سيأتي ببقيّة جنوده ويلتحقُ بالقبان، وكانا قدْ اتّفقا على العصيان والتراجع عن مقاتلة الجيش الصّفويّ[٥]، وهنا لا يُمكن إغفال تأثير العامل المذهبيّ والعقائديّ لأهل الجزائر، الذي قدْ يكونُ سبباً مانعاً من مقاتلتهم الجنود الصّفويّينَ، الذين يَدينونَ بالمذهب ذاته، فضلاً عن صلات أُمراء الجزائر بالحكّام الصّفويّينَ، الذين غالباً ما كانوا يُقدّمونَ العونَ لهم لمقاومة الوجود العثمانيّ في المنطقة، وتبيّنتْ تلكَ الصِّلات بوضوحٍ بعد وصول الجيش الصّفويّ إلى الحويزة لحرب السيّد

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣٢.

(٢) القبان: إحدى المواقع العامرة التابعة لحكومة آل أفراسياب، تقع على الضّفّة الشرقيّة لشطّ العرب عند مصبّ نهر الحفار، أسكن أفراسياب باشا فيها قبيلة كعب عند قدومها من نجد في القرن السّابع عشر الميلاديّ، وأعطاها حكم القبان . يُنظر: إبراهيم فصيح الحيدريّ البغداديّ، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، بغداد، د.ت: ص١٧٩؛ وأيضاً ج.ج.لوريمر، دليل الخليج (القسم التاريخي)، مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، قطر، د.ت: ج٥، ص٢٣٩٧.

(٣) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزي، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٦.

(٤) لعلَّها نوعٌ من القلاع الحربيّة التي كانتْ تُبنى على مشارف المدن، أو المواقع الحدوديّة المواجهة للأعداء.

(٥) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، المصدر السّابق: ص١٠.

(منصور خان بن السيّد مطّلب الحيدريّ)[١]، وإخراجه منها، إذْ راسل (محمّد بن حسن الدّيريّ) أمير قلعة السُّويب[٢]، وبعض أهل الجزائر الخانَ الصّفويَّ يستقدّمونه لاحتلال قلاع شطّ العرب، وعندما بلغ ذلك الأمر (علي باشا أفراسياب) ركب بقوّاته البريّة والبحريّة، وعسكر بجيشه خارج القُرنة، وعندما وجد أهل الجزائر أنّ (علي باشا) أصبح على مقربةٍ منهم لم يسعهم التخلّف عنه، فجاءوا بأجمعهم، ومنهم: ابن عليّان وعيسى؛ للالتحاق مرّةً أخرى بعسكر علي باشا[٣].

من اللّافت للنظر أنّ مخاوف هذه الحملة والاستعداد لها انتهى بصدفةٍ غريبةٍ، إذْ انسحبتْ القوّات الصّفويّة فجأةً، تاركةً كلَّ شيءٍ، حتّى آلات المعسكر، من دون أنْ تُطلِقَ طلقةً واحدةً، ومِن المحتمل أنْ يكونَ سببُ الانسحاب حدوثَ اضطرابٍ في شيراز، أو ورودَ أمرٍ من أصفهان، وبعد أيّامٍ قلائل من ذلك الحدث، وصل إلى (علي باشا) من اسطنبول عن طريق البادية الفرمان السُّلطاني، الذي يقضي بتكريمه بالخلعة السُّلطانيّة والسّيف، وبذلك ثبت انتصاره في حكومته، فأُعيد بناء مراكز الدّفاع في القرنة؛ بوصفها المركز الطليعيّ للجيش[٤].

---

(١) السيّد منصور بن السيّد مطلب الحيدريّ: من أُمراء المشعشعين، تولّى الإمارة خلفاً للسيّد راشد المشعشعيّ عام ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م، وكان امتناعه عن المشاركة في الحملة الصّفويّة التي تقدّمتْ لاحتلال بغداد عام ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م وعدم امتثاله أمرَ الشّاه عبّاس الصّفويّ بالحضور إلى العاصمة أصفهان سبباً في غضب الشّاه، وقدْ التجأ بعد هزيمتِهِ أمام الجيش الصّفويّ إلى الأمير علي باشا أفراسياب. للمزيد، يُنظر: محمّد هليل الجابريّ، إمارة المشعشعين: ص٥٣، ١٩٦.

(٢) السُّويب: وهو موضعٌ (يقع حاليّاً على الضّفّة الشرقيّة لشطّ العرب، إلى الجنوب الشرّقي من قضاء القُرنة بنحو ٧ كم)، أمّا تسميتُه، فهي في الأصل مصغّر لاسم نهرٍ قريبٍ من القُرنة بُنيت على صدره قلعةٌ أُضيفت إليه، يأتيه الماء من جهة أهوار الكرخة والعمارة. يُنظر: فتح الله بن علوان الكعبي، زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر: ص٣٨؛ وعبد القادر باش أعيان العبّاسيّ، موسوعة البصرة: ص٢٧٧.

(٣) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٠-١١.

(٤) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣٢.

الصّراعُ بين إمارة ربيعة في نهر عنتر وعلي باشا أفراسياب

لقدْ كان أُمراء الجزائرغير جادّينَ ومتذبذبينَ في طاعتهم لعلي باشا، لاسيّما أمراء نهر عنتر، الذين جاهروا بإظهار عصيانهم، فقدْ عمل الأمير (عيسى) أثناء انسحابه من القُرنة -كما مرّ ذكره سابقاً- على تحريض أعيان البصرة، واستنصحهم عن طاعة (علي باشا أفراسياب)، فأجابوه بقول أحد الشُّعراء :

لقدْ عرضتْ فرصةٌ في العدُوِّ فلا تبدأ الرّأيَ إلّا بها

فضلاً عن قيامه بإيواء الخواجة (عبد الواحد)[١] بعد هروبه من (علي باشا أفراسياب)، كما أقدمَ على حبس الأمير (زنبور)[٢] لديه، بعد أنْ انحدر من مقرّه في الفتحيّة، وبذلك أصبح الأمير (عيسى) في نظر (علي باشا) عاصياً ومعادياً له[٣]، ويبدو أنّ الأمير (زنبور) لم يطاوع الأمير (عيسى) في جملةِ مَن طاوَعَهُ مِن أمراء الجزائر في أمر (العصيان)، ويُحتمل أنّه كان من خواصّ (علي باشا أفراسياب) ومقرّبيه.

لم تُشِر المصادر التاريخية التي أوردتْ تلك الأحداث -لاسيّما الحويزيّ- إلى ذكر الأسباب والدّوافع الحقيقيّة لتعاضد أُمراء الجزائر على أمر العصيان، وقدْ يرجع ذلك إلى أنّ أولئك الأمراء لم يجدوا مبرّراً لولائهم للأمير (علي أفراسياب)، وما يُمليه

(١) الخواجه عبد الواحد: وهو أحد وزراء الإمارة المشعشعيّة في عهد السيّد مبارك خان، وبعد وفاة الأخير، وجلوس ابن أخيه راشد خان مكانه، قبض على الخواجه وانتهب داره، وبعد أنْ أفلتَ من حبس الأمير راشد، قدِم على أفراسياب باشا، فأكرمه ونصّبه لتدبير أمور الإمارة في المخاطبات الموجّهة للأصدقاء والأعداء، واستمرّ في ذلك حتّى مجيء علي باشا، وأصبح من المقرّبين له، إلا أنّ ذلك لم يدُم طويلاً؛ نتيجة حسد الآخرين له، فوشَوه عند علي باشا، فأوقع ذلك النُّفرة في قلبِهِ عليه، ما اضطرّه إلى الهرب ليلاً في رمضان ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م، والرّكوب في سفينةٍ؛ حَذَراً من لحوق الخيول به، متوجِّهاً إلى الأمير علي وأخيه عيسى في نهر عنتر. للمزيد، يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٢-١٣.

(٢) وهو أحد أعيان الإمارة الأفراسيابيّة، وكان أميراً على الفتحيّة مقابل (الْمَدَيْنَة).

(٣) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الإمارة الأفراسيابيّة: ص١٣.

ذلك من استحقاقاتٍ ماليّةٍ وعسكريّةٍ، لاسيّما أنّ الأخير كان تابعاً -اسميّاً- للدّولة العثمانيّة، التي يكنّونَ لها العداء، في وقتٍ كانت بغداد ذاتها خاضعةً لسلطة الشّاه عبّاس الصّفويّ[١].

على إثر ذلك جهّز (علي باشا) حملةً عسكريّةً ضمّتْ المقرَّبينَ له من الأعيان، ومنهم الأمير (عبد العزيز) خال ولده (حسين)، وجمعٌ كبيرٌ من الجنود من أهل البصرة، والغرباء الذين استخلصهم لنفسه[٢]، فضلًا عن الموالين له من أهل الحويزة[٣]، وكان ذلك في شهر ربيع الثاني (١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م)، وقدْ تزامَنَ معَ وصولِ (علي باشا) وعسكره -وعلى مقربةٍ من القُرنة- أنْ غَزَا أميرها (ناصر الدّين الزبيديّ)، الذي كان حليفاً لأمراء نهر عنتر، القريةَ المسمّاة (نمريرعة)[٤]، القريبة من القُرنة، التي يوجد فيها جماعةٌ مِن المخلصين لعلي باشا، على مرأىً ومسمعٍ منه، فأمر (علي باشا) سُفُنه وعسكره بالتوجّه إلى قلعة القُرنة، على الرُّغم من محاولة الأمير (عبد الله بن مانع) (أمير البوادي) ثنيه عن ذلك، بالإشارة إليه بالتوجّه أوّلاً إلى قلعةِ نهر عنتر، إلّا إنّ (علي باشا) لم يلتفتْ إلى رأي الأمير (عبد الله بن مانع)؛ لعدم ثقتِه به، وعلى أيّة حالٍ، وصل عسكر علي باشا إلى قلعة القُرنة في وقتٍ أقبل واليها (ناصر الدّين الزبيديّ)، ومن معه من الأعيان، متضرِّعينَ له من سوء أعمالهم، فعفى عنهم علي باشا، وتوجّه في الشّهر ذاته إلى نهر عنتر

---

(١) للمزيد من التفصيل حول الصرّاع الصّفويّ العثماني على العراق، يُنظر: ألكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها: ص٧٦-٧٩.

(٢) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٤.

(٣) يُنظر: الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ورقة (٦).

(٤) ذُكِرَتْ في نسخةِ مخطوطةِ الحويزيّ التي حقّقها سعدون جاسم محمّد الجزائريّ الموسومة (تاريخ الدولة الأفراسيابيّة، ص٢٣٣) باسم (نهر يرعة)، وربّما يقصد بها قرية مزيرعة الحاليّة، التي تقع على الضِّفّة الشرقيّة لنهر دجلة، تبعد حدود ١٥٠٠م عن مركز قضاء القُرنة.(**الباحثان**).

لملاقاة جيشها، الذي خرج هو الآخر للمواجهة في منطقة الشّرِش[١]، وقامتْ الحرب، والتحمَ الجيشان، وأوردَ الحويزيُّ في وصفه تلكَ المعركة مانصُّه: «وحُكِيَ لي أنّ ذلك اليوم ممّا لم يمرَّ على أحدٍ ممّنْ سكن البصرة السّماع بمثله، أو المشاهدة لشبهه، وزحف عسكر الحويشيّ[٢] إلى مقابليهم من الأجناد حتّى ضايقوهم، وألجؤوهم إلى قريبٍ من الخيل [فرقة الخيّالة]، كان بندق الأعداء يمرّ على رأسه[٣]- سلّمه الله- وهو لا يتضعضعُ من مكانه... وأشار عليه بعض أرباب الأفكار القصيرة والهِمم الحقيرة، أنْ يتأخّر عن ذلك الموقف، بحيث لا يصل إليه سهام الاتفاق، فلم يعبأ بقولهم؛ ترفُّعاً منه عن أنْ يُقال: قدْ زلزله الحويشيّ عن مرسى قدميه وأغاثه خدمُه.

فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رجلَه وقالَ لها من دون أخمصك الحشرُ[٤]

وكأنّ أبا فراس[٥] قد تكلّم على لسانه، فقال:

ولمّا لمْ أجدْ إلّا فِراراً أشدّ من المنيّةِ أو حِمامَا

حملتُ على ورود الموتِ نفسي وقلتُ لصُحبتي موتُوا كِرامَا

واستمرّ القِتال والجِدال بين الفريقينَ من الصَّباح إلى الظهر، وذلك في يومٍ كيوم الشّنفرى[٦]، حيث يقول:

(١) تقعُ على الضّفّة الغربيّة لشطِّ العرب جنوب مركز قضاءِ القُرنة بحدود ٥ كم.

(٢) يقصدُ الأمير عيسى بن محمّد، أخو الأمير علي (أمير نهر عنتر).

(٣) يقصد علي باشا أفراسياب.

(٤) البيت للشّاعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي.

(٥) يقصد به الشّاعر أبا فراسٍ الحمداني.

(٦) وهو شمس بن مالك الأزديّ، وابن أخت تأبّط شراً، وهو مِن عدّائي العرب ومتشرديهم، لم يذكر التاريخ عام ولادته ولا وفاته، سلك طريقَ السّلبِ والنَّهبِ والصّعلكة، حتّى فشا خطره في البادية، وقيل إنّه كانَ يُخاطب مَن يُريد الاعتداء عليه، بقوله: (أ أطرفك)، ثمّ يهجمُ عليه، وكان نتيجة تلك الحياة الوحشيّة، أنّه غدا متجبّراً، شديدَ الإباء، لا يخضعُ لقوّةٍ ولا يحترمُ نظاماً، ولمّا ضاقتْ البادية بشروره وفُوضى أعماله، دبّرَ له البعضُ مكيدةً، فذهب ضحيّةَ أفعالِهِ، والشّنفرى من شعراء الجاهليّة

ويومٌ مِن الشِّعرى[١] يذوبُ لعابُه أفاعِيه في رَمضَائِه تَتَمَلْمَلُ

فأهبّ اللهُ رياحَ نصره، وأمطرتْ سحاب معونتِه على عساكر مولانا، فحملُوا عليه حملةً منكرةً، متنادين بكلّهم، صارخين بشعارهم، فقتلُوا منهم مقتلةً كبيرةً»[٢].

يُشير الحويزيّ إلى أنّ نتيجة تلك المعركة قدْ انتهت لصالح (علي باشا أفراسياب) وهزيمة جيش الأمير (عيسى)، وذكر أنّه «فَقَدَ بها مالَه ورجالَه، وقَتَل بها أكثر أبطاله، فانهزم بقيّة عسكره الفلا، الذين أفلتتهم السّيوف، وأخطأتهم الحتوف، إلى قلعته، مكسور البأس، مخزيّاً بين النّاس»[٣]، فيما يؤكّد الشريف الجزائريّ أنّ الانتصار كان حليف جيش الأمير (عيسى)، إذْ ذكر: أنّ «العدوّ قدْ خسِر ورجع خائباً، فدبّر حيلةً لاغتيال الأمير علي وأخوته»[٤]، وقدْ وافقه في ذلك الشّيخ (كاظم الحلفيّ)، مؤكّداً أنّ عجز (علي أفراسياب) عن قتال إمارة ربيعة ومَن معها في معركة الشّرِش دَفَع به للاحتيال والعمل على تدبير اغتيال الأمير علي وأخوته[٥].

وهنا نذهب إلى ترجيح الرأي الثاني، الذي يقول بعجز (علي باشا أفراسياب) عن تحقيق الانتصار؛ لأمرين: أوّلهما أنّ ما حَمَّله الحويزيّ لنصوصه من مبالغةٍ وتعظيمٍ وتزلُّفٍ منقطعِ

الذين خلّدتهم قصيدةٌ واحدةٌ، هي اللّامية المعروفة بلاميّة العرب. للمزيد، يُنظر: نعمان ماهر الكنانيّ، شعراء الواحدة، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٧م: ص٧.

(١) الشِّعرى: هي الكوكبُ الذي يطلعُ بعد الجوزاء وطلوعه في شدّةِ الحرِّ، وهذا البيت هو مِن قصيدة الشّنفريّ المسمّاة بالشّنفريّة أو لاميّة العرب، وتخصيصه في قوله تعالى من سورة النجم، الآية (٤٩): ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى**﴾. السيّد المرتضى ت٤٣٦هـ، الأمالي، تصحيح وتعليق الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطيّ، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، ط١، ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م: ج٣، ص٤٥؛ والرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط٢، قم: ص٤٥٧.

(٢) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٤-١٦.

(٣) المصدر نفسه: ص١٦.

(٤) الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ورقة (٦).

(٥) يُنظر: كاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسرينَ: ص١٥٥-١٥٦.

النظير للأمير (علي باشا) دفعنا إلى التحفّظ تجاه ما ورد فيها من ميلٍ قدْ يصل إلى التجنّي على الحقائق التاريخيّة، وأنّ الأبيات التي استشهد بها -وإنْ كان يبتغي بها إظهار شجاعة (علي باشا أفراسياب) وثباته- إلا إنّها تعكسُ في وجهتها الأخرى واقع تلك المعركة، وأنّه لا مجال أمام عسكر الباشا إلّا الفِرار، أو مواجهة الموتِ الكريمِ، وفي ذلك دلالة على مدى قوّة ومَنَعَة جيش الأمير (علي)، الذي كان أقرب إلى النصر منه إلى الهزيمة، وثانيهما: لو كان (علي أفراسياب) قدْ كَسَبَ نصراً عسكريّاً وأرضخ إمارة نهر عنتر لسلطته، لما التجأ إلى تدبير مؤامرة اغتيال الأمير (علي) وأخوته بالتعاون مع (نعمة الله ابن عليّان)، -وهذا ما سيردُ تفصيلُه لاحقاً-.

لقدْ حاول (علي باشا) بعد الانتهاء من معركة الشّرش إتمام هدفه بالقضاء على الأمير (علي)، وأخيه (عيسى)، فقام بالاتفاق مع الأمير (نعمة الله بن عليّان) على أنْ يحتال في وجهة تمكّنه من القبض على (عيسى) وأخيه، على الرُّغم مِن علمه بما بينهما وبين ابن عليّان مِن «عَقْد إخوّةٍ ويمينٍ على الاتّفاق في الوِفاق والشِّقاق»، إلاإنّ سعي (علي أفراسياب) الحثيث في تكثيف جهدِه، مكّنه مِن احتواء ابن عليّان واستمالتِه إليه، بعد أنْ بَذَلَ له «رغائب الأموال، فاستحلفه الأمير نعمة الله بن عليّان على قتل (عيسى) إذا هو قبض عليه، وأتى بهم إليه»[1]، فأجابه إلى ذلك، وكان ابن عليّان -حينذاك- يخطّط لأمر العصيان في الجزائر، ويعتقد أنّ الأمير علي (أمير نهر عنتر)، إذا لم يقم بأمره ويوافقه على سعيه لم يقم له الحال، بل ربّما قام بحربه دون غيره من الرّجال؛ لذا فقدْ سعى للقضاء عليه حتّى لا يبقى في تلك الدّيار من منافسٍ له إذا ما خرج عن طاعة (علي أفراسياب).

لم يكن أمراء نهر عنتر على علمٍ بالاتفاق السّرّي بين (ابن عليّان وعلي أفراسياب)؛ لذا فبعد معركة (الشّرِش) رأتْ إمارة نهر عنتر أنْ تستنجدَ بالأمير (نعمة الله بن عليّان)،

---

(١) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٦-١٧.

ورأى الأمير (عيسى) أنْ يذهبَ إليه بنفسه، ويذكِّره بالعهد القديم والودِّ السّابق، فركب إليه -وهو يومئذٍ في مقرِّ إمارته في نهرِ صالح[١]- وذكر الشريف الجزائريّ: أنّ الأمير (علي) قدْ أرسل أخاه وقائدَ جيشه (عيسى) إلى الأمير (نعمة الله بن عليّان) ليهنّئه بعيد الأضحى، وقدْ تأخّر هو عن ذلك؛ لكونه مريضاً، ولما وصلوا إليه أرسل إلى (علي باشا أفراسياب)، الذي كان على علمٍ واستعدادٍ كاملٍ في قلعة القُرنة، ولما أراد (عيسى) الرّجوع إلى نهر عنتر طلب منه ابن عليّان البقاء، وأظهر له المودّة الكاملة، وأنّه قدْ هيّأ له مأدبة العشاء، فبقي (عيسى) عنده، وبعد منتصف تلك اللّيلة وصل (علي باشا) بجيشه عن طريق الفتحيّة[٢]، ويروي الحويزيّ عن لسان (علي باشا): «كنّا جلوساً عتمةً، فسمعنا صوتَ شخصٍ يُنادي مِن وراء الشطّ: عبّروني، فإنّ عندي بشارة، فأمر (عمر آغا القبطان) مَن أتى به، فكانت هذه البشارة القبض على (عيسى) وأخوته، ولما وصل خبر القبض عليه إلى أصحابه - وأخوه الأمير علي، وخواجة عبد الواحد يومئذٍ بالقلعة المسمّاة الرّحمانيّة[٣] - قصمتْ ظهورهم، واستعجمتْ عليهم أمورهم، وزحف إليهم العسكر، فأُخِذُوا أخذاً وبِيلاً»[٤]، فقتلُوا (عيسى) ومَن مَعه، ودَخَلُوا نهر عنتر، وأحاط الجيش بقلعةِ الأمير علي في الرّحمانيّة وضربوها بالقنابر، وقتلوا جميع مَن فيها، ثمّ هجموا على البيوت، فقتلوا الشيوخ والأطفال، وفتكُوا بالنّساء، ودمّروا القِلاع،

---

(١) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٧.

(٢) يُنظر: مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ص٦.

(٣) ذكر سعدون جاسم محمّد الجزائريّ في دراسته التحقيقيّة لمخطوطة الحويزيّ، وفي تعريفه لقلعة الرّحمانيّة: أنّها تقع على الجهة الشّرقيّة من شطّ العرب، وعلى نهر الكارون، وهذا بعيدٌ عن الواقع الجغرافيّ والتاريخيّ الذي يتناوله النصّ المحقّق، لاسيّما أنّ المنطقة- وحسب تعريفنا السّابق في (ص٨٥) من البحث - تقعُ ضمن الواقع الجغرافي لمنطقة نهر عنتر مقرّ أُمراء ربيعة. يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٥٥.

(٤) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٧.

ولم ينجُ منهم إلّا الذين هربُوا، إذْ قُتِل أكثر من خمسة آلافٍ من حدود نهر صالح إلى نهر الدِّير، ودُفِن الأمير علي وأخوته جميعاً في خاصّةٍ عُرِفت بـ(قنبر علي)[١] في مقاطعة التّمار بالقرب من قلعة جدِّهم الأمير (صالح)، وبعدها أصبح نهر عنتر خاضعاً لسلطة (علي باشا أفراسياب)[٢]، وعَين (ناصر الدّين بن هشام) والياً عليه[٣].

من خلال ماتقدّم، يتّضح أنّ نزوعَ أُمراء الجزائر نحو الاستقلال كان عاملاً رئيساً لدخول المنطقة في صراعاتٍ خارجيّةٍ وداخليّةٍ؛ إذْ إنّه –وعلى الرُّغم من الاتفاق والتّعاهد بين الإمارتين الأقوى في المنطقة(ربيعة وآل عليّان)، للوقوف بوجه القوى الخارجيّة– إلّا إنّ التنافس الدّاخليّ بين كلتا الإمارتين كان السِّمة الأكثر وضوحاً، لاسيّما لدى أُمراء آل عليّان، ويبدو أنّ استعادة إمارة ربيعة – حينذاك – لقوّتها، التي تجلّت بوضوح بعد تبنّيها الدعوة للخروج عن سلطة الإمارة الأفراسيابيّة، أدّى إلى إثارة أُمراء آل عليّان، الذين وجدوا فيها منافساً قويّاً لسلطانهم على الجزائر، الذي بَنَوْهُ منذُ تزعّمهم حركة المقاومة القبليّة ضدّ العثمانيّين، ومن هنا يبدو أنّ أُمراء آل عليّان وجدوا ضرورة تصفية الجبهة الدّاخليّة أوّلاً؛ تمهيداً لإعلان خروجهم عن سلطة (علي باشا أفراسياب)؛ لذا فإنّ عرض الأخير للأمير (نعمة الله بن عليّان) للتخلّص من الأمير (علي) وأخيه (عيسى) جاء منسجماً مع أهداف ابن عليّان، ومِن الملاحظ أنّ إقدامه على تلك الخطوة قدْ أوقعه في خطأ استراتيجيّ، إذ إنّه مكّن (علي باشا) من تركيز سلطته المباشرة على الجزائر بعد إخضاعه لإمارة نهر عنتر، وإنّه أضعف القدرات الذاتيّة لمنطقة الجزائر نتيجة الخسائر البشريّة والاقتصاديّة الكبيرة التي ألحقتها قوّات (علي باشا أفراسياب) خلال تدميرها

---

(١) المقبرة موجودة حاليّاً في حدود قرية (التمار)، الواقعة على الضّفّة الشرقيّة لنهر عنتر. (**الباحثان**).

(٢) يُنظر: الشريف الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة: ورقة (٧)؛ وكاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسرينَ: ص٥٧.

(٣) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٣٤.

إمارة ربيعة في نهر عنتر، وهو ما لم يدركه الأمير (نعمة الله بن عليّان)، لاسيّما أنّه يخطّط للاستقلال في الجزائر.

سقوطُ إمارة آل عليّان في نهر صالح، وأثره في منطقة الجزائر

إنّ النزعة الاستقلاليّة المتأصّلة لدى أمراء الجزائر، ورغبة (نعمة الله بن عليّان) وطموحه في فرض سلطته على المنطقة، جعلت جهوده تنصبّ خلال تلك المرحلة على استغلال كلّ فرصةٍ للتعبير عن نيّته في العصيان، فعند حلول عام (١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م) ظهرت بوادر اتّفاقه مع (عبد الله بن مانع المنتفقيّ)، أمير بادية البصرة،على العصيان والخروج عن طاعة الإمارة الأفراسيابيّة، فبادر ابن عليّان بالهجوم على قلعتي ((المْدَيْنَة) والفتحيّة)، وكان والي الفتحيّة يومئذٍ الأمير (زنبور)، وبثّ جيوشه عليها، وأشعل نار الحرب بينهما، فلمّا سمِع (علي باشا) الخبر، قال مَوالِيا[1] بديهةً، إذْ قال:

طاوعتْ يا بو سعيد أشرار عدوانك
حتّى علينا ظهر سعيك وعدوانك
والمصطفى لو بدى بالشّر بدوانك
لك يوم ما ينفعك حضرك وبدوانك

(١) الموالِيا: ويقصد به الموّال، وهو أحد الأشكال الشّعريّة الشعبيّة، وذُكِر أنّ أوّل مَن نطق به جاريةٌ رثتْ جعفراً البرمكيَّ، بعد انقلاب هارون على البرامكة وقتلهم؛ إذْ قالت:

يادار أينَ ملوكُ الأرض أينَ الفرس
أينَ الذين حموها بالقنا والتـــّرس
قالتْ تراهم رمم تحت الأراضي الدَّرس
سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خـرس
مع قولها... يا...مواليا...

وقد علّل تسميته بالموّال؛ لموالاة قوافيه بعضها البعض، ومنهم مَن يشتقُّه مِن موالي بني برمك؛ كونهم أوّل الناطقين به. للمزيد، يُنظر: عبد الكريم هدّاد، مدخل إلى الشعر الشّعبيّ العراقي- قراءة في تاريخ شعب، ط١، السّويد، ٢٠٠٣م: ص٢٣-٢٧.

لقدْ ذكر الحويزيّ أنّ تلك الأبيات قدْ أشارت إلى غدر ابن مانع ومعاونته ابنَ عليّان، فلمّا فرغ من أبياته، أمر بأنْ تَركب القوّاتُ في السُّفن والغربان والمقنمات [نوع من السُّفن الحربيّة]، وتشحن آلات البحر بأدوات الحرب، وذلك في شهر ذي الحجّة من العام (١٠٣٥هـ/ أيلول ١٦٢٦م)، وبعد أنْ استخلف مكانه (علي آغا)[١] على البصرة، ركب هو وخاصّتُه، الذين تخلّفوا أو لم يسيروا في السُّفن، فساروا على طريق البَرِّ، فلمّا تجاوزوا الموضع المعروف بالدّير، مرَّ على خيامِ جماعةٍ من أعراب المنتفق، في مقدّمتهم (حمدان ابن زوين)، فعزم على أنْ ينزلَ عنده، وكانت تلك مكيدة من الأخير؛ ليستمهله حتّى يأتي (ابن مانع) ويغدر بعلي باشا ومَن معه على حين غفلةٍ منهم، وقدْ أدرك الأمير (علي باشا) ذلك الأمر بأماراتٍ، منها، أنّه لم يوفِ له الخدمة مِن القيام بأمر الطّعام، الذي يجبُ أنْ يقدّم لمثله، فبات عنده إلى الصّباح، ومِن ثمّ واصل مسيره، وعند وصول (عبد الله ابن مانع) إلى الموضع المعلوم بينه وبين حمدان لم يجد (علي باشا) هناك، فكَرَّ راجعاً طامعاً بالبصرة؛ لخلوِّها من الجنود[٢].

من خلال ما تقدّم، يتّضح أنّ كلّاً مِن (ابن مانع وابن عليّان) لم يبتغوا من عصيانهم هذا إعلان الاستقلال فحسب، بل كانت لديهم النيّة المسبقة لإسقاط حكومة آل أفراسياب، ويبدو أنّ عصيان (نعمة الله بن عليّان) في (الْمُدَيْنَة)، وعدم التحرّك باتجاه البصرة لمعونة ابن مانع، كان جزءاً من تلك الخطّة التي اعتمدت في الظاهر على عنصر المباغتة القائم على إخراج (علي أفراسياب) بجيشه من البصرة واستدراجه نحو مناطق الجزائر الوعِرة، في حين يباغت ابنُ مانع البصرة بقوّاته لإسقاط حكومتها.

عند وصول (عبد الله بن مانع) بجيشه البصرة، بدأ بحصارها، فلمّا بلغ الخبر إلى

---

(١) ورد في متن مخطوطة الحويزيّ، التي حقّقها سعدون جاسم محمّد الجزائريّ، باسم (علي آغا بن الهذيلي).

(٢) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٧-١٨.

علي باشا –وهو يومئذٍ في القُرنة– أرسل إلى البصرة جماعةً من رُماة السِّهام، وأمَّرَعليهم (ربيع بلوك باشي)، و(عبّاس قلي الكردي)، أمّا (علي أفراسياب)، فاتّجه إلى (المْدَيْنَة) لمحاربة (نعمة الله بن عليّان)، ونزل الفتحيّة، فيما أقام (ابن مانع المنتفقي) أيّاماً في محاصرة البصرة، وظهر عجزه عن دخولها، إذْ كانتْ «مشحونةً بالنّاس مِن ذَوي البأس»[١]، فكان يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، حتّى قرّر أخيراً الانكفاء إلى قلعته المسمّاة (كويبدة)[٢]، وجلس ينتظر ما يؤول إليه أمرُ ابنِ عليّان، وخشي أنْ تدورَ الدّوائر عليه ويناله عقاب علي باشا؛ لذا أرسل بعض الشّفعاء من الوجهاء وأصحاب المناصب إليهِ لينالَ عفوَه، ومِن أجل إثبات حسن نيّتِهِ، قدم ابن مانع إلى علي باشا في العشر الأواخر من شهر ذي الحجّة (١٠٣٥هـ/ أيلول١٦٢٦م) فتلقّاه – كما وصفه الحويزيّ – «في البِشر والأُلْفة وحسن الخُلُق، كجاري عادته، وصفح بمقتضى شيمته»، وسأله العفو عن نعمة الله بن عليّان، فأجابه إلى سؤاله، وأمر العساكر بالانصراف عن محاربته، وأظهر الرِّضا عنه بإبقائه على البلاد التي أقطعها إيّاه، وعليه انسحبت قوّاتُ (علي باشا) البالغ تعدادها أربعة آلاف جندي عن طريق البَرّ والبحر، إذْ «ماج البرُّ بخيله ودبّاباته[٣]، والتطمَ البحر بغربانه ومقنماته»[٤].

تدلُّ تلك الحادثة على قوّة ابن عليّان، وسعي (علي باشا أفراسياب) إلى تحاشي الاصطدام معه، وتفضيل اللُّجوء إلى الطّرق الدبلوماسيّة، على الرُّغم من القوّة العسكريّة الكبيرة التي أعدّها علي أفراسياب، وأنّ تلك الاستعدادات الكبيرة للمواجهة مع ابن

(١) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٦٣.

(٢) يُنظر: المصدر السّابق.

(٣) الدّبّابة: آلةٌ تُتّخذ في حصار القِلاع، يدخلون في جوفها، ثمّ يذهبون إلى أهل الحصن فينقبونه، فهم في جوفها بمأمنٍ ممّا يُرمى إليهم . يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٠.

(٤) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص١٧–٢٠.

عليّان تدلُّ على مدى معرفة (علي أفراسياب) بقوّة ابن عليّان، والملاحظ أنّ الأخير لم يُبدِ من جانبه أيَّ تنازلاتٍ سياسيّةٍ، إذْ كان الانسحاب قدْ جاء بمبادرةٍ من (ابن مانع)، الذي تردّد كثيراً في تطبيق الخطّة التي كانت معدّة بينهما لعصيان آل أفراسياب.

وإذا أخذنا بالنظر جميعَ الظروف، نجد أنّه لم يكن بالأمر الهيّنِ على الإمارة الأفراسيابيّة هضم فكرة التآمر عليها، فأخذتْ تَسعى لتصفية حلفاء ابن عليّان؛ لذا توجّه (علي باشا أفراسياب) بعسكره في شهر ربيعٍ الأوّل عام (١٠٣٦هـ)، تشرين الثاني(١٦٢٦م) إلى قلعة (كويبدة) وفتحها، بذريعة أنّ أميرها على اتّصالٍ خفيٍّ مع أعداء الإمارة الأفراسيابيّة، ويسعى للتآمر عليها[١].

على إثر ذلك قام ابنُ عليّان أوائل عام(١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م) بمهاجمة حاميات الجنود في منطقة (الفتحيّة)، و(أبو غربة)[٢]، فانحاز إليه والي نهر عنتر (ناصر الدّين بن هشام)، الذي عيّنه (علي باشا)، إذْ ركب الأخير في شهر ذي الحجّة (١٠٣٧هـ/ آب ١٦٢٨م)، ونزل (مدينة ابن عليّان)[٣]، وأرسل جماعةً من الرّجال إلى جانب الفتحيّة وأبو غربة وبنوا قلعةً فيها، ويذكر الحويزيّ في سياقِ تلك الأحداث:«وصالتْ عليهم متجنّدة ابن عليّان، فقاتلوهم قتالاً شديداً، فهزموا بإذن الله، وأرسل الشّفعاءَ يسألُ العفو، وأنْ ينزلَ له عمّا في يد الأمير ناصر الدّين [ويقصد بذلك نهر عنتر]، فسبقه الأمير المذكور بالمبادرة إلى الطاعة، فانضمّ إلى أولياء الدّولة»[٤].

بعد أنْ توصّل (علي باشا) إلى تفاهمٍ مع ابن عليّان وأدخله في طاعته، قَفَل راجعاً

---

(١) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٠-٢٣.

(٢) البو غربة: وهي إحدى المواضع التابعة لقضاء (الْمَدَيْنَة)، وتُدعى حاليّاً بالاسم ذاته، وتقع على الضفّة الشماليّة لنهر الفرات إلى الغرب من الفتحيّة.

(٣) ربما يقصد (الْمَدَيْنَة) الحاليّة؛ لأنّ المقرّ الرئيس لإمارة آل عليّان في نهر صالح.

(٤) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٥.

إلى البصرة، وأمر جميع أمراء الجزائر أنْ ينقادوا إلى ابن عليّان، ويعوِّلوا عليه في جميع أمورهم، وأنْ يؤدّوا ما عليهم من الضّرائب الماليّة للدّولة على يديه، وأنْ يكون هو الوساطة بينهم وبين أموال الدّيوان[١].

وإذا ما نظرنا إلى ماسبق بإمعانٍ نجدُ أنّ ابن عليّان لم يكن في موضع المستشفِع لدى (علي باشا)، بل في موضع المفاوِض، إذْ عرض شروطه بضمٍّ إمارة نهر عنتر إليه؛ تحقيقاً لهدفه في السّيطرة على الجزائر، ويبدو أنّ (علي باشا) حاول استرضاءَه بمنحه التزام جباية الضّرائب المستحَقَّة للحكومة من أراضي الجزائر.

إنَّ عفو (علي باشا) عن ابن عليّان لأكثر من مرّةٍ لم يأتِ من فراغٍ، وإنّما كان نابعاً من معرفته بطبيعة شدّة بأس القبائل في منطقة الجزائر، ويمكن أنْ نستكملَ أبعاد ذلك فيما ذكره (لونكريك) مِن أنّها قبائل «شرسة الطّباع، مزدرية للموت، مكوّنة دولةً داخل دولةٍ، حتّى أنّ أفراسياب كان يتحاشى إثارة العداء معهم على شجاعتهم العنيفة، ومناعتهم العظيمة»[٢]، فيما ذكر الرّحّالة (فيدريجي) أنّ عربَ الجزائر لهم بلدٌ كبيرٌ، ويرفضونَ الخضوعَ للحكم العثمانيّ، الذي لا يستطيعُ إخضاعهم؛ لما في بلدهم من قنواتٍ كثيرةٍ تتّصلُ بالبحر، إذْ تتكوّن مواقعُهم من جملةِ جزرٍ لا يستطيع الجيش التوغّل فيها[٣]، لا عن طريق الماء ولا عن طريق اليابسة، وسكّان هذه المنطقة رجالُ

---

(١) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٥.

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣٣.

(٣) إنّ الطُّرقَ والقنوات التي تتخلّل الأهوار عادة ما يصعب التنقّل فيها من قبل سكّان الأهوار ذاتهم؛ لوعورتها وعدم وضوحها، وغالباً ما يضع الشّخص المتنقّل في موطن أهوار قبيلته علاماتٍ ليُرشِد بها مَن سوف يتّبِعُه، ويضع مثل هذه العلامات -أيضاً- إذا كان في موطن قبيلة أخرى؛ ليستدلّ بها عند عودته إلى الطريق الذي قدِم منه، ويمكن أنْ يُقاس من ذلك مدى الصّعوبة التي تعانيها الحكومات في فرض سيطرتها على مناطق الجزائر؛ لوعورة مسالكها. للمزيد، يُنظر: فلانين، الحاج ركان عرب الأهوار، تعريب جميل سعيد وإبراهيم شريف، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٦م: ص٢٥-٢٦.

قتالٍ بطبيعتهم[١].

عند دخول سنة (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م)، كان (علي باشا) يُرجِّي أنْ يلتزمَ ابن عليّان بذلك الاتفاق، إلّا إنّ أهل الجزائر دخلوا عليه وحفّزوه على العصيان بتذكيره دوماً بأنّ هذه البلاد إرثاً له من الآباء والأجداد، وأشاروا عليه بقولهم:«ما يزيدُك دخولك في الطّاعة إلّا ذلّاً»، مؤكِّدينَ له: «نحنُ أولياؤك وأولياء آبائك من قديم الدّهرِ وسالف العصر»، وبذلك زيّنوا له عملَه، فظَاهَرَهُم على ذلك، وأعلنَ عصيانَه، واجتمعَ حوله خلقٌ كثيرٌ من أهل الجزائر، فما زادَه ذلك إلّا إصراراً على تحقيق أهدافه، أمّا دافع أُمراء الجزائر في رفع ابن عليّان لإعلان عصيانه -وحسبما ذكره الحويزيّ- فهو أنّهم «كانوا يحسدونه بما هو عليه وما انتَهوا هم إليه، فلم يجدُوا لهم مدخلاً يشفي صدورهم، ويقوّي أمورهم، إلّا أنْ تقف عنه المراحم، وتستوغر منه الصّدور، ويُتجنّب بعد أنْ كان الصّديق الحميم، ويُستغرَب بعد أنْ كان العزيز الصّميم، وليس ذلك إلا بإظهار عصيانه وإعلان شقائه وعدوانه»[٢]، وفي ضوء ماتقدّم، يمكن استشفاف درجة امتعاض أمراء الجزائر من ابن عليّان، لاسيّما بعد ازدياد منزلته لدى (علي باشا) وقربه منه، وشكّل ذلك باعثاً مهماً لقلقهم، ما حدى بهم لدفعه باتجاه العصيان.

تبعاً لذلك، أعلنَ ابن عليّان عصيانه، وعليه حشد (علي باشا) العساكر في البَرّ والبحر، وتقدّمت الغربان والقايات(أنواع من السُّفن)، وزحفَ إليهم العسكر في شهر صفر من العام (١٠٣٨هـ)، الموافق لتشرين الأوّل (١٦٢٨م)، حتّى عيّنوا موضعاً قريباً مِن قلعتِه في نهر صالح، فساروا ليلاً إلى الموضع، وشرعوا في هدم بنائه، فهجمتْ عليهم عساكر ابن عليّان وأمراء الجزائر الموالين له، فقُتِل أكثر شجعانهم، وفُقِد جليل

(١) يُنظر: رحلة فيدريجي إلى العراق، في القرن السّادس عشر، ترجمة الأب بطرس حدّاد، مجلّة المورد، العدد الرابع، المجلّد (١٨)، ١٩٨٩م: ص١٦٦؛ ورحلة بالبي إلى العراق: ص٩٢ .

(٢) عبد علي بن ناصر الحويزي، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٥-٢٦.

فتيانهم، وفي تلك اللّيلة لم يجدْ ابنُ عليّان بدّاً من العمل، حتّى «اتّخذَ اللَّيل جملاً، وأخلى القلعة وفرّ»، ويؤكّد الحويزيُّ أنّ هذه الواقعة من الوقائع المشهورة في تلك الدّيار، وأنّها حدثتْ في شهر صفر من عام (١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م)[١].

ويبدو من خلال ماسبق أنّ ابنَ عليّان استعجل أمر العصيان من دون أنْ يستكملَ استعداداتِه العسكريّةَ لملاقاة (علي باشا)، وربّما خذله أُمراء الجزائر في تلك المعركة، لاسيّما أنّهم كانوا-وكما ذكرنا-«يحسدونَه بما هو عليه»، ولا يُستبعَدُ أنّه شَعَر وأحسَّ بخطرٍ مُحيقٍ سيُداهمه؛ لذا تطلّب منه ذلك اتّخاذ خطوات احترازيّة بالانسحاب من المعركة حِفاظاً على حياته.

لقد لجأ ابن عليّان بعد خسارته أمام جيش (علي باشا) إلى منطقة العرجاء[٢]، وحاكمها -يومئذٍ- (حسن آغا)، وكان ممّن ينحو نحو ابن عليّان وابن مانع، فاجتمع رأيهما في أنْ يقصد ابن عليّان (إمام قلي خان، ابن الله وردي خان) حاكم شيراز؛ مستنجداً به، ومحرِّكاً له على أخذ ضغائنه من البصرة، وعليه استرخص حاكم شيراز الشّاه (عبّاس الصّفويّ) في محاربة البصرة، ولا بدّ مِن التذكير هنا بأنّ بغداد كانت -يومئذٍ- تحت الحكم الصّفويّ[٣].

في عام (١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م) توجّه (إمام قلي خان) إلى البصرة، وعليه اضطرّ (علي باشا) إلى طلب المساعدة من قبائلها، في وقتٍ كُسِرتْ السُّدود التي تحفظ المدينة من الغرق، وغمرت أراضي الجزائر بالمياه؛ لتدعيم مواقفهم العسكريّة، إذْ كانوا على علمٍ

---

(١) يُنظر: تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٦-٢٧.

(٢) العرجاء: تقع على الجانب الغربي من نهر الفرات، وتبعد عن النّاصريّة باتجّاه السّماوة نحو ٤ كم. للمزيد، يُنظر: يعقوب سركيس، مباحث عراقيّة في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد، القسم الثاني، تقديم رفائيل بطي ومير بصري، بغداد ،١٩٥٥م: ص٣٧٤.

(٣) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٧.

بأنّ الصّفويّين ليس لديهم الخبرة الكافية في المواصلات المائيّة[١]، أمّا ابن عليّان، فقدْ رافق حاكم شيراز (إمام قلي خان) في توجّهه بعسكره إلى البصرة، وذكر الحويزيّ: أنّه «كان مشيرَهُ ومدبّرهُ في هذا السّفر»[٢]، إلا إنّ تلك الحملة قدْ انتهتْ بالانسحاب بعد وصول خبر وفاة الشّاه عبّاس الصّفويّ[٣]، في وقتٍ كان أهل الجزائر منقسمين في ولائهم بين ابن عليّان وعلي باشا أفراسياب[٤].

من المهمّ أنْ نشير في تلك الأثناء إلى أنّ (علي باشا أفراسياب) قدْ ولّى مناطق الجزائر إلى خاصّته من الرّجال، إذْ أبقى إمارة نهر عنتر لناصر الدّين بن هشام، و(الفتحيّة والْمَدَيْنَة) للأمير (زنبور)، فيما نصّب أخاه الأمير (أحمد أفراسياب) على منطقة نهر صالح والقلاع[٥] بعد أنْ فَقَد ابن عليّان سيطرته عليها، وعلى أيّة حال حدث في عام(١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م) فيضانٌ لنهري دجلة والفرات، وغرقتْ جميع أراضي الجزائر، فاعتقدَ أهلُها أنّ في مثل هذه السّنة لا يدرك منهم ثائر، ولم يستطع أحد الوصول إليهم، ففي جمادى الآخرة من السّنة المذكورة، استقدموا بكتبهم ابنَ عليّان ودعوه العودة إلى الجزائر، في وقتٍ كان كبار القوم في الجزائر على اتصال بالأمير (زنبور) من خلال سفرائهم؛ لاسترضائه ورفع الحيف عنهم، وأنْ يعطوا بعض أولادهم رهناً على الوفاء بشروط الخدمة، وأنْ يقطعوا على أنفسهم مالاً يؤدّونه في كلّ عام، وكان (علي باشا) قريباً من الرّضا عنهم في ذلك، لكنّه عندما عِلِم فيهم استقدامهم ابنَ عليّان رفض قبول ملتمساتهم، والرّضا بإقطاعاتهم ورهائنهم، وقرَّر حربهم، وأشار عليه النصحاء بالصُّلح معهم؛ وذلك لعسر

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣٢-١٣٣؛ ومحمّد هليل الجابريّ، موسوعة البصرة الحضاريّة: ص٢٠٦.

(٢) تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٧-٢٨.

(٣) يُنظر: فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٢٩.

(٤) يُنظر: عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٢٩.

(٥) القلاع: وتسمّى حاليّاً بـ(الجلع)، وتقع على الضّفّة الشماليّة لنهر الفرات مقابل نهر صالح.

ديار أهل الجزائر في مثل ذلك الوقت بسبب الفيضان، فأجاب (علي باشا) مستشاريه إلى ما سألوه بالقبول، ولكنّه اشترط نفي ابن عليّان، أوالقبض عليه وإرساله إليه، فلم يقبل أهلُ الجزائر تلك الشّروط، فسار من القرنة إليهم في اليوم السّابع من شهر رجب، ونزل في قلعة الفتحيّة، وأمر الأمير (زنبور)، والأمير (ناصر الدّين بن هشام)، والأمير (أحمد) بأنْ يتقدّموا بقوّاتهم لمحاربة ابن عليّان وأتباعه، فنزلُوا أرضاً يقال لها (طويسة)[١]، وبنَوا فيها معسكراً، فلمّا تسامَعَ بهم أهلُ الجزائر وأمراؤها الموالونَ لابن عليّان، جمعُوا جماعةً وساروا إليهم، واتّفق وصولهم ليلاً، فاشتعلتْ نار الحرب بين الطرفين، ويصفُ الحويزيّ الذي حضر تلك الواقعة، ما جرى بقوله:«مُلئت الأرضُ من مطر البنادق والسّهام، ولَبَستْ السّماءُ ثوباً من دخان البارود أثخنَ مِن برودِ الغمام»، ويذكر أنّه: بعد أنْ نفدتْ سهامهم وبنادقهم التحموا بالسّيوف، وكانتْ النتيجةُ انتصار عساكر (علي باشا) بعد أنْ أخرج السكّان ما أمكنهم إخراجُه من العيال والمال، وأُخليت القِلاع من سكّانها، وعسكر جيش (علي باشا) في مكانهم، ويذكر الحويزيّ: أنّ الجيش «باتُوا تلك اللّيلة في غنيمةٍ لم تُغنم من قبل في تلك الدّيار»[٢].

أمّا ابن عليّان، فكان في الطرف الآخر من الشطّ، فلمّا أحسَّ بما جرى في تلك الواقعة اضطرّ إلى الإنسحاب، وأصبح أهلُ الجزائر الذين في طرفه منقادينَ متضرّعينَ، فرَّ منهم مَن ظَنَّ أنّ الفرار يُنجيه، وبقيَ مَن ظَنَّ أنّ العفو سيشمله، فعبر العسكرُ عليهم، وأخذ القِلاعَ بأسرها منهم، وأخرجوهم مِن ديارهم، وكان المفتَتَح من تلك القلاع ما

(١) طويسة: وهي إحدى المواضع التابعة لقضاء (المْدَيْنَة)، تقع على الضّفّة الجنوبيّة لنهر الفرات، تبعد عن مركز القضاء باتجاه الجبايش نحوَ ١٢كم، فيما تبعد عن مقرّ آل عليّان في نهر صالح نحوَ ٤كم غرباً، ويُستدَلّ من ذلك على أنّ ابن عليّان عند عودته إلى الجزائر اتّخذ من منطقة الأهوار غرب (المْدَيْنَة) ملجأً له، لاسيّما بعد وقوع قلاع (المْدَيْنَة، والفتحيّة، ونهر عنتر، ونهر صالح) تحت السّيطرة المباشرة لحكومة البصرة.

(٢) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٣٤-٣٥.

يقرُبُ من أربعينَ قلعةً، فرتّب (علي باشا) عساكره مِن رجاله المخلصينَ، ورجع إلى البصرة عن طريق الشطّ، ويصفُ الحويزيّ، الذي كان في السّفينة مع (علي باشا)، ذلك اليوم، قائلاً: «فيالَك مِن يومٍ مليءٍ في البحر بجبالٍ من السُّفن، تسير سير السّحاب، وغربان على الماء كالأفيال على التراب، فإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، متتاليةً كأنّها قِطع غمام، أو الجبال والآكام، وإذا نظرتَ ثَمَّ نظرتَ مدائن تمشي على الماء، ومِن شرعها سماء تعاقب السّماء، وقد اختلطتْ أصوات الطبول بصدى الماء، فظننت أنّه نُفِخَ في الصُّور، وامتزجتْ ضوضاء العساكر، فحسبتَ أنّه يومُ النّشور، وقدْ دخل البصرة ظافراً منصوراً، فرِحاً مسروراً، وكان ذلك في شهر رجب من عام (١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م)»[١].

يتّضح مِن خلال ما ذكره الحويزيّ- وعلى الرُّغم ممّا فيه من إطراءٍ وخيالِ شاعر- أنّه يبيّن مدى حجم تلك الحملة وإمكاناتها، التي يبدو أنّ (علي باشا) أراد فيها قطع دابر ابن عليّان، إذْ ذكر الشّيخ فتح الله الكعبيّ عن هذا الشأن أنّ علي باشا «خَضَدَ شوكة سكّانها، الذين صار خضوعهم منذُ ذلك الحين مَضرباً للأمثال»[٢].

تبعاً لذلك، فقدت (الْمَدَيْنَة) أهمّيّتها بعد أنْ كانتْ مركزاً قياديّاً للثوّار[٣]، لاسيّما بعد أنْ احتوى (علي باشا) الجزائر عام (١٦٣٣م)، وحوّل اهتمامه إلى القُرنة، وجعلها مقرّاً عسكريّاً لعموم المنطقة، وأصبحتْ قَلعتا (المَدَيْنَة والفتحيّة)، وغيرهما من قِلاع الجزائر، بمنزلةِ نِقاط حراسةٍ تابعة لقوّات والي البصرة[٤].

يتّضح أنَّ (علي باشا) كان واعياً في التقليل من أهمّيّة (الْمَدَيْنَة)؛ لأنّها كانت على مدى

---

(١) عبد علي بن ناصر الحويزيّ، تأريخ الدّولة الأفراسيابيّة: ص٣٥.

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣٣.

(٣) يُنظر: محمّد هليل الجابريّ، موسوعة البصرة الحضاريّة: ص١٩٨.

(٤) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص٥٢-٥٤.

قرنين مثار قلقٍ للحكومات المتعاقبة؛ لذا نراه يزيد من أهمّيّة القُرنة؛ بوصفها مدينةً حربيّةً، وقلعةً حصينةً في أيّام حكمه، إذْ تجلّتْ تلك الأهمّيّة في جعلها المركز الطليعي لجيوشه، فعمل على إعادة مراكز الدّفاع فيها، فأتقن بناءها وجعلها قلعةً كبيرةً سمّيت نسبة إلى اسمه بـ (العليّة)[١].

يبدو أنَّ مناطق الجزائر وحافّاتها كانت في تلك المدّة أكثر استيطاناً من جنوب البصرة، ويدلُّ على ذلك ما أكّده الحويزيّ من أنّ (علي باشا) فتح أربعين قلعةً في حملته الأخيرة على ابن عليّان، ما يُعطي تصوّراً عن مستوى الكثافة السكّانيّة في المنطقة، وعلى الرُّغم من عدم توافر الإحصاءات عن أعداد السكّان في المنطقة –حينذاك– فليس من المستبعد أنْ يكونَ الاستيطان فيها كبيراً نسبيّاً، ويتّضح ذلك من الحملات العسكريّة العثمانيّة الكبيرة، وكذلك حملات (علي باشا) التي جُهّزتْ لقمع ثوراتهم[٢]، ويؤكّد ذلك ما ذكره (لونكريك) من أنَّ منطقة نهر عنتر والمناطق القريبة منه من أكثر المناطق سكّاناً وأثبتها من بين ما يقارب مجموعة من مجموعات المنازل العشائريّة المماثلة لها[٣]، وكذلك ذكر فتح الله الكعبيّ أنّ نهر عنتر هو أكبر مواضع الجزائر، وقيل إنّه مشتملٌ على ثلاثمائة نهر[٤]، وربّما تُعطيه هذه الخاصيّة صفةَ أنْ يكونَ أرضاً زراعيّةً خِصبة ساعدتْ على استيطان أعدادٍ كبيرةٍ من السكّان فيه.

لقدْ اتّخذ الاستيطان في هذه المنطقة شكلاً قبليّاً، إذْ بقيت المنطقة مقسّمة بين تلك القبائل في العهد العثماني، وكان لكلّ قبيلة ديرتها ومساكنها الخاصّة بها[٥]، في وقتٍ

(١) يُنظر: عبد الحسين جواد السريح، الإقليم الوظيفي في القرنة: ص٢١٤.
(٢) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٠٣-١٠٤.
(٣) يُنظر: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣.
(٤) يُنظر: زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٣٨.
(٥) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٠٦.

هاجرت جماعاتٌ من منطقة (الْمَدَيْنَة) إلى مركز ولاية البصرة، وأنشأت محلّةً باسمهم سُمّيتْ محلّة (السِّيمر)، إذْ كانت تسمّى منطقة (الْمَدَيْنَة) بلاد السّيامر(الصّيامر)، على وفقِ ما جاء في سجلّات أوقاف أُسرة باش أعيان لسنة (١٦١٧-١٦١٨م)[١].

لفهم التبدّلات التي طرأت على الخريطة القبليّة للمنطقة خلال القرن السّابع عشر الميلاديّ؛ وانطلاقاً من اعتقادنا بأنّ هناك تفاعلاً بين الجزئي والكلّي في سير الأحداث، فقد استعنّا بالكلّي لفهم الجزئيّ، آخذينَ بالنّظر طبيعة المنطقة وخصوصيّتها، وبذلك يمكن أنْ نستعينَ بعموم وصف (لونكريك) وتفسيراته في هذا المضمار، إذْ ذكر: «لقدْ حدث عدد عظيم من التبدّلات في ديار القبائل وتجمّعها أو تفرّعها، وفي تشتّتها واندماجها، ممّا أدّى إلى تعديل الخارطة القبليّة، فكم من فقراء أو مجازفين قدْ التفّوا حول سيّدٍ أو صبيٍّ من أبناء الرؤساء، فكوّنوا قبيلةً تسمّى باسمهم، وربّما زادتْ في عددِ خيام هذه القبيلة الأحوال أو الحرب، وعقد الصّلح، أو قوّة الشخصيّة، أو كلّ هذه العوامل، فأدّت لتوسيع القبيلة وانقسامها إلى أقسام، ينتمي كلٌّ منها إلى ولدٍ أو أخٍ من أبناء المؤسّس الأوّل أو إخوته، وقد تتدخّل الأساطير لتؤكّد الأصل، أو تقوم الفتن والأحقاد، فتولّد عداوات ومحالفات جديدة، وكانت المراعي الجديدة والمجاري المتغيّرة وضغط المجاورين، كلّها من العوامل المؤدّية إلى النزوح والهجرة، التي لم تكن عواقبها لتستقرّ وتكمن؛ ولذلك فقدْ يجري في موضع حلف يضمُّ عناصر مختلفة من الحضر والبادية والأراضي المزروعة، وقدْ يفرق في موضع آخر انفصال طويل، أو تصادم الشخصيّات بين الفروع التي تمتُّ إلى أصلٍ واحدٍ واسم واحدٍ، وقدْ تحمل اسم قحطان العظيم، أو تميم، جماعة من الرّعاة، أو قدْ تتكوّن قبيلة قوامها عشرة آلاف خيمة من وحدة كانت تتألّف بالأمس من قبائل عدّة، وما كانت تمرُّ سنة دون أنْ يتعدّل

(١) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص٣٤٤-٣٤٥.

خلالها انتشار القبائل أو تجمهرها، ومع ذلك كانت القبائل كلُّها غير مختلفة بجوهرها ومصالحها وعقليّتها»[١].

على صعيدٍ آخر، وبعد سيطرة العثمانيّين على بغداد وطرد الصّفويّين منها عام (١٦٣٨م)، ظلّت العلاقة بين آل أفراسياب والدولة العثمانيّة جيّدة؛ لأنّ مفتاح السّياسة العثمانيّة حيال آل أفراسياب يقوم على معاملتهم معاملةً حسنةً، على الرُّغم من وقوع بعض الأحداث الطارئة، ويرجع ذلك إلى أنّ مدينة البصرة النائية عن العاصمة العثمانيّة (اسطنبول) تقع تحت التهديد الصّفويّ بشكلٍ متواصلٍ، وقدْ استطاع (علي باشا) المحافظة عليها من ذلك الخطر، فكان ذلك تقديراً لكفاءته وحسن إدارته، إلا إنّ بعض الأحداث الطارئة أخذتْ تشقُّ طريقها بالتأثير على تلك العلاقات، ومنها محاولة (علي باشا) التوسّع على حساب أراضي المنتفق[٢]، إذْ قام الأخير في عام (١٦٣٩م) بالاستيلاء على قلعة الزكيّة[٣]، التي تقع بين إمارة المنتفق والبصرة، الأمرُ الذي أدّى إلى إثارة العثمانيّين، الذين جهّزوا في السّنةِ ذاتها حملةً عسكريّةً بالتعاون مع المنتفق، وأنزلوا الهزيمة بحكومة آل أفراسياب، وتمكّنوا من إرجاعهم إلى البصرة[٤].

الصّراعُ العثمانيُّ- الأفراسيابيُّ وأثرُه في منطقة الجزائر

بقيت الدّولة العثمانيّة تنتظر الفرصة المناسبة لإعادة سلطتها المباشرة على البصرة، وقدْ وَجَدَتْ تلك الفرصة بعد وفاة (علي أفراسياب) سنة (١٦٤٧م)، وتولّي ابنَه (حسين

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٠١.

(٢) يُنظر: طارق نافع الحمداني، العلاقة بين أفراسياب والدولة العثمانيّة، مجلّة الخليج العربي، المجلّد السّادس عشر، البصرة، العدد الأوّل، ١٩٨٤م: ص١٠٣.

(٣) قلعة الزكيّة: قلعة جامعة بين البصرة وميسان، وتسمّى اليوم بالزجيّة، وهي الآن قرية صغيرة بالقرب من منطقة العزير. يُنظر: علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني: ص١٢٧.

(٤) يُنظر: نظمي زادة، كلشن خلفا: ص٢٣٦-٢٣٧؛ وعبد الأمير الرفيعي، العراق بين سقوط الدولة العبّاسيّة وسقوط الدولة العثمانيّة، بغداد، ٢٠٠٥م: ج٢، ص١٣٦.

باشا) الإمارةَ، الذي استبدّ بالأمور وأساء السّيرة والتدبير وظَلَمَ النّاس[١]؛ ونتيجةً لذلك الظلم أنكر النّاس عليه ذلك، إذْ «أغروا عليه عمَّيْه أحمد آغا وفتحي بك، وَلَدَي أفراسياب، فخرجا إلى السُّلطان العثماني في بغداد وتشكّيا منه»[٢]، فضلًا عن ذلك، فإنّ (حسين باشا) لم يتّصفْ بصفات الكياسة التي كان يتّصف بها والده (علي باشا)، والتي كانت تحبّبه إلى النّاس، فسبّب له عنفُه وجورُه وجودَ كثير من الأعداء، وبتساهله مع التجّار الأجانب، والأقليّات النصرانيّة الضّعيفة، نفّر أبناء بلده منه، وإنّ (حسين باشا) ازدرى باشا بغداد العثماني وبدأ يجمعُ الكودة[٣] عن أغنام وجاموس القبائل المعترَف بتبعيَّتها لبغداد، كما أبقى موظّفيه في أوسع قراها[٤].

وفي عهد (حسين باشا) كانت رسوم الكمرك النهريّة تُجبى على الحدود من القرنة عن طريق النهر، وكذلك في الميناء، وكان القضاة يُعيَّنونَ من قبله وليس من اسطنبول، وحكم (حسين باشا) في هذه الأحوال المواتية مدّة أربع سنوات، إلّا إنّ أفعاله التعسّفيّة في الداخل جلبتْ له المشكلات والقلاقل الخارجيّة خلال السّنوات اللّاحقة من حكمه، وكانت تلك الأفعال قدْ انسجمتْ مع طموحات العثمانيّينَ، الذين كانوا يرغبونَ في إعادة سلطتهم في البصرة، فاتّخذوا من خلافه مع عمَّيْه سبباً للتدخّل، إذْ فرَّ عمّاه (أحمد بگ)، و(فتحي بگ) إلى اسطنبول، وحصلا مِن هناك على فرمانينِ بتعيينهما على سنجقين من سناجق البصرة، في حين رفض (حسين باشا) الانصياع لأمر السُّلطان[٥]،

---

(١) يُنظر: علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة: ص١٣٠ .

(٢) يُنظر: فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٢٩.

(٣) الكودة: وهي ضريبةٌ تفرض على أصحاب الأغنام والأبقار والجمال. يُنظر: باقر أمين الورد، من أحداث بغداد في نهاية العهد العثماني، جريدة المدى، العدد (٢٥٧٣)، بغداد، الاثنين ٢٧ آب ٢٠١٢.

(٤) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣٩.

(٥) يُنظر: المصدر نفسه: ص١٤٠.

فانتصر لهم (مرتضى باشا) حاكم بغداد عام (١٦٥٣م)، فوصل بجنوده إلى البصرة[١].

وقفتْ قبائل الجزائر مِن حملة (مرتضى باشا) على (حسين باشا أفراسياب) موقفَ المناصر للجيش العثمانيّ؛ لكونه جاء ليُنقذها من حاكمٍ قويٍّ كان يحكمها، فاعتمد في النقليّات والتجهيزات والأدلّة والجواسيس على أهل الجزائر، وسقطتْ القرنة من دون أنْ تُضرَب، وفرَّ (حسين باشا) إلى ملتجأ في عربستان، ودخل (مرتضى باشا) البصرة، وجعل (أحمد آغا) حاكماً فيها[٢]، «فلما رأى مرتضى باشا البصرة أعجبتْه، فقَتَل أحمد آغا وأخاه فتحي بگ، وحكم هو في البلاد، فلمّا رأوا أهل البصرة ذلك من فعله تنكّروا منه، فتحالفُوا مع أهل الجزائر، وعصوا مرتضى باشا، وقتلوا عمّاله في كلِّ مكان»[٣]، إذْ أحدث مقتل (أحمد بگ)، و(فتحي بگ) فُوضى عارمةً في البصرة، فهبّتْ المدينة والعشائر من هدوئها وولائها، وهاجمتْ ثائرةً لحادث الإعدام، وثارتْ قبائل الجزائر، فهاجمتْ القُرنة، وقام (مرتضى باشا) بإرسال الإمدادات إلى هناك من البصرة، وكانتْ المناوشات غير المنظّمة التي وقعت في الأهوار وبساتين النخيل تدلُّ على أنّ ثبات القبائل أكثر من ثبات جيش الباشا، وتكبَّدتْ الأفواج التي قدمتْ لنجدته من بغداد أفدح الخسائر، وتراجعتْ سريّةً بعد أخرى، ووجد (مرتضى باشا) نفسه غير قادرٍ على حفظ مركزه في البصرة، فتركها فُجأةً إلى بغداد، بعد مروره على مناطق العشائر التي أصبحت معاديةً له بشدّة[٤].

على أثر إنسحاب (مرتضى باشا) من البصرة عام (١٦٥٤م)، أرسل أهلُها إلى الأمير الهارب (حسين باشا) يطلبونَ قدومه، فأقبل في العام ذاته، ودخل المدينة، إذْ كتب إلى

---

(١) يُنظر: جاسم حسن شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص١٠٩.

(٢) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٤١.

(٣) فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر: ص٢٩-٣٠.

(٤) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣٩.

السُّلطان العثمانيّ (محمّد الرابع) يطلبُ عفوه، ويرجو توجيه الإمارة إليه، فصدر منشور السُّلطان بتوجيه إمارة البصرة إلى (حسين باشا)[١].

إلّا إنّ (حسين باشا) -وبعد تولّيه البصرة- جهّز عام (١٦٦٤م) جيشاً لمهاجمة الأحساء وطرد متصرّفها (محمّد باشا)، وبادر بالظُّلم، وصادر أموال التجّار والأهالي بغير الحقّ، وتجاسر على قتل الفقراء ظلماً وعدواناً، ما أثار غضب السُّلطان العثماني عليه، لاسيّما بعد وصول والي الأحساء (محمّد باشا) إلى اسطنبول شاكياً تلك الأفعال[٢]، فأمر السُّلطان العثمانيّ عام(١٦٦٥م) والي بغداد (إبراهيم باشا) بتجهيز حملةٍ ضدّ (حسين باشا)، وسار الوالي المذكور بجيشٍ كبيرٍ قاصداً البصرة[٣].

وقدْ انضمّ إلى حملة (إبراهيم باشا) ما يربو على الخمسين ألفَ جنديٍّ، شارك فيها كلٌّ من جيوش والي ديار بكر، ووالي حلب، ووالي شهرزور الوزير (كنعان باشا الكرجي)، ووالي الموصل (إبراهيم باشا الكرجي)، وغيرهم من الأمراء بمَن معهم من جيوش، إذْ استكملوا العدّة والعدد في بغداد، ثمّ توجّهوا نحو البصرة، ولما علم (حسين باشا) بالأمر سار إلى القرنة مسرعاً، ينتظرما سيجري، وقد أمضى مدّةً يترقّب الأخبار، ولم يدع الفرصة، بل أرسل إلى شيوخ العشائر كتباً يدعوهم إلى المؤازرة، فجاء بعضهم وتخلّفَ آخرون[٤].

وتشير المصادر إلى أنّ الجيش العثمانيّ قدْ جاء لمواجهة (حسين باشا) عن طريق العرجا[٥]، سالكاً طريق نهر الفرات باتجاه القرنة، لمواجهة جيش (حسين باشا)، الذي

(١) يُنظر: علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة: ص١٣٢.

(٢) يُنظر: فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٣٠-٣١؛ وابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها: ص٥٨.

(٣) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٣٩.

(٤) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٥، ص٩١.

(٥) العرجا: وهي من المدن المندرسة الآن، تُرى خرائبها اليوم على الضِّفّة اليمنى لنهر الفرات في

كان يتمركز في الفتحيّة، فلمّا وصلوا وجدوا (حسين باشا) قدْ غادرها متوجّهاً إلى القرنة، وكان يتوجّس خيفةً من أنْ يقع في قبضة العثمانيّين، لكنّ ذلك قدْ تبدّد بعد أنْ تجمّعتْ حوله جموعٌ كبيرةٌ من أهل الجزائر، وهكذا استعدّ للقتال، فجاءه (إبراهيم باشا) بعسكرٍ عظيمٍ إلى القرنة فحاصرها[١].

وقدْ أرّخ ذلك الحدث (ياسين بن أحمد الشِّهابيّ البصريّ)[٢]-كان حيّاً في عام (١٠٨٦هـ) في أرجوزته التي جاء فيها:

وبعدُ لما جاءَه النـــــداءُ ... إنّهُمُ حوتْهُـمُ (العرجـــاءُ)
جمّع عند ذلكَ الأعرابـــا ... وشجّع الجيوش والأحزابـا
فساقهم من بعدِ ذا للرّملـــة ... وفيهمُ يحيى أميرُ الحملـــة
فأقبلتْ عساكرُ الإســـلامِ ... ليُنقذوا الخلقَ من الظـــلامِ
فشمّروا عن ساعد الجدّ ولمْ ... تُرْهِبُهُ كثرةُ هذه الأُمـــمْ
فاقتتلوا بالرَّمي للمدافـــعِ ... فرميهم للرُّومِ[٣] غيُر نافـعِ

نقطة تقع على مسافة ميلٍ واحدٍ من مقدم مدينة الناصريّة، وهي من مدن العراق القديمة، ورد ذكرها في كثير من أقوال المؤرّخين والسّياح الأجانب. للمزيد، يُنظر: صموئيل إيفرز، رحلة صموئيل إيفرز من البصرة إلى البحر المتوسّط سنة(١٧٧٩م)، ترجمة وتعليق أنيس عبد الخالق محمود، ط١، بيروت، ٢٠١٣م: ص٣٠.

(١) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٥، ص٩٣-١٠٠.

(٢) إنّ صاحب الأرجوزة كان متحاملًا على أهل الجزائر الذين كانوا ناقمين على العثمانيّين؛ لذا نرى الشِّهابيّ الموالي للعثمانيّين يصفهم في أرجوزته بصفاتٍ ليستْ فيهم، إذْ يقول:

المارقينَ الجاحدينَ الأغبيا ... أهلُ الجزاير البغاة الأشقيا.

يُنظر: ياسين بن حمزة بن أحمد الشِّهابيّ البصريّ، أُرجوزة في تاريخ البصرة (واقعة حسين باشا بن أفراسياب في البصرة المحميّة)، تحقيق د.فاخر جبر مطر، بغداد، ١٩٩٠م: ص٧٩.

(٣) يقصد بالرُّوم هنا العثمانيّين، فقد أَطلق المسلمونَ بداية اسم دولة الرُّوم على الدّولة البيزنطيّة، وعلى الأناضول اسم بلاد الرُّوم، وعلى الدّولة العثمانيّة لدى ظهورها اسم (سلطنة الرُّوم). يُنظر: أحمد

فانكسروا قبل طلوعِ الشّمسِ ... وما لهم بينَ الورى مِن حسِّ
فاستولتْ الرُّومُ على الذّخيرة ... وهي على ماقرَّروا كثيـرة
وبعدما فرّوا من الأذيـّة ... رأواحسيناًخارج الفتحيـّة
مَعْ نبذةٍ من أشقياءِ عسكـرِه ... يُظهر فيها قوّةً بمنكـــره
فردّ من مكانه للقُرنـــة ... معْ جندِه المكسورأهل الفتنة
فجاءه أهلُ الجزائر الغُـدُر ... مَن لم يؤثّر أبداً فيهم نـُذُر
ينتدبونَ بالبكا فغـــرَّهْ ... مقالُهم حتّى يكونَ عِبـــرَه
ثمَّ استعدَّ للقتالِ واستقـــرْ ... لكي يؤول بعده إلى سَقَـــرْ
فجاء للقُرنةِ ابراهيـــمُ ... بعسكرٍ سلطانُهُ عظيـــمُ
ولم يجِيءْ بسرعةٍ ولو أتى ... فوراً إلى قُرنتِه ما ثَبتـــا
فحاصروها فوق شهرين فلَمْ ... يحووا سوى الخيبة منها والألمْ[1]

وقدْ طالت أيّام الحصار في القرنة، وتمكّن حاكم البصرة والقبائل المتحالفة معه من صدِّ قوّات (إبراهيم باشا) عنهم، ولم تستطعْ القوّات الانكشاريّة التي وصلت من بغداد، تحسينَ الحالة الحرجة للقوّات العثمانيّة، إذْ لم تنفكَّ المقاومة، ولم تنفع هجمات (إبراهيم باشا) وتفوّقه في العدد، ولا إغراءاته، بل حُوصِرتْ قوّاتُه محاصرةً نصفيّةً من جانب قوّات المقاومة المؤلّفة من عشائر الأهوار، الذين ظلُّوا (يُزعجون) الخطوط الحربيّة بلا هوادة، فقلّتْ التجهيزات، وأدّتْ أشهرٌ من الخيبة إلى هبوط الرُّوح المعنويّة للجيش، وقدْ انتهى ذلك بعقد اتفاق الصُّلْح، فنُظّمتْ الشّروط بسهولة، وكان مُفادها أنْ تبقى حكومة البصرة بيد أُسرة آل أفراسياب، على أنْ تُنقل من (حسين) إلى ابنه (أفراسياب)، وعلى أنْ ينسحب (حسين باشا) إلى مكّة، وأرضى هذا الاعترافُ التامُّ من قبل الأتراك

عبد الرّحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني: ص٢٨.

(١) ياسين بن حمزة بن أحمد الشهابي البصريّ، أُرجوزة في تاريخ البصرة: ص٤٥-٤٧.

(حسين باشا) حقَّ الإرضاء، وتراجعت جيوش (إبراهيم باشا) إلى بغداد[١].

دخل (حسين باشا) في البصرة -من أجل تثبيت حكم ابنه (أفراسياب)- بصراعٍ مع وجهاء البصرة، الذين أرسلوا إلى السُّلطان (محمّد الرّابع) سفارةً خاصّةً تحمل عريضة ضمّنوها تفصيلَ جميعِ ما ارتكبه (حسين باشا) من تعسّفٍ وتجاوزاتٍ ضدّهم، وردّاً على ذلك أرسل (حسين باشا) من جانبه ابن عمّه (يحيى آغا) إلى السُّلطان ليدافع عنه، ولكنّ الأخير اتّفق مع وفد الوجهاء لدى السُّلطان الذين رشّحوه لولاية البصرة، وبناءً على طلب الصّدر الأعظم (أحمد باشا كوبرلو)(١٦٦١-١٦٦٧م) جهّز والي بغداد (مرتضى باشا) قوّاتٍ كبيرةً من الرّقّة، والموصل، وديار بكر، وشهرزور، كالسّابق، وسيّرها ضدّ (حسين باشا)[٢].

تحرّك (مصطفى باشا) بجيشه في الرّابع والعشرين من تشرين الثاني (١٦٦٧م/ ١٠٧٨هـ) باتجاه الفرات، وقدْ وقفتْ جيوشُه في منطقة العرجا، وانضمّتْ إليه في منطقة كوت معمر [قرية بين النّاصريّة وسوق الشّيوخ على ساحل نهر الفرات] ثلّةٌ قويّةٌ من المنتفقيّين[٣]، ولما سمع (حسين باشا) بتقدّم جيوش العثمانيّين جمع جيوشه، وحصّن حصونَه، وخندق الخنادق، واستعمل الحزم، وأمر بإخلاء الدّيار، وذلك في غرّة شهر جمادى الآخرة، وبعد أنْ أخلى البصرة من أهلها أمر باقي البلاد بالارتحال، ومنهم أهل الجزائر، ويذكر الكعبيّ: «أمر بأنْ يُنادي المنادي في الحاضر والبادي: ألا مَن أنذر فقدْ أعذر، ومَن بَصّر فما قَصّر، ومَن قامَ إلى ثالثِ يومٍ فمالُهُ ورأسُهُ للعسكر»[٤].

وذكر السيّد نعمة الله الجزائريّ -الذي كان حينها في منطقة نهر صالح- أنَّ أوامر

---

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٤٤-١٤٥.

(٢) يُنظر: ألكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها: ص٣٨٤.

(٣) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٤٦.

(٤) فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر: ص٣١، وتُنظر: ص٣٢و٣٣.

(حسين باشا) جاءت بإخلاء سكّان الجزائر إلى منطقة (سحاب) [موضع في الجانب الشرقيّ من شطّ العرب، ومنه يُنتقَل إلى الحويزة، وهو قريبٌ من القُرنة]، ووضع عسكره في قلعة القرنة[١].

يبدو أنّ الغاية من إجراء (حسين باشا) بإخلاء المناطق كان لإفراغ المناطق من كلِّ ما يُمكن أنْ يستفيد منه الأعداء عند دخولهم الدّيار.

في غضون ذلك، كانت القوّات العثمانيّة تواصل تقدّمها نحو البصرة عن طريق الفرات، في حين كانت قوّات عثمانيّة أخرى تتقدّم باتجاه القُرنة بمحاذاة نهر دجلة، وقدْ بدأت أولى المعارك في منطقة ديار بني أسد -الجبايش حاليّاً- إذْ انتصر فيها الجيشُ العثمانيُّ وواصل تقدّمه مارّاً بمنطقة (الْمَدَيْنَة)، حتّى وصوله في الثالث عشر من شعبان(١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م) إلى منطقة الشّرِش مقابل القُرنة، وهناك نصبوا الجسر فعبروا إلى القُرنة، ونصب الوزير العثماني مدافعه باتجاه قلعة (العليّة)، فأمطرها بوابل من القنابل[٢]، ودارت معركة طاحنة انتهتْ بانهزام (حسين باشا) وجنوده، ودخل العثمانيّون القُرنة، وكان ذلك في الحادي عشر من شهر رمضان من العام ذاته، وقد ذكر الكعبيُّ أنّ عددَ القتلى في المعركة بلغ أربعة آلاف مقاتلٍ، ويصف الكعبيُّ حال أهل الجزائر أثناء ذلك، فيقول: «أهل الجزائر ملؤوا الفلا بلا ولا، وما ظننّا أنّهم عرجوا من نزول البلاء بالبشر، بل قلنا إنّهم خرجوا من الأجداث كالجرادِ المنتشر، وتبدّلتْ الأرضُ غيرَ الأرض»، ويذكر أنّهم توجّهوا مشياً إلى الحويزة، ويصف حالة النزوح التي شاهدها، فيذكر: «فكم حاملٍ ألقتْ ما في بطنها وتخلّت، وذاتِ ولدٍ ما في حضنها وتولّت، وذي زوجةٍ أنكرها ومضى، وذي أبٍ تركه على الرّمضاء، والكلُّ يُريد النّجاة بنفسه، وأنْ لا يكونَ يومُه كأمسِه، فكم طفلٍ مات، وكهلٍ فات ... ولم نزل كذلك ما بين سالكٍ وهالكٍ حتّى قدمنا على ما قدمنا

(١) يُنظر: نعمة الله الجزائريّ، الأنوار النعمانيّة، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م: ج٤، ص٢١٩.
(٢) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٥، ص١٠٨.

إلى الحويزة، بعد فقدانِ الجُلِّ ومعظم الكُلِّ، خالينَ من الطارف والتلاد، ومتخلِّينَ من النّساء والأولاد، فيا الله ما أعظمها مصيبة، وأفعمها عجيبة»[١].

أمّا السيّد نعمة الله الجزائريّ، فذكر رحيل أهل الجزائر إلى الحويزة بعد هزيمة (حسين باشا أفراسياب) وهروبه إلى الدّورق في ليلة الحادي عشر من رمضان، إذْ قال: «فبلغ الخبر أهل الجزائر طلوع فجر يوم الجمعة، ففرّتْ النّساء والرّجال والأطفال والشيوخ والعميان، وكلُّ مَن كان في ذلك الإقليم، طالبين الحويزة، وبينهم وبيننا مسيرة ثلاثة أيّام، لكنّها مفازة لا فيها ماءٌ ولا كلأٌ، بل أرضٌ يابسةٌ، فمات من أهل الجزائر في تلك المفازة عطشاً وجوعاً وخوفاً ما لا يُحصي عددَهم إلّا اللهُ تعالى، وكذلك العسكر الذي في القُرنة قتل عدداً كبيراً»[٢]، ويصفُ السيّد الجزائريّ هولَ ذلك اليوم، بقوله: «إنّ مَن شاهدَ تلك الواقعة عَرَفَ أهوالَ يومِ القيامة»[٣]، وقدْ وقفَ سلطان الحويزة السيّد (علي خان المشعشعيّ) لمساعدتهم (أهل الجزائر)، وأرسل عساكره لاستقبالهم، وأحضر لهم الماء والطّعام[٤].

وفي تلك الواقعة قال الشّاعر (ابن شهاب الدّين الموسويّ)، مادحاً السيّد(علي خان المشعشعيّ) لموقفه، إذْ يقول:

لولا إيابك للجزائر ما صفتْ ... منهـا مشارعُ مائها المتكـدِّرِ

وكَسَوْتَها حُلَل الأمانِ وإنّهـا ... لولاكَ أضحتْ عورةً لم تُستَرِ[٥]

وبعد أنْ فَرَضَ العثمانيّون سيطرتهم على البصرة، بدأ النّاسُ بالعودة إلى ديارهم[٦]،

(١) فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٤٨-٥٠.

(٢) نعمة الله الجزائريّ، الأنوار النعمانيّة: ج٤، ص٢١٩.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) يُنظر: المصدر نفسه.

(٥) جاسم حسن شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص١٣٧.

(٦) يُنظر: فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٦٠.

وقدْ صوّر الكعبيّ واصفاً حال أهل الجزائر بعد عودتهم إلى مواطنهم، قائلاً: «فإذا أنا بجماعةٍ جمّةٍ، وأمّةٍ من النّاس أيّ أمّة، أُولي وجوهٍ مصفَرّةٍ وأحوالٍ مغبرّةٍ، وقدْ خامرهم العنا، وعلاهم الفنا، فسألتُ ما لهؤلاء الجماعة، فقيل: ما بهم من الدّاء إلّا داء المجاعة، ... فاستفهمتُهم مِن أيِّ العشائر، فقيل لي: من أهل الجزائر، فالتَاعَ لهم قلبي، وارتَاعَ لهم لُبِّي»[١].

ويُضيفُ الكعبيُّ الذي عاصر تلك الأحداث عن حال الجزائر في تلك المدّة، قائلاً: «واقعة البصرة أرتْنَا كلَّ عجيبةٍ، وأتتْنا بكلِّ غريبةٍ، حتّى أنّ الأمرَ الغريبَ لا يُستغرب، وما بقي لمتعجِّبٍ متعجَّب، فمما رأيناه وشاهدناه... من العجائب رجلٌ يقال له هجول الدَّلال، كان أوّلاً وزّاناً في سوق الطّعام، ثمّ ترقّى إلى خدمة الدّلالينَ، ثمّ صار دلّالاً، ثمّ ما غير قليل من الزّمان حتّى حَكَمَ أهلَ الجزائر»[٢].

يبدو أنّ التقلّبات السّياسيّة التي حدثتْ في المنطقة بعد سقوط حكم آل أفراسياب أدّت بدورها إلى حدوث تغيّراتٍ في الواقع الاجتماعي، وسمحتْ بصعود زعاماتٍ اجتماعيّةٍ وقَبَلِيّةٍ لا تمتلك إرثاً سياسيّاً واجتماعيّاً بارزاً، ويمكن أنْ يُعزى ذلك نتيجة لحدوث فراغٍ قياديٍّ بعد هروب الزّعامات القبليّة والاجتماعيّة التقليديّة في الجزائر إثرَعمليّة النزوح الجماعيّ، وعدم عودتها إلى ديارها؛ خوفاً من بطش العثمانيّينَ، لاسيّما أنّ أغلب تلك الزّعامات قدْ أسهمتْ في حرب المقاومة الطويلة ضدَّ العثمانيّينَ منذ دخولهم البصرة، ومِن المحتمل أنْ يكون العثمانيّونَ قدْ لجاؤا بعد فرض سلطتهم العسكريّة على الجزائر، وكسر شوكة أهلها، وخراب ديارهم، إلى انتهاج سياسةٍ قائمةٍ على استبدال الزعامات التقليديّة السّابقة أو تهميشها، وخلق طبقة اجتماعيّة جديدة ترتبط مصالحها بالسُّلطة العثمانيّة، لاسيّما إذا ما عرفنا أنّ نظام الالتزام الذي أُدخل منذ عهد السُّلطان

(١) فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر، ولهنة المقيم والحاضر: ص٦٢.
(٢) المصدر السابق: ص٣٢.

سليمان القانوني لحلّ مشاكل نظام الإقطاع العسكريّ قدْ بَلَغَ أوج تطوّرِهِ في تلك المدّة، عندما منحت الدولة الملتزمين حقّ الالتزام مدى الحياة، وكان من نتائج هذا الأسلوب إيجاد طبقة بين الدّولة والأهالي تتولّى جمع الضّرائب والرُّسوم، وعدم قيام الولاة أنفسهم بهذه المهمّة، لاسيّما في المناطق ذات البيئة القبليّة مثل الجزائر[١].

تُظهر النصوص التي دوّنها الرّحّالة الفرنسيّ الأب (بارثيلمي كاريه) حول مشاهداته في منطقة الجزائر عند مروره فيها عام (١٦٧٤م) خضوعَ (المْدَيْنَة) لسُلطة العثمانيّينَ، إذْ وصف عند نزوله الفتحيّة في الثلاثين من نيسان من العام المذكور أحوالها، قائلاً: «تكثر فيها البساتين والأشجار المثمرة، وفيها (أغا تركي) وبعض الإنكشاريّة، كانوا يجمعونَ ضرائب والي البصرة، وقدْ عاملوني بكثيرٍ من اللُّطف خلال السّاعات القليلة التي قضيتُها»[٢]، كما ذكر في وصفه منطقة نهر صالح، التي زارها في يوم الثلاثاء المصادف الأوّل من مايس من العام ذاته، قائلاً: «في نحو السّاعة العاشرة صباحاً... غادرنا النهر[الفرات]، ودخلنا قناةً صغيرةً أخذتنا إلى (نهر صالح)، وهناك نزلتُ مع بعض رفاقي الأتراك[العثمانيّين]، وقمنا بزيارة البلدة التي تقع وسط الأهوار، التي تكاد تكون مغطّاة بالأشجار من جميع الجهات، وأرضها خصبة، ...والمدينة مبنيّة بشكلٍ غير منتظم، باستثناء البازارات [الأسواق] الطويلة، أمّا مساكنها، فهي على شكل مجموعات صغيرة بسبب العدد الكبير من القنوات الصّغيرة التي تشطر المكان، والسكّان كلُّهم من العرب، ومنهم بعض التجّار الذين يتاجرون في الورش المحلّيّة»[٣]، ويتبين من خلال تلك النصوص عودة الحياة إلى تلك المناطق بعد الخراب الذي أصابها؛ إثر الحملة

---

(١) للمزيد عن تطوّر النظام الاقتصادي في الدولة العثمانيّة، يُنظر: إبراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثمانيّ ١٥١٦-١٩١٦م، الموصل، ١٩٨٦م: ص٨١-٨٦ .

(٢) بارثيلمي كاريه، رحلات الأب بارثيلمي كاريه: ص٢٦٢، و ص٢٦٣-٢٦٤.

(٣) بارثيلمي كاريه، المصدر السّابق : ص٢٦٣-٢٦٤.

العثمانيّة الأخيرة، وإجمالاً فإنّ تلك المشاهدات تؤكّدُ عودة النشاط الزراعيّ والتجاريّ والصّناعة المحلّيّة للمنطقة، لاسيّما مع وجود البساتين المثمرة، والأسواق الطويلة المنظّمة، والوِرَش المحلّيّة.

ثانياً: سيطرةُ المنتفق على الجزائر

إنّ الظروف التي تعرّضتْ لها منطقة الجزائر بعد القضاء على إمارتي ربيعة وآل عليّان، فضلاً عن (الخراب) المادّي والمعنوي الذي لحقها جرّاء الحملات العثمانيّة الأخيرة، التي انتهتْ بهروب (حسين باشا) إلى الهند، أفقدتْ أهلَ الجزائر سطوتهم وتأثيرهم السّابق، وأصبحتْ ديارهم مطمعاً للقوى القبليّة المجاورة، لاسيّما قبائل المنتفق، وبعد سقوط الإمارة الأفراسيابيّة وسيطرة العثمانيّين على البصرة[١]، أخذتْ سطوة المنتفكيّين بزعامة (مانع بن مغامس) بالتعاظم بعد أُفول قوّة آل أفراسياب، التي كانت تهدّدهم من جهة الشرق، وقدْ استغلَّ المنتفكيّون ذلك لتوسيع سلطتهم باتجاه البصرة ومناطقها، وفي عام (١٦٩٠م) أصبحتْ الفرصة مناسبةً لتحقيق هدفهم بعد عجز ولاية بغداد عن حلّ مشاكلها، وتردّي أوضاعها الماليّة والإداريّة والأمنيّة، فضلاً عن تعرّض ولاية البصرة في ذلك العام لوباء الطّاعون[٢]، الأمرُ الذي مكَّنَ الأمير (مانع بن مغامس) من دخول البصرة بعد هزيمة واليها العثمانيّ (حسين باشا) (١٦٨٨-١٦٩٠م)، إلّا إنّه خرج عنها إلى منطقة الدِّير شمال مدينة البصرة؛ خوفاً من الإصابة بوباء الطّاعون[٣]، ويُستدلُّ من ذلك على أنّ منطقة شمال البصرة -ومِن ضمنها الجزائر- قدْ دخلتْ منذُ ذلك التاريخ تحت سطوة المنتفق.

---

(١) يُنظر: علي الشرقيّ، آل أفراسياب وخراب الجزائر، مجلّة لغة العرب، بغداد، ١٩٢٧م: ج١٠، ص٥٧٧.

(٢) يُنظر: عبد الله بن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها: ص٦٣.

(٣) يُنظر: علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة: ص١٣٧-١٣٨.

في عام (١٦٩١م) جهّز والي بغداد (أحمد باشا) (١٦٩١-١٦٩٣م)حملةً عسكريّةً بقيادة أخيه (خليل باشا) لإخراج الأمير (مانع) من البصرة، غير أنّ قوّات الأخير تصدّتْ لتلك الحملة، وأنزلتْ بها هزيمةً فادحةً اضطرّتها للتراجع إلى بغداد، وهكذا أصبحتْ البصرة بكاملها في قبضة المنتفق[١]، الأمرُ الذي دفع العثمانيّين عام (١٦٩٤م) إلى تجهيز حملةٍ أُخرى من بغداد اشتبكت مع المجموعات القبليّة في منطقة الجزائر بزعامة المنتفق، الذين حقّقوا انتصاراً كبيراً على العثمانيّين، وتؤكّد تلك الواقعة خضوعَ مناطق الجزائر في تلك المدّة لسيطرة المنتفق حتّى أواخر القرن السّابع عشر الميلاديّ[٢].

وبعد أربع سنواتٍ من استقلال المنتفق بزعامة الأمير (مانع)، وجّهتْ الدّولة العثمانيّة في عام (١٦٩٨م) جيشاً كبيراً بقيادة (خليل باشا)، وتمكّنوا من إخراج الأمير (مانع) من البصرة في أواخر السّنةِ ذاتها[٣]، ولم يُنْهِ خروجُ المنتفق من البصرة عام (١٦٩٨م) طموحَهم في السّيطرةِ عليها، فبعد وفاة الأمير (مانع) عام (١٧٠٥م) رَأَسَ المنتفق ابنُه (مغامس) (١٧٠٥-١٧١٨م)، الذي دخل في سلسلة معارك ضدّ والي البصرة (خليل باشا)، آلَتْ نتائجُها النهائيّة إلى أنْ تُصبحَ البصرة بكاملها تحت سيادة المنتفق في منتصف تشرين الأوّل (١٧٠٥م)[٤]، وفي عام (١٧٠٦م) كان الوضع مضطرباً في الجزائر؛ لأسبابٍ تتعلّق بحقوق الأراضي ونزاعاتها بسبب الضّرائب، ما حدا بالحكومة

---

(١) يُنظر: عبد الأمير الرفيعيّ، العراق بين سقوط الدّولة العبّاسيّة وسقوط الدّولة العثمانيّة، بغداد، ٢٠٠٥م: ج٢، ص٢٥٧؛ وعبد الله الجورانيّ، دراسة وثائقيّة في تاريخ المنتفق الوطني أحواله الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة أواخر العهد العثمانيّ، بغداد، ٢٠٠٨م: ص١٨.

(٢) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٥٠.

(٣) يُنظر: حميد حمد السّعدون، حكايات عن المنتفق، وقائع من تاريخ العراق الحديث والمعاصر، ط١، بغداد، ٢٠١٠م: ص٢١-٢٢.

(٤) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص١٥٦؛ وحميد حمد السّعدون، حكايات عن المنتفق: ص٢٨-٢٩.

لأنْ تحشِّد جيشاً عام (١٧٠٨م) بزعامة والي بغداد (حسن باشا) (١٧٠٤-١٧٢٣م) لمواجهة ثورة (مغامس المانع) والمنتفكيّينَ وعشائر الجزائر[١]، وتوجّهتْ القوّات باتجاه الحلّة مروراً بالسّماوة، وفي الثاني والعشرين من شهر رجب وصل إلى ضواحي البصرة، ولمّا كان العبور إلى (الْمَدَيْنَة) ليس سهلاً؛ بسبب كثرةِ الأنهُر، فقد عسْكَر بالقرب منها، في حين أرسل (مغامس) جواسيسه لاستطلاع الأوضاع، ولمّا علم بمقدم هذه القوّات سارع إلى اتّخاذ الحيطة، وجَمَعَ جموعَه خلفَ الأنهُر والأهوار في (الْمَدَيْنَة)، وأقامَ في الجانب الغربيّ من نهر عنتر، وكان بصحبته عددٌ كبيرٌ من العشائر[٢]، بلغتْ جموعُهم نحوَ مائةِ ألفٍ[٣] أو يزيدونَ، انتشروا في الصّحارى والمناطق المجاورة، وقدْ توالتْ إليهم النّجدات من كلّ صوبٍ، فبلغتْ جموعهم الكثرة الزّائدة، بعد أنْ جاءهم المدد من بغداد ومن الأحساء والجزيرة، وممّن انتصر لهم الشّيخ (سلمان الخزعليّ)، الذي كان مقيماً عندهم من أمدٍ بعيدٍ، والتحقَ بهم كلٌّ من آل سراج [تُلفظُ اليوم سراي، وهم من ربيعة]، وزبيد، وبني خالد، وغزية، وميّاح، وشمّر ...ملؤوا تلك السُّهول، وهم مدجّجونَ بالسِّلاح[٤]، وقدْ وصلتْ أخبار تجمّع المنتفق وحلفائهم من أهل الجزائر والقبائل الأُخَر إلى القيادة العسكريّة العثمانيّة، فتقدّم القائد العام بعساكره نحو نهر عنتر، ولكنّه وجد عبورَه متعذِّراً؛ ولذلك أمر القبودان بإحضار السُّفن، وساروا بمحاذاة النّهر، ثمّ

---

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السّابق: ص١٥٦.

(٢) يُنظر: نظمي زادة مرتضى أفندي، كلشن خلفا: ص٣٢٤ .

(٣) يبدو أنّ ذلك العدد مبالغٌ فيه؛ وذلك لعدم وجود إحصائيّات دقيقة يمكن اعتمادها لمعرفة عدد جيش المنتفق، فهو جيشٌ غير نظاميٍّ، يعتمد في قوامه على رجال القبائل، ويمكن أنْ نلاحظ عدم الدِّقّة في ذلك من خلال النتائج التي انتهت إليها المعركة بخسارة جيش قبائل المنتفق أمام الجيش العثمانيّ المكوّن من خمسةِ آلاف مقاتلٍ فقط، كما سيتّضح لاحقاً.

(٤) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٥، ص٢٠٦؛ وعلي الورديّ، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث، ط١، إيران،٢٠٠٥م: ج١، ص٩٩ .

اتّخذوا ما يُسمّى بـ(البطخة) التي تُعمَل من القصب والبرديّ، وربطوا بعضها إلى بعضٍ للعبور بواسطتها، ولكنّهم وجدوها لاتتحمّل أكثر من أربعينَ شخصاً، أمّا المعدّاتُ الحربيّة، فقدْ نُقِلَتْ بوسائط أُخَر، وتمكّنوا من سدِّ النهر المذكور، وتقدّمتْ القوّات نحو مكمَنِ الثوّار في (المْدَيْنَة)، وأطلقوا عليهم نيراناً حاميةً، ولما رأى القائد العام أنّ الثوّار مازالوا صامدينَ في أماكنهم وخطوطهم الدّفاعيّة بادر إلى الالتفاف عليهم، وصار يدنو منهم رويداً رويداً، ثمّ وُجِّهتْ إليهم المدافع، وراحتْ تقصفهم قصفاً شديداً ومركَّزاً، واستمرّتْ الحرب أربعة أيّام، إذْ اشترك في القتال مايقرب من خمسة آلافِ جنديٍّ، إلّاإنّ ذلك لم يزحزح الثوّار أو يُثنِي مِن عزيمتِهم، بل زادهم استبسالاً في الدّفاع عن أنفسهم، لاسيّما بعد أنْ قامتْ القوّات العثمانيّة بمحاصرتهم من كلِّ الجهات[١].

دامت الحربُ إلى التاسع من شهر رمضان، ولم تكنْ حاسمةً، وكان القائد (حسن باشا) يرى ضرورةَ إنهائها، فحرّك همّةَ الجيش، وأغار على المنتفق وحلفائهم بكلِّ قوّاته فهزمهم، وتوالتْ تلك الهزائم عليهم لسبع مرّات، وحينئذٍ -وفي المرّة الأخيرة- تداخل الطرفانِ بعضهم في بعض، وصارت المضاربة بالسُيوف والخناجر، وكان الشّيخ (تركي) شيخ الأجود [وله الثُّلث في تحالف المنتفق إلى جانب بني مالك وبني سعيد]، الذي يُعَدُّ شوكة المنتفق وقوّتهم قدْ سقط في المعركة، وكان حينها ملازماً للشّيخ (مغامس)، ولمّا رآه الأخير كذلك صاح: (واهٍ عليك)، واضطرَّ إلى التخلّي عن القتال والهرب من المعركة، وبذلك خُذِلَ الكلّ وفرّوا جميعاً، إذْ خسر المنتفق في تلك المعركة نحو عشرة آلاف، بقيت جثثهم في ساحة المعركة[٢]، وكان مِن بين مَن استشهد فيها أحد أُمراء ربيعة في نهر عنتر،

---

(١) يُنظر: عبد الرّحمن السّويديّ، حديقة الزّوراء في سيرة الوزراء، تحقيق صفاء خلّوصي، بغداد، ١٩٦٢م: ج١، ص٧٩-٨٠.

(٢) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٥، ص١٧٧.

وهو الأمير (فرج بن جابر بن مير محمّد)[١]، وقدْ أَجهز الجنود العثمانيّونَ على كثيرٍ من الأسرى والجرحى، لاسيّما بعد أنْ شاع بينهم قرار القائد (حسن باشا) بدفع الجوائز من الذهب والفضّة لكلِّ مَن يأتيه برأسٍ من رجال القبائل المتجحفلة أمامه[٢].

بقي القائد العثمانيّ (حسن باشا) في موقعه في نهر عنتر ثلاثة أيّام، وفي اليوم الرّابع مضى إلى البصرة فدخلها في نهاية شهر رمضان (١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م)، وفي اليوم التالي جرى الاحتفال بعيد الأضحى، وفي ثالث أيّامه دعا (حسن باشا) شيوخ الجزائر وطيّبَ خاطرهم، وكرّمَ قادته، وأكّد على الجميع لزوم الطّاعة [٣].

لقدْ اختلفَ المؤرّخونَ في تقييمهم أهمّيّةَ تلك الواقعة، إذْ يرى عبّاس العزّاوي: أنّه لو قدِّر للقوى الجزائريّة الانتصار فيها لتمكّنتْ من الاستقلال منذُ ذلك الحين، ولنال العراقُ استقلاله[٤]، فيما يرى الدّكتور علي الوردي: أنّ هذا الرأي ليس صائباً من الناحية الاجتماعيّة، فليس بمقدور مجموعةٍ من العشائر مهما كانت قوية أنْ تنال استقلالاً سياسيّاً لبلادها، ويرجع ذلك إلى طبيعة القوى العشائريّة، التي غالباً مايكونُ اتّفاقها مؤقّتاً وتنازعها دائماً، فإذا أُتيح لهم أنْ يتّفقوا على أمرٍ ما وينالوا فيه انتصاراً، فسرعان ما يختلفونَ فيه ويتنازعونَ، وهم بذلك لا يستطيعونَ أنْ يؤسِّسوا لأنفسهم كياناً سياسيّاً ثابتاً[٥].

وإنّنا نتّفقُ هنا مع تقييم الدّكتور الورديّ، لاسيّما أنّ أسباب تلك المعركة كانت لدوافع ضريبيّة والتزاماتٍ ماليّة، ولمْ تكن لها أهدافٌ كبرى تتعدّى حدودَ المصلحة

(١) يُنظر: كاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسرينَ: ص١٧٧.
(٢) يُنظر: حميد حمد السّعدون، حكايات عن المنتفق: ص٣١.
(٣) يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٥، ص ٢٨٠.
(٤) يُنظر: عبّاس العزّاوي، المصدر السّابق: ص٢٠٩.
(٥) يُنظر: علي الوردي، لمحات اجتماعيّة: ص٩٩.

الذاتيّة لشيوخ المنتفق، الذين كانوا في صراعٍ دائمٍ مع السُّلطة العثمانيّة.

بعد تلك الأحداث الدامية والانتفاضات القبليّة الرّافضة للاحتلال، التي دامتْ لثلاثة قرون في مناطق جنوب العراق[١]، أدركتْ الدّولة العثمانيّة أهميّة الاتحادات العشائريّة في إخضاع تلك القبائل، لاسيّما المنتفق، المهيمنة على معظم سكّان منطقة الفرات الجنوبيّة، سواء كانوا من المزارعين أم من الرُّعاة أم من سكّان الأهوار، التي تُعَدُّ (المُدَيْنَة) جزءاً منها[٢]؛ لذا فوّضتْ الدّولة العثمانيّة حاصلات البصرة على ما حازته من الأهميّة العظمى إلى مشايخ المنتفق مقابل نقودٍ معيّنةٍ[٣]، في الوقت الذي رأى فيه شيوخ المنتفق ضرورةَ توظيف الدّبلوماسيّة بديلاً عن خيار استخدام القوّة، لاسيّما بعد وفاة الأمير(مغامس المانع) عام (١٧١٨م)، وتولّي أخيه (محمّد المانع) بدلاً عنه، الذي عمل منذ بدايته على تشجيع هجرة أغلب العشائر إلى المناطق التي كانت تحت نفوذه، وقدْ لبّتْ هذه الدّعوة عشائر متعدّدة؛ وذلك لأسبابٍ سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ واجتماعيّةٍ، فضلاً عن حسن الاستقبال الذي مارسه المنتفق تجاه القبائل النازحة نحوها، ومنحهم الأراضي الزراعيّة ومراعي الماشية[٤]، وبهذا سيطر أُمراء المنتفق على عشائر كثيرة، واتخذوا من نهر عنتر مقرّاً لهم لإدارة شؤون إقطاعاتهم في منطقة الجزائر[٥]، وكانوا يفرضونَ على السُّفن

(١) يُنظر: فلادمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربيّة الحديث، دار التقدّم موسكو،١٩٧١م: ص٤١.

(٢) يُنظر: تشارلز تريب، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، ترجمة زينة جابر إدريس، ط١، بيروت، ٢٠٠٦م: ص٤٥.

(٣) يُنظر: محمّد بن خليفة النبهاني الطائيّ، التحفة النبهانيّة في تاريخ الجزيرة العربية: ص٣٠٨.

(٤) يُنظر: حميد حمد السّعدون، حكايات عن المنتفق: ص٣٦-٣٩.

(٥) إن المُدَيْنَة كانتْ تشكّل قوّةً اقتصاديّةً وعسكريّةً للمنتفق، ففي عام ١٨٦٩م، حين توجّه ناصر باشا السّعدون زعيم المنتفق إلى بغداد، والتقى الوالي مدحت باشا، عندها سأله الأخير عن رغبته في إعادة التزامه على المناطق التي تحت نفوذه على أنْ يترك (المُدَيْنَة) والجزائر لتبقى خارج حدود سلطته، إلّا إنّه تردّد كثيراً، وتحجّجَ بذريعة أنّه « وصل الآن إلى بغداد ولم يسترح بعد، وأنّه يحتاج إلى تأمّلٍ واستشارةٍ»، وكان الوالي مدحت باشا حينها يهدف إلى تقويض سلطة المنتفق باقتطاع تلك المناطق

التي تمرُّ خلال النهر المذكور رسوماً كمركيّة تذهب وارداتُها إليهم[١].

وختاماً فقدْ ظلّتْ منطقةُ الجزائر بما تملكه من مقوِّماتٍ تاريخيّةٍ وبيئيّةٍ واجتماعيّةٍ مركزَ تهديدٍ دائمٍ للسُّلطة العثمانيّة، وما تلاها من الأنظمة التي تعاقبتْ على حكم العراق[٢]، وهذا ما سنحاولُ بحثَهُ في دراساتٍ لاحقةٍ -إنْ شاءَ اللهُ تعالى-.

التي كانت- وحسب تقديره- تحتوي ثلاثينَ ألفَ مسلَّحٍ بالبنادق، وهم مستند شيوخ المنتفق وقوّة ساعدهم، ويُضيف سليمان فائق أنّ ناصر باشا السّعدون «ضاقتْ به الدّنيا على رحبها، وطَمَسَ في بحر الهموم والغموم، لعلمه أنّه إذا ترك هذه الأراضي، تتوسّع المسألة، أي: تنمحي المشيخة وتنقرض تدريجيّاً». يُنظر: عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٧، ص ٢٢٣-٢٢٤؛ وسليمان فائق بك، عشائر المنتفق، الدار العربيّة للموسوعات بيروت، ٢٠٠٣م: ص٦٦-٦٨.

(١) يُنظر: كارستن نيبور، رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، ترجمة سعاد هادي العمري وآخرون، ط١، دار الورّاق للنشر، بغداد، ٢٠١٢م: ص١٠٦؛ و غافن يونغ، العودة إلى الأهوار: ص٥٢.

(٢) من الجدير بالذِّكر أنّ منطقة الجزائر لم تستسلم نهائيّاً للسّيطرة العثمانيّة، فقدْ حارب الجزائريّونَ الجنودَ العثمانيّينَ مراراً عديدة، كان آخرها عام ١٨٩٥م في عهد السُّلطان عبد الحميد الثاني، إذْ انتفضتْ عشائر الجزائر بزعامة الإمارة وآل خيّون في عهد الشّيخ حسن الخيّون، وكان ذلك ردّاً على التعسُّف وسوء الإدارة العثمانيّة، وقدْ تمكّنتْ العشائر من دحر القوّات العثمانيّة، وبعد مرور أكثر من سنة على تلك الانتفاضة جَرّدَ العثمانيّون حملةً عسكريّةً على منطقة (الْمَدَيْنَة) بقيادة محمّد فاضل باشا الدّاغستانيّ (الجيجاني)، غير أنّ العشائر لم تتريَّث حتّى تنزل الحملة وتعسكِر، بل استعجلوا الأمر واستقبلوا الحملة شرق (الْمَدَيْنَة) وهاجموها وهي سائرة بالسُّفن المحكمة، التي لم تؤثِّر فيها طلقات بنادق العشائر، وقد فتكتْ مدفعيّة الحملة بالعشائر المهاجِمة، وألقت القبض على كثيرٍ منهم وألقتهم في سجن البصرة، فيما نزح الباقونَ إلى الحويزة، وقدْ استمرّوا من هناك بمهاجمةِ خطوط المواصلات في دجلة والفرات بين العمارة والقُرنة والجبايش. للمزيد، يُنظر: علي الشرقي، أشهر مدن البطائح الحاليّة: ص٥٢٦؛ وعامر حسك، أهوار جنوب العراق، بغداد، ١٩٧٩م: ص٨٢؛ وشاكر مصطفى سليم، الجبايش: ص٢٠٠.

نبذةٌ عن الأوضاعِ الاجتماعيّةِ في الجَزائرِ

انطلاقاً مِن فهمنا بأنّ تاريخ أيّة أمّةٍ هو صنيعة الامتزاج بين الإنسان وبيئته الحضاريّة؛ لذا وجدنا من الضّروريّ التعرّف على بعض أوجه الحياة الاجتماعيّة للمنطقة؛ لارتباطها بالفكر السّياسيِّ السّائد في تلك الحِقبة.

على الرُّغم من اختلاف علماء الأنثروبولوجيا في وجهات نظرهم حول أصل سكّان الأهوار عامّة، إلّا إنّ الاعتقاد السّائد أنّ قسماً منهم قدْ تحدّر من أصولٍ سومريّةٍ وبابليّةٍ، وتعرّضوا لكثيرٍ من الاختلاطِ المسبَّب عن الهجرات والتزاوج مع بعض الأقوام القاطنة إلى الشرق من منطقة الأهوار الشرقيّة، ومَعَ بَدْوِ الجزيرة العربيّة في القسم الغربيّ، فاختلطتْ تلك الجماعات مع بعضها، وفقدتْ كثيراً من صفاتها الأصليّة[١]، وتمثِّل القرية أو (السَّلَف) الوحدة الاجتماعيّة للمنطقة، فهي تتكوّن من عددٍ من العوائل التي تُنسب إلى عددٍ من الأفخاذ الأبويّة، وقدْ تكون هذه الأفخاذ منتسبةً إلى عشيرةٍ واحدةٍ، أو عددٍ من العشائر، ولكلٍّ منها شيخ يُعَدُّ بمنزلةِ الرأس الاجتماعيّ للعشيرة، يرتقي لمنصبِهِ عن طريق الوراثة[٢]، وكان زعماء تلك العشائر في الأغلبِ تابعين للتحالف القَبَلي الذي تزعّمته أُمراء ربيعة في نهر عنتر، وآل عليّان في نهر صالح، ويُستدلُّ من الرّسالة الموجّهة من الأمير (علي بن عليّان) إلى والي بغداد (الإسكندر الجركسيّ)، التي كَتَبَها قاضي إمارة آل عليّان الشّيخ (محمّد بن الحارث المنصوريّ الجزائريّ)، على أنّ آل عليّان ليسَ مجرّدَ قبيلةٍ، بل هي إمارةٌ منظّمةٌ لها رؤساؤها وقضاتُها ومدارسها[٣].

---

(١) يُنظر: شاكر مصطفى سليم، الجبايش: ص٢٧.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه: ص٣٤-٣٥.

(٣) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٥٠-١٥١.

وعلى ما يبدو أنّ القضاء فيها كان في الأغلب قضاءً شرعيّاً، يُوكَل أمرُه غالباً إلى كبار العلماء في المنطقة للبتِّ في كثيرٍ من الخلافات والمنازعات، ومنهم قاضي الإمارة السّالف الذكر، وكذلك الشّيخ (عبد النبيّ الجزائريّ)[1]، وعادةً ما يتولى أُمراء الجزائر مساعدة

(١) وهو الشّيخ عبد النبيّ بن سعيد، الملقّب بالجزائريّ نسبةً إلى مسقط رأسه ومكان نشأته الأولى في منطقة الجزائر، ولا يُعرف تاريخ محدّدٌ لولادته، ولكن من مجموعة القرائن والأحداث التي أشار إليها بعض أساتذته يمكن القول إنّه وُلِد في حدود منتصف القرن العاشر الهجريّ، إذْ كان معاصراً لأمثال المولى الأردبيليّ والتّستريّ والشّيخ البهائيّ، وإنّه لم يمكث في مكانٍ محدّدٍ، بل كان يتنقّل بين مسقط رأسه وأماكن وجود الحوزات العلميّة في النجف وكربلاء والمدينة المنورة، وبعض بلاد إيران، وقدْ أخذ الإجازة عن الشّيخ الأعظم المحقّق الكَرَكِيّ، وعن ذلك ذكر السيّد محمّد المشهور بالسيّد ميرزا الجزائريّ -أستاذ السيّد نعمة الله الجزائريّ-: «حدّثني إجازةً في الصِّغر أبي السيّد...شرف الدّين علي ابن نعمة الله الموسويّ...بحقّ روايته عن رئيس الإسلام والمسلمين، وسلطان المحقّقينَ والمدقّقينَ، الشّيخ عبد النبيِّ بن سعيد الجزائريِّ، بحقّ روايته إجازةً عن الشّيخ الأعظم المحقّق الكَرَكِيّ»، وبعد نيله الاجتهاد وكسبه القسط الأوفى من مختلف العلوم، يبدو أنّه عاد إلى بلاده الجزائر، إذْ كان يصلّي (جماعةً) في المسجد الجامع في نهر صالح، ما يدلُّ على استقراره فيها ومعاصرته ظروفَ الصِّراع ضدَّ العثمانيّينَ، وأصبح الجزائريُّ -بما حازه في بلاده من المقام المرموق والشّرف المؤيّد- قوّةً مؤثّرةً في مجتمعه ومحيطه، وكان يأمر فيُطاع، وقدْ عُرف بقوّةِ شخصيّته، لاسيّما في أداء وظائفه الشرعيّة، وبعدها اتخذ من كربلاء سكناً له، وبالتحديد في العقدين الأخيرين من حياته تقريباً، إذْ برزتْ فيها بعض كتبه، ومنها: كتاب نهاية التقريب في شرح تهذيب الأصول للعلّامة الحلّي، الذي فرغ منه سنة ١٠١٠هـ، وكتاب المبسوط في الإمامة، الذي أتمّه سنة١٠١٣هـ، ومِن أشهر مؤلّفاته أيضاً: كتاب حاوي الأقوال في معرفة الرِّجال، وكتاب الاقتصاد في شرح الإرشاد، وتُمثّل أعمال العلّامة الجزائريّ نقلةً نوعيّةً في علم التحقيق، لاسيّما في علم الرّجال، وقدْ اعترف له بذلك كثيرٌ من العلماء والمحقّقينَ، قال عنه العلّامة الشيخ حسن البلاغيّ النجفيّ: إنّه «كان علّامةَ وقتِه، نقيَّ العلم، جيّدَ التصانيف، من إجلّاء مجتهدي هذه الطائفة»، ووصفه الحرُّ العامليُّ بالتحقيق والجلالة، وقال عنه القمّيُّ: بـ«العالمُ المتبحِّر في فنِّ الحديث والرِّجال»، أمّا عن خبر وفاته، فقدْ ذكر الشّيخُ البهائيُّ أنّه توفّي يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وألف في قريةٍ بين أصفهان وشيراز، ودُفِنَ في شيراز في حرم السيّد الجليل أحمد بن الإمام الكاظم عليه السلام المعروف بـ(شاه جراغ)، ليتناسب ذلك مع ماله من الشأن والمقام. للمزيد، يُنظر: عبد النبيّ الجزائري، حاوي الأقوال، مقدّمة المحقِّق: ج١، ص١١-٣٩.

العلماء في تطبيق الأحكام التي يُصدرونها، بمعنى أنّهم يؤدّونَ دور السُّلطة المنفِّذة لتلك الأحكام، وفي ذلك بعض الرِّوايات التي ذكرها أحدُ تلامذة الشّيخ (عبد النبيّ)، وأشار إليها الأفنديّ في رياضِه، قائلاً: «تحاكَم إليه فريقان متخاصمان في بلاد القطيف حول أموالٍ ونخيلٍ وبساتينَ عظيمةٍ، وكانت تحت يد أحدهما، إذْ تبلغ عشرة آلاف جريب[١]، ولكلٍّ منهما بيّنةٌ تُعارِضُ الأخرى، وعندما اطّلع على ذلك حَكَمَ بالحقِّ لذوي البيِّنةِ الخارجة، وانتزع لهم جميعَ ذلك بمعونة حاكم البَلَد هِجرس[٢] بن محمّد بن جبر بن صالح الجزائريّ»[٣].

كما يمكن أنْ ندرك اهتمام سكّان الجزائر بالجانب التعليميِّ الذي اتّخذ في مجمله طابعاً دينيّاً، إذْ وردتْ أسماء عددٍ من المدارس الدينيّة في منطقة الجزائر، فقدْ أكّد الشّيخ فتح الله ابن علوان الكعبيّ[٤] أنّه تتلمذ في مدارس الجزائر (المنصوريّة واللّطيفيّة)، فأخذَ

---

(١) الجريب: مكيال قدره أربعة أقفزة، والجريب قدْر ما يُزرع من الأرض، وقيل الجريب، المزرعة. يُنظر: لسان العرب: ج١، ص٣٦٠.

(٢) وقدْ ذكر كذلك باسم (هجير). يُنظر:علي الشرقي، الجزائر: ص٥٢٧.

(٣) نقلًا عن: عبد النبيّ الجزائريّ، حاوي الأقوال: ص١٨-١٩.

(٤) الشّيخ فتح الله الكعبيّ: وهو أبو علي جمال الدّين عبد الله بن الشّيخ علوان بن الشّيخ بشّار بن الشّيخ محمّد بن الشّيخ عبد الحسين الكعبيّ نسباً، القبّاني الدّورقي مولداً ومنشأً، وُلِد سنة ١٠٥٣هـ -١٦٤٣م، وقدْ عُنِي والده بتثقيفه وتعليمه في وقتٍ مبكّرٍ، فقصد البصرة والحويزة وشيراز، وحصل على معارف جمّةٍ في النحو واللُّغة والأدب والفقه، وتتلمذ على كبار شيوخ زمانه وأساتذة عصره، وفي العقد الثالث من عمره تولّى قضاء البصرة مدّةً، فرأى القضاء مخلّاً في دينه فتركه ورجع إلى القبان، واستقرّ فيها، وأصبح يتصدّر حلقات التدريس ومجالس الإفتاء، ويشارك العلماء والمفكّرينَ في ندواتهم فعرفوا له هذه المنزلة، وأشادوا به، وأثنوا على مقامه، فقال فيه الأديب عبد الله التستريّ: «كان عالماً أديباً وقوراً حَسَنَ التصنيفِ»، ومن أثاره العلميّة: كتاب الدُّرر البهيّة في شرح الآجرُّوميّة، في النحو، وشرح الفتوحات في المنطق، ورسالة في القراءة، وغيرها، توفّي سنة ١١٣٠هـ -١٧١٨م. يُنظر: عبد الرّحمن كريم اللامي، الأدب العربي في الأحواز: ص٤٠٣-٤٠٥.

الصرفَ والنّحوَ عند السيّد (نعمة الله الجزائريّ)[١]، والشّيخ (محمّد بن عبد الحسين الجزائريّ)، وأخذ العَروض عن الشّيخ (أحمد المدنيّ)، وأخذ العربيّة عن السيّد (عزيز الجزائريّ)، (ابن السيّد نعمة الله الجزائريّ)[٢]، فيما أورد السيّد نعمة الله الجزائريّ وجودَ مدارس دينيّة في نهر عنتر، إذْ كان أخوه السيّد (نجم الدّين) يدرس فيها، فضلاً عن وجود الجوامع التي كانت بمنزلة المراكز العلميّة في المنطقة، إذْ أشار السيّد نعمة الله الجزائريّ إلى وجودِ (مسجدٍ جامعٍ) في نهر صالح - مقرّ أُمراء آل عليّان - كان يصلّي فيه الشّيخ (عبد النبيّ الجزائريّ)، الذي وصفه بـ«خاتمة المجتهدينَ»[٣]، الأمرُ الذي يدُلُّ على منزلته العلميّة ومكانته الدّينيّة في منطقة الجزائر.

اتّخذت إمارة آل عليّان من التشيّع مذهباً دينيّاً لها كباقي سكّان الجزائر[٤]، وهي جزءٌ

---

(١) السيّد نعمة الله الجزائريّ: هو نعمة الله بن عبد الله بن محمّد بن حسين الجزائريّ نسبةً إلى الجزائر، وينتهي نسبه إلى الإمام موسى الكاظم ﷺ، ولد في سنة ١٠٥٠هـ - ١٦٤٠م في قرية الصبّاغيَّة، وهي إحدى قرى الجزائر(تُسمّى حاليّاً بالاسم ذاته)، تنقّل منذ نعومة أظفاره طلباً للعلم، فقصد قرية كارون، ونهر عنتر، وشطّ بني أسد، ونهر صالح، ثمّ مدينة الحويزة والبصرة، ثمّ سافر إلى شيراز، وهي يومئذٍ مقصد الطلبة من جميع البلدان، فنزل في المدرسة المنصوريّة، وبقي هناك تسع سنين، ثمّ عاد إلى الجزائر ومكث فيها سنة، فألزمه والده بالزّواج، سافر بعدها إلى أصفهان، وتعرّف هناك على العلّامة المجلسيّ صاحب موسوعة (بحار الأنوار)، وأقام عنده في منزله أربع سنين، توجّه بعدها إلى بلده الجزائر في سنة ١٦٦٧م، وهي السّنة التي أرسل بها الأتراك جيشاً لمحاصرة الجزائر، توجّه على أثر ذلك إلى الحويزة، ومن ثمّ إلى مدينة تستر، واتّخذها دار وطنٍ، فتولّى فيها مشيخة الإسلام وإمامة الجمعة والجماعة وسائر المناصب الشرعيّة، وله ما يقرُب من تسعةٍ وعشرينَ مؤلّفاً، من أشهرها: زهر الرّبيع، والأنوار النعمانيّة، وغاية المرام في شرح تهذيب الأحكام، وكشف الأسرار في شرح الاستبصار، وغيرها، توفّي عام ١٠١٢هـ - ١٧٠٠م. للمزيد، يُنظر: عبد الرّحمن كريم اللّامي، الأدب العربي في الأحواز: ص٣٢٩ .

(٢) فتح الله الكعبي، زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر: ص٧.

(٣) الأنوار النعمانيّة، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م: ج٤، ص٢١٠-٢١٩.

(٤) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٥١.

مِن ديانة سكّان الأهوار في العراق، فهم مسلمونَ من أتباع المذهب الجعفريّ[١]، وقدْ أشار الجغرافيّان ياقوت الحمويّ (١١٧٩-١٢٢٩م)، والقَزوينيّ (١٢٠٣-١٢٨٣م) إلى انتماء الشّعب الذي يقطن دجلة جنوب بغداد، وسكّان الأهوار في الفرات الأدنى إلى الطائفة الشّيعيّة، ولاحَظَ ذلك -أيضاً- الرّحّالة ابن بطّوطة (١٣٠٤-١٣٧٧م)، وتشير المصادر إلى أنّه في أيّام المشعشعينَ كان كلُّ جنوبِ ما هو عراقُ اليوم شيعيّاً بشكلٍ رئيس، باستثناء مركز مدينة البصرة[٢]، وأكّد القاضي نور الله التستريّ في مجالسه «وعلى هذا قدْ ظَهَرَلنا أنّ متوطّني تلك الدّيار (البطائح) كانوا من الشّيعةِ الإماميّة»[٣].

وتؤكّدُ المادّة التاريخيّة المتوافرة أنّ أغلب سكّان المركز في البصرة كانوا ينتمونَ إلى المذهب الشّافعيّ مع عددٍ قليلٍ من أتباع المذهبِ الشّيعيِّ، بينما كان بقيّة سكّان الجزائر وما يحيط بها من أتباع المذهب الشّيعيِّ[٤].

يوجد إلى جانب ذلك عددٌ من اليهود في منطقة الجزائر -آنذاك- وهذا ما أكّدته رسالة السيّد (محمّد المشعشعيّ) للعالم البغداديّ، إذْ قال: «طردتُ جميع اليهود الذين كانوا في الجزائر، الذينَ يقومونَ بسكّ النقود؛ لنجاستهم»[٥]،كما كانت الجزائرتضمُّ بين سكّانها أبناء الطائفة الصّابئيّة، الذين كانوا يستوطنون المنطقة منذ القرن الرابع عشر الميلاديّ[٦]، في مناطق (المْدَيْنَة) ونهر صالح، وهم من قبيلة (الجحيليّة) الصّابئيّة[٧]، والذين كانوا

(١) يُنظر: شاكر مصطفى سليم، الجبايش: ص٣٦.

(٢) نقلًا عن حنّا بطاطو، العراق الطبقات الاجتماعيّة والحركات الثوريّة من العهد العثماني حتى قيام الجمهوريّة، الكتاب الأوّل، ترجمة عنيف الرزاز، الكويت، ٢٠٠٥م: ص٦١، هامش رقم (١١).

(٣) نقلًا عن: جاسم حسن شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص٧٠-٧٦.

(٤) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٥٨.

(٥) جاسم حسن شبر، المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص٣٣.

(٦) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٦٣.

(٧) يُنظر: عبد الرزّاق الحسنيّ، الصّابئون في حاضرهم وماضيهم، مطبعة العرفان، صيدا، ١٩٥٥م:

يشتغلونَ في صناعة القوارب المحليّة (المشحوف)، وبرعوا كذلك في صناعة آنية الفضّة وصياغة الذّهب[١]، وكان وجودهم قرب الأهوار وعلى سواحل الأنهار لدواعٍ دينيّة؛ لأنّ الماء شيءٌ مهمٌّ في ديانتهم للاغتسال والوضوء(التعميد)[٢]، ومن الممكن أنْ يكونَ تواجدهم في منطقة (الْمَدَيْنَة) وتوابعها بأعدادٍ كثيرةٍ؛ لكونهم يرونَ أنّ نهر الفرات أكثر قدسيّة، ويطلق عليه (فرات زيوه)، أي النهر الأبيض المقدّس[٣]، وهذا ما أكّدته خريطة الصّابئة[٤]، التي رسمها أحد الأوربيّين في أوائل القرن السّابع عشر، إذْ أشارتْ إلى الحواضر التي تسكنها هذه الطائفة مع بيان عدد أُسرهم في كلِّ هذه الحواضر[٥]، ويبدو أنّ أعدادهم الحاليّة لا تتناسب مع قدم المدّة التي استقرّوا بها في المنطقة، وربّما يرجع ذلك إلى ما ذكرته بعض المصادر عن تعرّض تلك الطائفة للاضطهاد في فتراتٍ معيّنة[٦]، ما دفع بعضهم إلى الهجرة، وتحوّلَ آخرونَ إلى الإسلام، وهذا ما أشارت إليه بعض المصادر عن وجود عشائر ذات أُصول صابئيّة[٧].

تجدر الإشارة إلى أنّ طبيعة السّكن في هذه المنطقة تنوّعتْ مابين القِلاع التي عدّتْ مقرَّ سكنٍ في وقت الأزمات لرؤساء القبائل، بينما يتمُّ السّكن في الأوقات الاعتياديّة في بيوتٍ مصنوعةٍ من القصب[٨]، وهي متشابهةٌ في مادّتها ومظهرها العامّ، ولا يختلف

ص١١٦-١١٧.

(١) يُنظر: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث: ص٢١؛ وحسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٦٤.

(٢) يُنظر: شاكر مصطفى سليم، الجبايش: ص١٦٨.

(٣) يُنظر: عقيل عبد الحسين المالكي، ميسان وعشائرها قديمًا وحديثاً، بغداد، ١٩٩٢م: ص٣٩.

(٤) يُنظر الملحق رقم(٢).

(٥) يُنظر: يعقوب سركيس، مباحث عراقيّة: ص٣٨٩.

(٦) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٦٤.

(٧) يُنظر: ولفرد ثسيكر، المعدان أو سكّان الأهوار: ص١٦.

(٨) حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٠٥.

البعض منها إلّا قليلاً من ناحية الارتفاع والاتساع، فهي كلُّها مشيّدةٌ من حُزمٍ من القصب، تثبّت قوائمها في الأرض، وتثنى أطرافها لتكونَ أقواساً، وبعد أنْ يكتملَ وضع أقواس البيت، وتثبّت بحبالٍ من القصب الملويّ، تغطّى سقوفها والأجزاء العليا من جدرانها بغطاءٍ من (البواري)، أمّا الأجزاء السُّفلى، فتغطّى بقصبٍ مجدولٍ على نحوٍ متشابكٍ، وهناك نوع من البيوت تسمّى (الصّرائف)، وهي، وإنْ كانت مصنوعةً من القصب مثل باقي البيوت، إلّا إنّها تمتاز بالتأنّق في صناعتها وهندسة بنائها، ويشيّدها بعضُ الأثرياء من السكّان لجلساتهم الخاصّة، أمّا المضيف، فيبدو بارزاً ببنائه بين أكواخ القرية، وهو مصنوع بطريقة الأقواس -أيضاً- إلّا إنّ تشييده يتطلّب كثيراً من الجهد والاعتناء، فهو عندهم عنوان القبيلة، الذي يهتدي إليه النّاس، ومنتدى رجالها، وفيه يستقبلونَ ضيوفها[١]، وإنّه مركزٌ اجتماعيٌّ، ومكانٌ للاجتماعات السّياسيّة، وفضِّ الخصوماتِ العشائريّة[٢].

تبعاً لذلك، فإنّ المواقف السّياسيّة التي اتخذها سكّان الجزائر في المدّة حيِّز البحث لايمكن أنْ تنفكَّ عن ظروف البيئة الطبيعيّة التي تُحيط بهؤلاء السكّان؛ إذْ كان لبيئة الأهوار الوعِرة دورٌ في تجذّر النزعة الاستقلاليّة، وخلق روح المقاومة واستمرارها، فهي بحكم قساوتها وعزلتها قدْ أنتجتْ رجالاً أشدّاء رافضينَ الهيمنةَ الخارجيّة، ومنحتهم ملاذاً آمناً أتاح لهم المطاولة في بيئةٍ ترفضُ كلَّ مَن لايقوى على التعاطي معها؛ لذا فقد شكّل العامل البيئيّ مرتكزاً أساساً في عمليّة التصدّي للجيوش العثمانيّة، فضلاً عن أنَّ الأهوار تمنح سكّانها نوعاً من الاكتفاء الذاتيّ؛ لما تتميّز به من تنوّع في الموارد الغذائيّة التي تُتيحُ للمقاومين القدرة على المطاولة وإسقاط خيار الحصار، الذي كثيراً ما يُستخدَم لإرضاخ المقاومة، ومن خلال ماسبق نجدُ أنّ هناك مجموعة من المدارس

(١) يُنظر: فلانين، الحاج ركان عرب الأهوار: ص٢٧-٢٨.

(٢) يُنظر: حسين علي المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني: ص١٠٥-١٠٦.

الدينيّة في الجزائر، فضلاً عن عددٍ من العلماء من ذوي المنزلة العلميّة الكبيرة، إذْ مارس بعضهم مهامّ إداريةً في القضاء والتعليم، ومن المؤكّد أنْ يكونَ لهؤلاء تأثيرٌ كبيرٌ على السكّان، الأمرُ الذي يدفعنا إلى تصوّر مدى الدّور الذي تولّاه علماء الدّين في تحفيز القبائل للوقوف بوجه السّيطرة العثمانيّة، إذا ما أخذنا بالنظر الاختلافَ المذهبيَّ بين العثمانيّينَ وسكّان الجزائر.

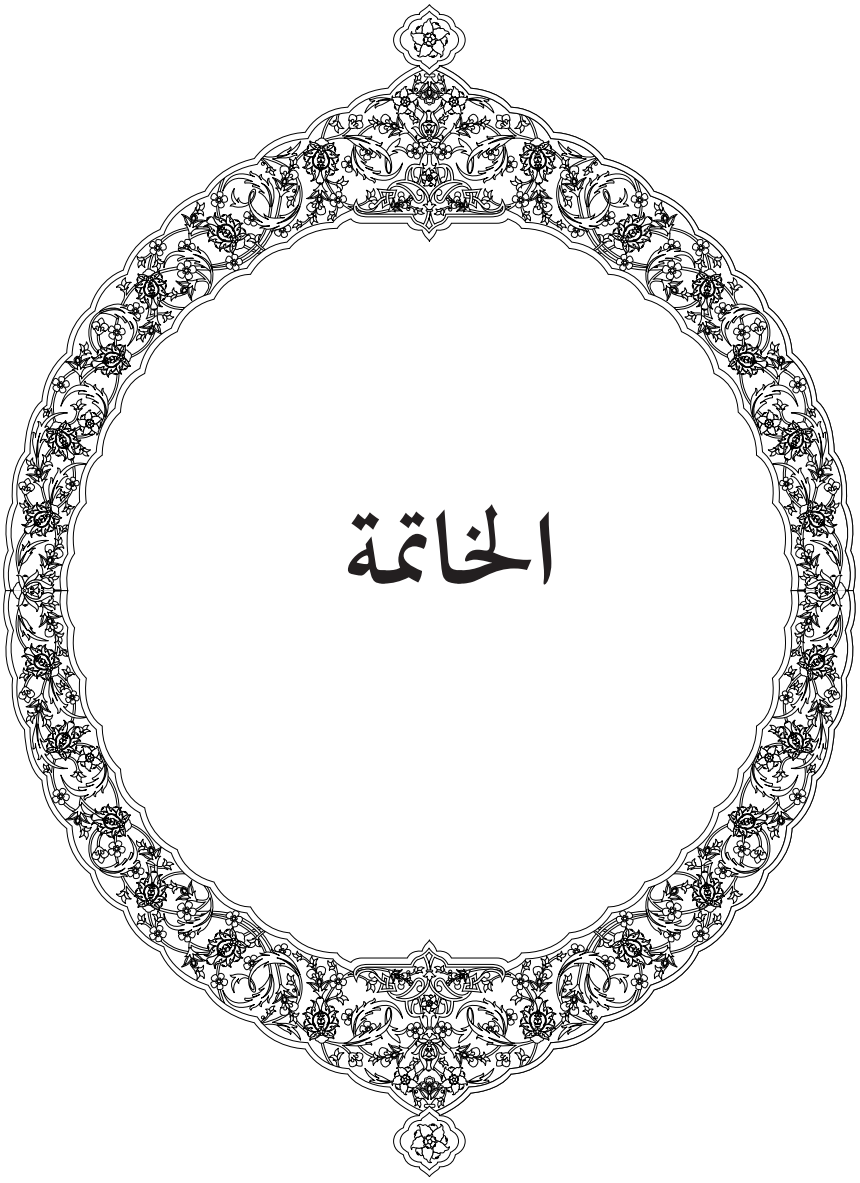

الخاتمة

الخاتمة

- خضعتْ (المْدَيْنَة) منذُ العصر العبّاسيّ الثاني، وتحديداً عام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م)، لسلطة إمارتي ربيعة في نهر عنتر وآل عليّان في نهر صالح، اللّتين تقاسمتا النفوذ في منطقة الجزائر، وعلى الرُّغم من التنافس بين كلتا الإمارتين، إلا إنّ التعاضد والتحالف كان السِّمة الأكثر وضوحاً في علاقتهما، لاسيَّما بعد تعرّض المنطقة للغزوات الأجنبيّة المتعاقبة؛ إذ قاد زعماء ربيعة وآل عليّان التحالفات القبليّة للدّفاع عن المنطقة، إلا إنّ امتداد نفوذ المشعشعينَ إلى الجزائر أدّى إلى إضعاف إمارة ربيعة وانفراد أُسرة آل عليّان بالزَّعامة بعد تحالفهم معَ المشعشعينَ، وأصبحوا قوّةً محلِّيّةً فرضتْ هيبتها على عموم أُمراء الجزائر، وكان دخول العثمانيّينَ وسيطرتهم على البصرة والجزائر عاملاً مهمّاً في ازدياد مكانة آل عليّان، بعد تزعّمهم حركةَ المقاومة ضدّ السّيطرة العثمانيّة.

- على الرُّغم من الجهود العسكريّة التي بذلها العثمانيّونَ خلال القرن السّادس عشر الميلاديّ، إلا إنّهم لم يتمكّنوا مِن فرض سلطتهم على (المْدَيْنَة)- حاضرة الجزائر آنذاك- والاستقرار فيها؛ بسبب المقاومة الشّرِسة لقبائلها، التي حرّكها الرُّوح الاستقلاليّة المتأصِّلة لدى تلك القبائل، فضلاً عن الدّوافع العقائديّة الناتجة عن الاختلاف المذهبيّ بين العثمانيّينَ وسكّان الجزائر، ودور القوى الدينيّة في المنطقة (المدارس الدينيّة وعلماء الدّين)، في تحريك السكّان باتجاه المقاومة، فضلاً عمّا تتمتّع به البيئة الطبيعيّة للجزائر من خصائص منحت المقاومين ملجأً آمناً، وأتاحتْ لهم الاستمرار والمباغتة.

- احتلّتْ منطقة (المدَيْنَة) خاصّة والجزائر عامّة، أهمّيَّةً استراتيجيّة متميّزةً لدى

السّلطات العثمانيّة في اسطنبول، بعد أنْ وسّع السُّلطان سليمان القانونيّ أهدافه للسَّيطرة على البصرة، والانطلاق منها لضرب القوى الأوربيّة، لاسيّما البرتغاليّينَ في منطقة الخليج العربي، من هنا كانت الجزائر -التي تقع على الطريق الذي يربط بين ولايتي بغداد والبصرة- إحدى الحلقات الأصعب أمام العثمانيّينَ؛ بسبب المقاومة التي تبنّتها قبائل الجزائر، وتهديدها طريق الإمداد لولاية البصرة، وتعدّى ذلك إلى تمكّن آل عليّان مِن تهديد مركز الوالي العثمانيّ في البصرة.

- اضطرّتْ تلك التهديدات السُّلطان (سليمان القانوني) عام (١٥٥٢م) إلى اتخاذ اجراءاتٍ إداريّةٍ غير مسبوقةٍ بتحويل المركز الإداريّ لولاية البصرة إلى قلعة (الْمُدَيْنَة) وتسميتها بولاية ((الْمُدَيْنَة) والجزائر) بعد أنْ أمر بتخفيض مركز البصرة الإداريّ إلى سنجقٍ تابعٍ إلى الولاية الجديدة، في محاولةٍ لنقل مركز الثقل العسكريّ والإداريّ العثماني في جنوب العراق إلى (الْمُدَيْنَة)، بعد أنْ أدرك العثمانيّونَ أنّ وجودهم في مركز ولاية البصرة غير ذي جدوى ما لم تكن لهم السَّيطرة التامّة على (الْمُدَيْنَة)؛ كونها مركز المقاومة التي كانت تقفُ عائقاً أمام الخطط الاستراتيجيّة العثمانيّة في جنوب العراق والخليج العربي، إلّا إن تلك الإجراءات لم تُمكِّن العثمانيّينَ من الصُّمود بوجه مقاومة القبائل، ما اضطرّهم إلى التخلّي عن ولاية البصرة لحكومة أفراسياب.

- بعد تخلّي العثمانيّينَ عن ولاية البصرة، وتولّي (أفراسياب) حكومتَها، شهِدتْ الأوضاع في (الْمُدَيْنَة) والجزائر استقراراً نسبيّاً، إلا إنّ ذلك لم يدُم طويلاً، لاسيّما في عهد حكومة (علي باشا أفراسياب)، إذْ كانت (الْمُدَيْنَة) حين ذاك تشهدُ تنافساً داخليّاً على الزّعامة بين إمارتي ربيعة وآل عليّان، وصراعاً آخر مع حكومة البصرة، وقدْ يعودُ السّبب في ذلك الصِّراع إلى النزعة الاستقلاليّة لدى أُمراء الجزائر، لاسيّما بعد المقاومة الطويلة التي خاضوها ضدّ العثمانيّينَ، والتي منحتهم القوّة الماديّة والمعنويّة للوقوف

بوجه الحكومات المركزيّة، وقدْ نجح (علي باشا أفراسياب) في استغلال التنافس الدّاخلي في الجزائر للاتفاق مع أُمراء آل عليّان للإيقاع بإمارة ربيعة، وتمكّنَ من القضاء عليها، وقدْ أسهم ذلك بطبيعة الحال في إضعافِ قوّة أهل الجزائر، وعلى الرُّغم من انفراد آل عليّان بزعامة المنطقة، إلّا إنّ (علي باشا أفراسياب) تمكّنَ في المرحلة اللّاحقة من الانتباه لتحرّكاتهم المناوئه لسلطته حتّى استطاع عام (١٦٣٣م) من القضاء على إمارتهم في نهر صالح، وبذلك فَقَدَتْ (الْمَدَيْنَة) منذ ذلك الحين تأثيرها السِّياسيّ السّابق، بعد أنْ خضع أهلُ الجزائر لحكومة أفراسياب، وبعدها لسيطرة أُمراء المنتفق، بعد اعتراف العثمانيّة لهم بالسّيطرة على الجزائر.

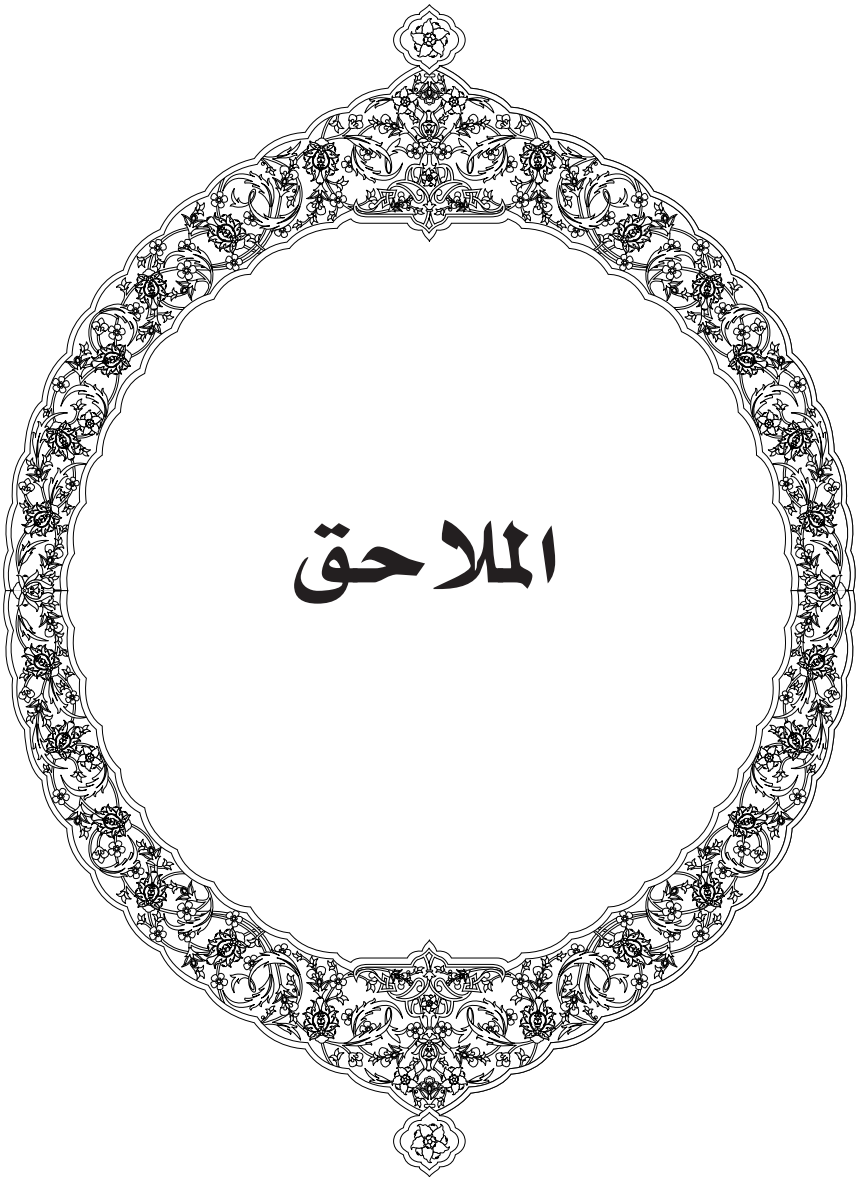
الملاحق

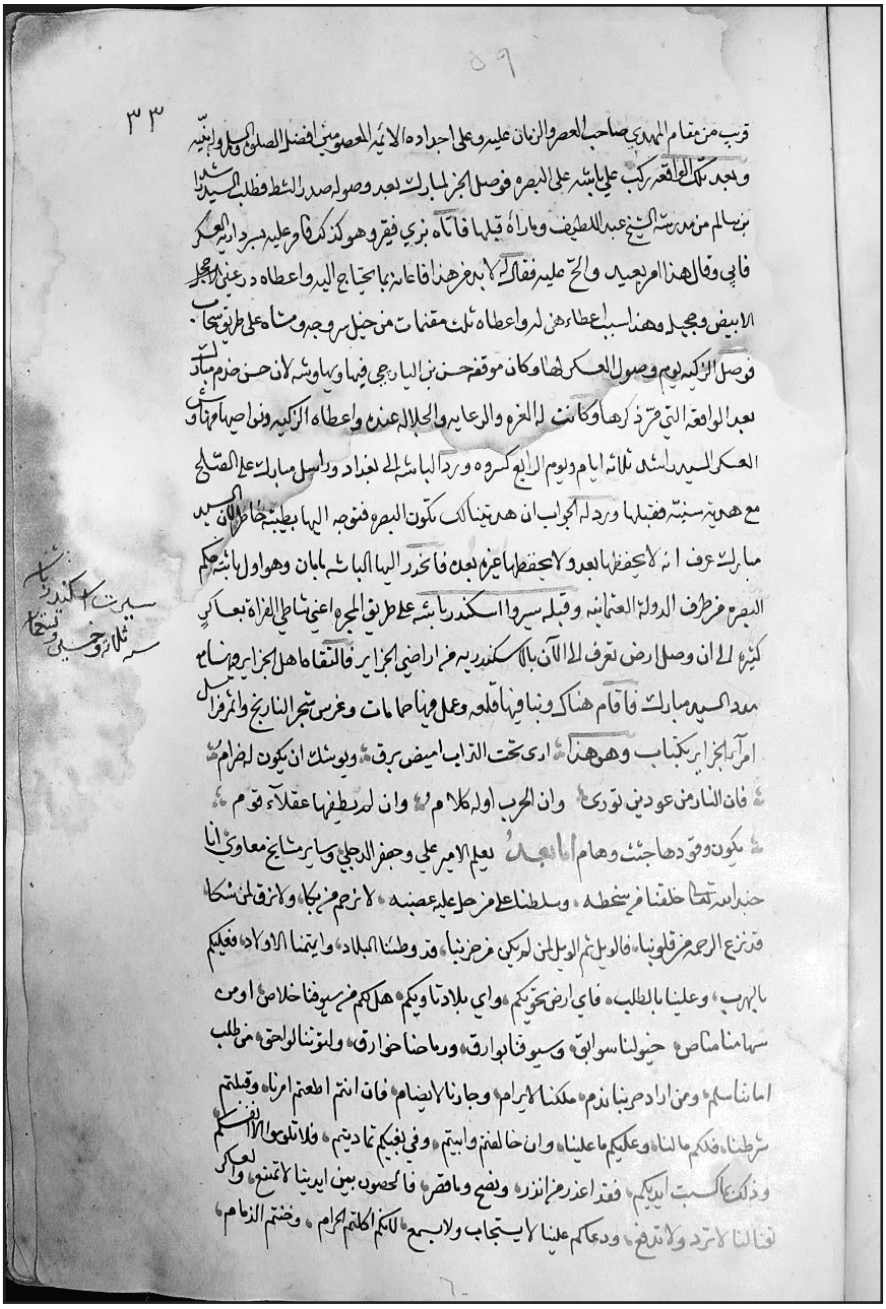

رسالة (الإسكندر باشا) إلى علماء الجزائر وأهلها، كما وردت في مخطوطة الرِّحلة المكِّيَّة للسيّد (علي خان الموسويّ المشعشعيّ)، وجوابها.

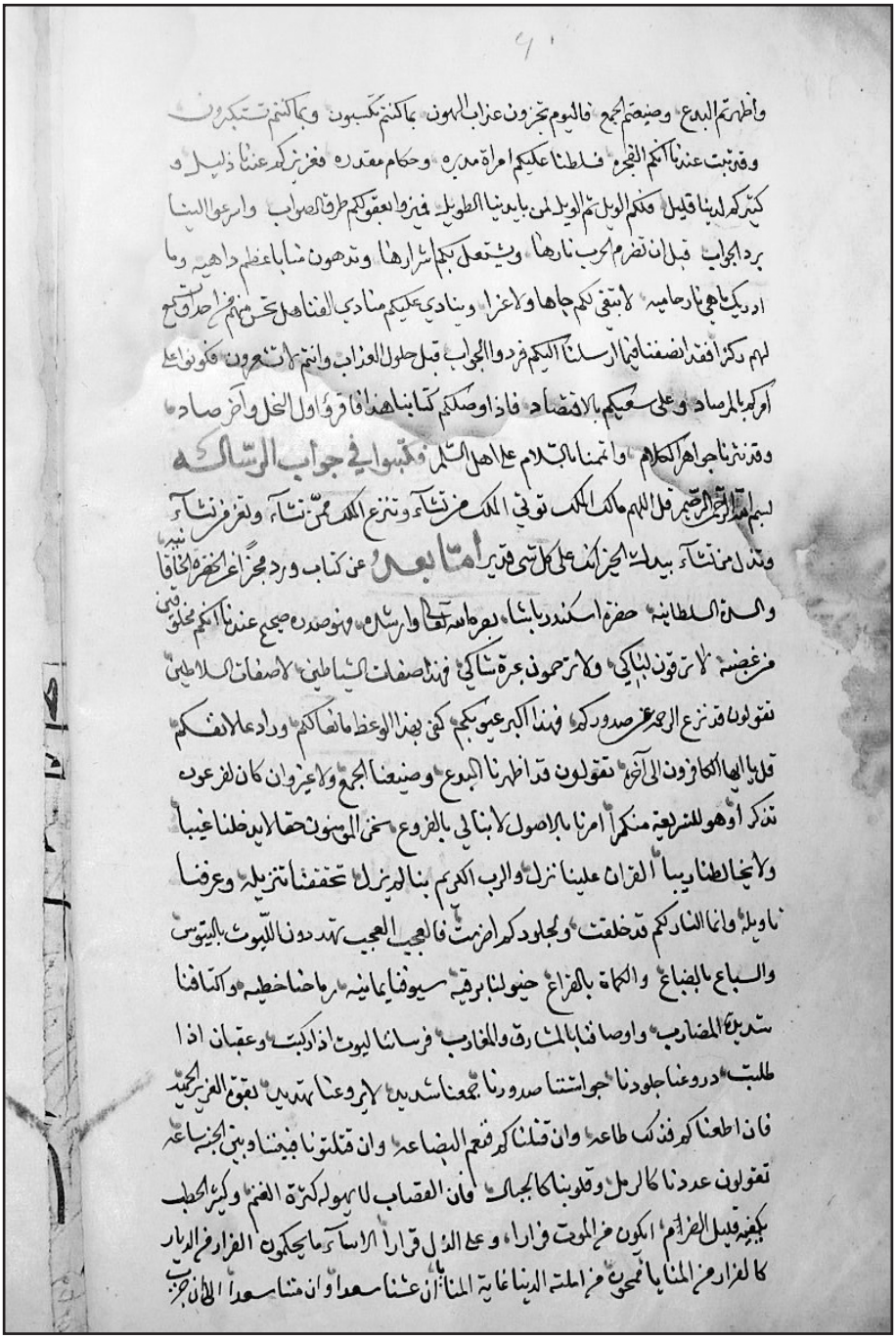

واظهرتم البدع وضيعتم الجمع فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تكبرون
وقد ثبت عندنا انكم انجرء فسلطنا عليكم امراة مدبره وحكام مقدره فعززتكم عندنا ذليلة و
كثركم لدينا قليلة فكم الويل ثم الويل لمن بايدينا الطويل فيزوا بعقولكم طرق الصواب واسرعوا الينا
برد الجواب قبل ان تضرم الحرب نارها وتشتعل بكم شرارها وتدهون منا باعظم داهيه وما
ادريكم ما هي نار حاميه لا تبقي لكم جاها ولا عزا وينادي عليكم منادي الفناء هل تحس منهم من احد او تسمع
لهم ركزا فقد اضفنا فيما ارسلنا اليكم فردوا الجواب قبل حلول العذاب وانتم لا تشعرون فكونوا على
اوكم بالمرصاد وعلى سعيكم بالانقضاد فاذا وصلكم كتابنا هذا فاقرؤا اول النحل وآخر صاد
وقد نثرنا جواهر الكلام وانمنا بالسلام على اهل السلم فكتبوا في جواب الرسالة
بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء
وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير اما بعد عن كتاب ورد مجزاغر الخضرة الخافقا
والسدة السلطانية حضرة اسكندر باشا بقره اصه تعالى وارسال وموضوعه صحيح عندنا انكم مخلوقين
من غضة لا تزقون لبانكي ولا ترحمون عبرة شاكي فهذه صفات الشياطين لا صفات السلاطين
تقولون قد نزع الرحمن صدوركم فهذا اكبر عيوبكم كفى بهذا الوعظ ما فاكم وراد عالافكم
قل يا ايها الكافرون الى آخره تقولون قد اظهرنا البدع وضيعنا الجمع ولا عز وان كان لفرعون
تذكر او هو للشريعة منكم امرنا بالاصول لا بنا بالفروع نحن المؤمنون حقا لا يدخلنا غيبا
ولا يخالطنا ريبا القران علينا نزل والرب الكريم بنا لم يزل تحققنا تنزيله وعرفنا
تاويله فانما ناركم قد خلقت وجلودكم ارضيت فالعجب العجيب تهددونا اللبوث بالليوث
والسباع بالضباع والكماة بالقراع حيولنا برقيه سيوفنا يمانيه رماحنا خطيه واكتافنا
شديدة المضارب واوصافنا بالمكارم والمغارب فرسانا ليوث اذا ركبت وعقبان اذا
طلبت دروعنا جلودنا جواشننا صدورنا بحمعنا شديد لامرونا مهديين بقوة الغزير الحميد
فان اطعناكم فذلك طاعه وان قتلناكم فنعم البضاعه وان قتلتونا فبيننا وبين الجنة ساعه
تقولون عددنا كالرمل وقلوبنا كالجبال فان القصاب لا يهوله كثرة الغنم وكثرة الحطب
يكفيه قليل الضرام اكون من الموت فرارا وعلى الذل قرارا الاساء ما يحكمون الفرار من الديار
كالفرار من المنايا نحن من املته الدنيا غاية المنايا ان عشنا سعدا وان متنا سعدا الان حرب

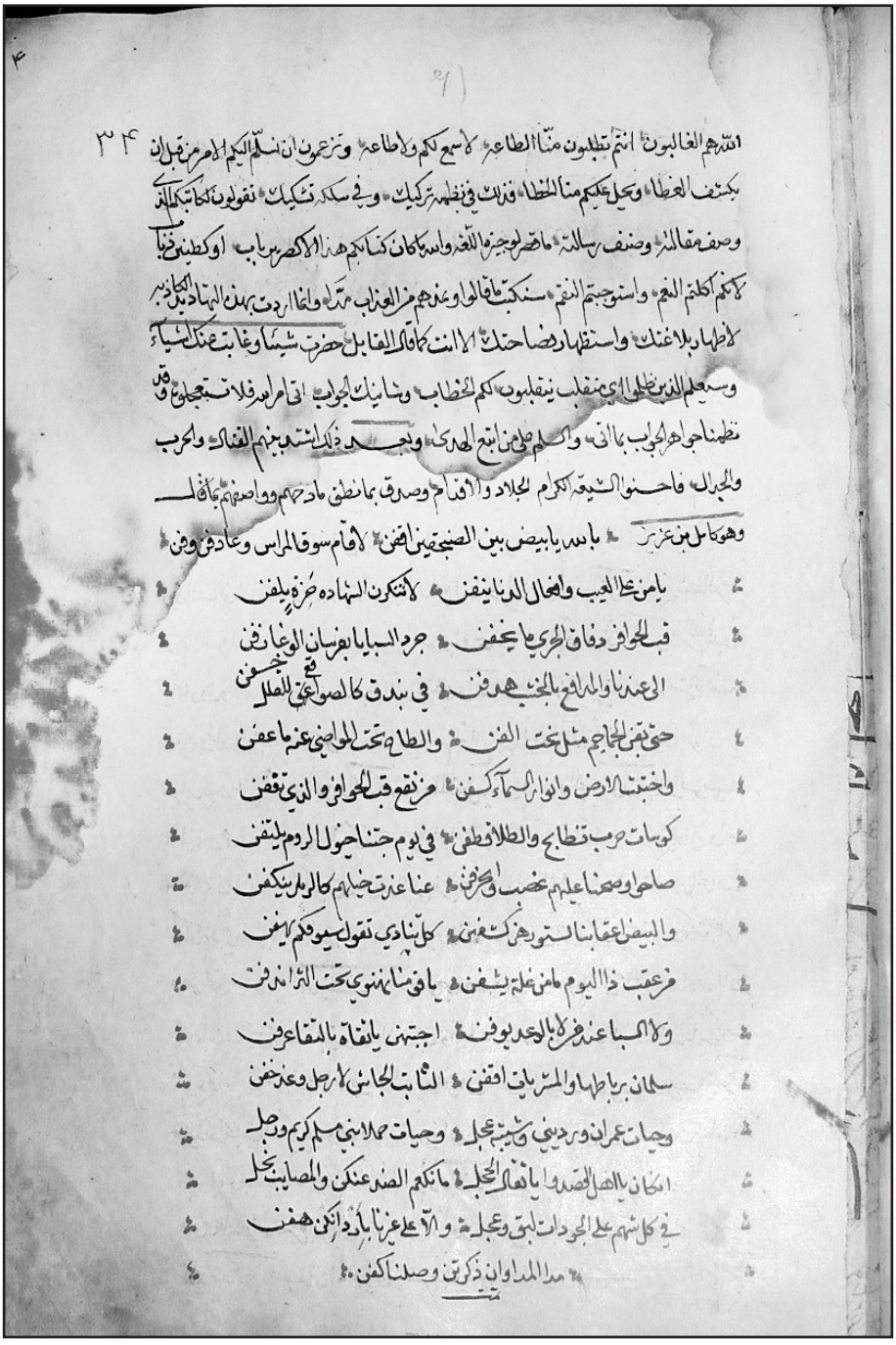

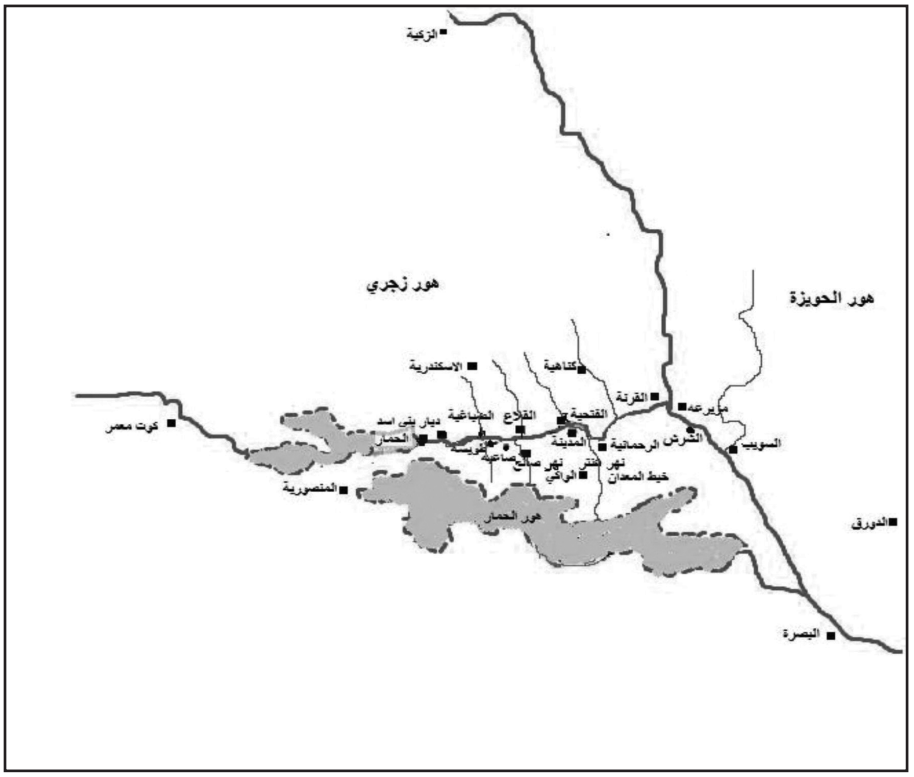

خريطة (الْمَدَيْنَة) في القرن السّادس عشر والسّابع عشر الميلاديين

(الخريطة من عمل الباحث)

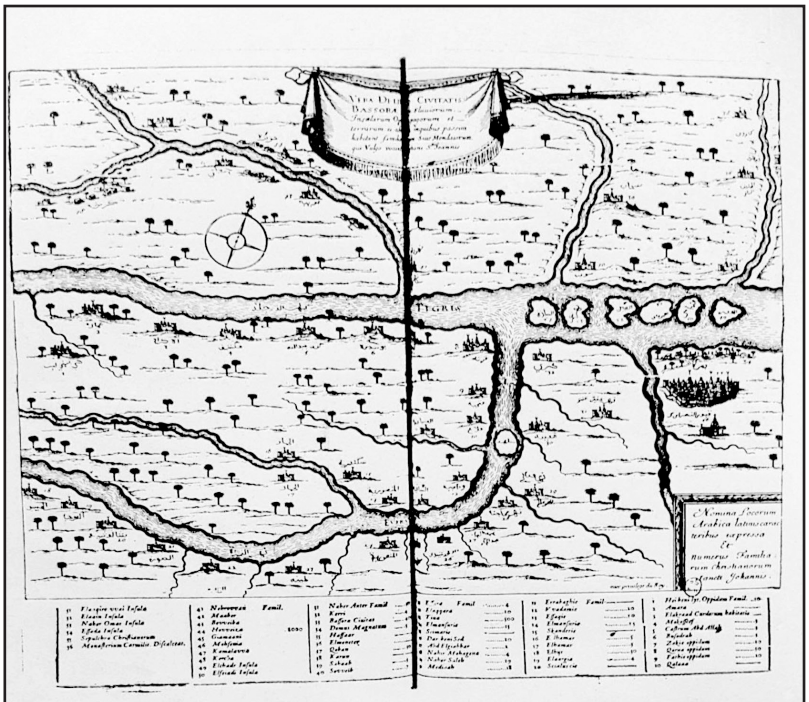

الخارطة المسماة خارطة الصابئة

كان رسمها في العقد الثالث من القرن السابع عشر بعد أن دشنت في البصرة كنيسة الاباء الكرمليين في ١٣ نيسان ١٦٢٥ (رسم الكنيسة في أعلاه وراجع نقل رحلة الايطالي ديلافاله الى الفرنسية ٤ : ٤٤٨) وفي نشرة الاحد (البغدادية) للخوري عبدالاحد جرجي (١٩٢٢[٩٢) ترجمة هذا الرحالة يليها نقل قسم من كتابه بتصرف وهو سفره من حلب الى بغداد ثم بعد حين خبر وصوله الى البصرة وكلامه عليهما . وقد اغفل هذا النقل خبر تدشين الكنيسة .

مباحث عراقية ٢ انظر الص ٣٨٩

(خريطة الصّابئة)، المصدر: يعقوب سركيس، مباحث عراقية في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد، القسم الثاني ٣٣٣، ص٥٥١١، تقديم رفائيل بطي و مير بصري، بغداد.

المصادرُ والمراجعُ

المصادر والمراجع

- القرآنُ الكريمُ.

أوّلاً: الكتبُ الوثائقيّةُ

١- البلادُ العربيّة في الوثائق العثمانيّة أواسط القرن العاشر الهجريّ/ السّادس عشر الميلاديّ، المجلّد الثاني، إعداد وترجمة ودراسة فاضل بيات، استنبول، ٢٠١١م.

٢- البلادُ العربيّة في الوثائق العثمانيّة أواخر عهد السُّلطان سليمان القانوني، المجلّد الثالث، إعداد وترجمة ودراسة فاضل بيات، تقديم خالدارن، استنبول، ٢٠١٤م.

٣- الجمهوريّة العراقيّة وزارة الحكم المحلّي، الدليل الإداريّ للجمهوريّة العراقيّة، ج٢، ط١، ١٩٨٩-١٩٩٠م.

٤- تقرير سرّي لدائرة الاستخبارات البريطانيّة، العشائر والسّياسة، ترجمة عبد الجليل الطاهر، النجف، (د.ت).

ثانياً: المخطوطات

١- السيّد علي خان الموسويّ المشعشعيّ، الرِّحلة المكِّيَّة نسخة خطّيّة عربيّة، في مكتبة سبهسالار(مطهّري حاليّاً)، رقم (١٥١٣).

٢- الشريفُ الجزائريّ، مختصر تاريخ إمارة ربيعة،(مخطوطة، نسخةٌ مصوّرة عنها لدى الباحثَينِ).

ثالثاً: الأطاريح والرّسائل الجامعيّة

١- إبراهيم جدّوع محسن، إمارة البطائح العربيّة دراسة في أحوالها السّياسيّة والفكريّة منذ القرن الرّابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ حتّى منتصف القرن السّادس الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة البصرة، ١٩٨٦م.

٢-بشرى رمضان ياسين، تحليل جغرافي للإنتاج الزّراعي في قضاء (الْمَدَيْنَة)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٢م.

٣- حسين علي عبيد المصطفى، البصرة في مطلع العهد العثماني، ٩٥٣- ١٠٧٩هـ/ ١٥٤٦- ١٦٦٨م، دراسة في التاريخ الاجتماعيّ والعمرانيّ، أُطروحة دكتوراه غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٨م.

٤- حسين محمّد القهواتي، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الأول والثاني (١٥٣٤-١٦٣٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥م.

٥- خليل علي مراد، تاريخ العراق الإداريّ والاقتصاديّ في العهد العثماني (١٦٣٨ ١٧٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلّيّة الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٦م.

٦- غزوة شهاب أحمد مصطاف السّامرائيّ، بنو شيبان ودورهم في الحياة العامّة من مطلع العصر الأُموي حتّى نهاية العصر العبّاسيّ الأوّل(٤١-٢٤٧هـ/ ٦٦١-٨١٦م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة التربية جامعة تكريت، ٢٠٠٥م.

٧- محمّد اطخيّخ ماهود المالكيّ، قضاء (الْمَدَيْنَة) دراسة في الجغرافية الإقليميّة، باستخدام نظم المعلومات الجغرافيّة GIS، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٩م.

٨- محمّد هليل الجابريّ، إمارة المشعشعينَ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلّيّة الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٣م.

رابعاً: الكتب

١- إبراهيم بن محمّد الفارسيّ، الاصطخريّ، كتاب مسالك الممالك، طُبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، سنة ١٩٢٧م، (دار صادر بيروت).

٢- إبراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني (١٥١٦-١٩١٦م)، الموصل، ١٩٨٦م.

٣- أحمد عبد الرّحيم مصطفى، في أُصول التاريخ العثماني، ط٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٤- آرثر كريستنسن، إيران في عهد السّاسانيّين، ترجمة يحيى الخشّاب، بيروت، (د.ت).

٥- ألكسندر آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتيّ، ط١، البصرة، ١٩٨٩م.

٦- أميرة رضا فرحات، الزّنج وثورتهم المنسيّة، ط١، بيروت، ٢٠١١م.

٧- بارثيلمي كاريه، رحلات الأب بارثيلمي كاريه في العراق والخليج العربي وبادية الشام(١٦٦٩-١٦٧٤م)، ترجمة أنيس عبد الخالق محمود وخالد عبد اللّطيف حسين، ط١، بيروت، ٢٠١٤م.

٨- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، نشر وإلحاق وفهرسة: الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، نشر مكتبة النهضة المصريّة - القاهرة، ١٩٥٧م.

٩- بالبي، رحلة بالبي إلى العراق، ترجمة الأب بطرس حدّاد، ط١، بغداد، ٢٠٠٥م.

١٠- تافرينييه، العراق في القرن السّابع عشر، تعريب بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، بغداد، ١٩٤٤م.

١١- تشارلز تريب، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، ترجمة زينه جابر إدريس، ط١، بيروت، ٢٠٠٦م.

١٢- تقرير سرّي لدائرة الاستخبارات البريطانيّة، العشائر والسّياسة، ترجمة عبد الجليل الطاهر، النجف، (د.ت).

١٣- ثريا فاروقي وآخرون، التاريخ الاقتصاديّ والاجتماعيّ للدولة العثمانيّة، ترجمة الدكتور قاسم عبدة قاسم، المجلّد الثاني، ط١، بيروت، ٢٠٠٧م.

١٤- ج .ج. لوريمر، دليل الخليج (القسم التاريخي)، الجزءان (الأوّل والخامس)، مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، قطر، د.ت.

١٥- جاسم حسن شبّر، المشعشعين وتراجم أعلامهم، النجف الأشرف، ١٩٦٥م.

١٦- جعفر الخيّاط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ط١، بغداد ،١٩٧١م.

١٧- الحسن بن هانئ، أبو نواس (ت ١٩٥هـ)، ديوان أبي نواس، شرحه وضبطه وقدّم له: الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

١٨- حسين حاجم بريدي النواصر، معجم الناصريّ لنسب وتاريخ العشائر العراقيّة، ط٤، إيران، ٢٠١٢م.

١٩- حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السّياسي، بيروت.

٢٠- حميد حمد السّعدون، حكايات عن المنتفق، وقائع من تاريخ العراق الحديث والمعاصر، ط١، بغداد، ٢٠١٠م.

٢١- حنّا بطاطو، العراق الطبقات الاجتماعيّة والحركات الثوريّة من العهد العثماني حتّى قيام الجمهوريّة، الكتاب الأوّل، ترجمة عفيف الرزّاز، عمان، ٢٠٠٥م.

٢٢- الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط٢، قم.

٢٣- رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السّادس عشر، ترجمة وتعليق أنيس عبد الخالق محمود، ط١، بيروت، ٢٠١٣م.

٢٤- ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخيّاط، ط٥، بيروت، ٢٠٠٤م.

٢٥- سليمان فائق بك، عشائر المنتفق، الدار العربيّة للموسوعات بيروت، ٢٠٠٣م.

٢٦- شاكر مصطفى سليم، الجبايش، ط٢، بغداد، ١٩٧٠م.

٢٧- الشّريف المرتضى، عليّ بن الحسين (ت٤٣٦هـ)، الأمالي، تصحيح وتعليق الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطيّ، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، ط١، ١٣٢٥هـ-١٩٠٧م.

٢٨- صالح أُوزبران، الأتراك العثمانيّون والبرتغاليّون في الخليج العربي (١٥٣٤-١٥٨١م)، ترجمة وتعليق عبد الجبّار ناجي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٩م.

٢٩- صموئيل إيفرز، رحلة صموئيل إيفرز من البصرة إلى البحر المتوسّط سنة (١٧٧٩م)، ترجمة وتعليق أنيس عبد الخالق محمود، ط١، بيروت، ٢٠١٣م.

٣٠- طارق نافع الحمدانيّ، مدن العراق وقبائله العربيّة في العصر الحديث، بيروت، ٢٠١٠م.

٣١- عارف مرضي الفتح، الإيجاز في تاريخ البصرة ونجد والحجاز، المجلّد الأوّل، الدار العربيّة للموسوعات، بيروت، د.ت.

٣٢- عامر حسك، أهوار جنوب العراق، بغداد، ١٩٧٩م.

٣٣- عبّاس العزّاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م.

٣٤- عبد الأمير الرفيعيّ، العراق بين سقوط الدولة العبّاسيّة وسقوط الدولة العثمانيّة، بغداد، ٢٠٠٥م.

٣٥- عبد الجبّار ناجي وآخرون، الدولة العربيّة في العصر العبّاسي، البصرة، ١٩٨٩م.

٣٦- عبد الجبّار ناجي، من تاريخ البصرة السّياسيّ، إسهامات البصريّينَ العسكريّة وصمودهم إزاء التحدّيات في التاريخ الإسلامي، البصرة، ١٩٩٠م.

٣٧- عبد الحسين جواد السّريح، الإقليم الوظيفيّ في القرنة، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٧٧م.

٣٨- عبد الرّحمن السُّويدي، حديقة الزّوراء في سيرة الوزراء، تحقيق صفاء خلّوصي، بغداد، ١٩٦٢م.

٣٩- عبد الرّحمن بن خلدون(ت٨٠٨هـ)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر، المجلّد السّادس، ط٢، بيروت، ٢٠٠٣م.

٤٠- عبد الرّحمن كريم اللّامي، الأدب العربي في الأحواز من مطلع القرن الحادي عشر الهجريّ إلى منتصف القرن الرابع عشر، بغداد، ١٩٨٥م.

٤١- عبد الرّزاق الحسنيّ، الصّابئون في حاضرهم وماضيهم، مطبعة العرفان، صيدا، ١٩٥٥م.

٤٢- عبد الرزّاق الحسنيّ، العراق قديماً وحديثاً، ط٢، دار اليقظة العربيّة، بغداد، ١٩٨٢م.

٤٣- عبد الرزّاق الحسنيّ، رحلة في العراق أو خاطرات الحسنيّ، ط١، بيروت، ٢٠١٣م.

٤٤- عبد العزيز الثعالبي، سقوط الدولة الأمويّة وقيام الدولة العبّاسيّة(١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، تقديم وتحقيق: حمّادي السّاحلي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥م.

٤٥- عبد العزيز عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، ط١، بيروت، ١٩٩١م.

٤٦- عبد القادر باش أعيان العبّاسيّ، موسوعة تاريخ البصرة، الجزء الأوّل، (د.ط)، بغداد، ١٩٨٨م.

٤٧- عبد الكريم محمود غرايبة، مقدّمة تاريخ العرب الحديث (١٥٠٠-١٩١٨م)، دمشق، ١٩٦٠م.

٤٨- عبد الكريم هدّاد، مدخل إلى الشعر الشّعبي العراقي- قراءة في تاريخ شعب، ط١، السّويد، ٢٠٠٣م.

٤٩- عبد الله الجورانيّ، دراسة وثائقيّة في تاريخ المنتفق الوطني، أحواله الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة أواخر العهد العثماني، بغداد، ٢٠٠٨م.

٥٠- عبد علي بن رحمة الله الحويزيّ البحرانيّ، تأريخ الدولة الأفراسيابية، دراسة تحقيق سعدون جاسم محمّد الجزائريّ، ط١، مؤسّسة النبراس للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.

٥١- عبد علي بن رحمة الله الحويزيّ البحراني، السّيرة المرضية في شرح الفرضيّة، تحقيق محمّد الخال، باسم تاريخ الإمارة الأفراسيابية، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، ١٩٦١م.

٥٢- عقيل عبد الحسين المالكيّ، ميسان وعشائرها قديماً وحديثاً، بغداد، ١٩٩٢م.

٥٣- عثمان بن سند الوائليّ البصريّ، مطالع السُّعود، تاريخ العراق من سنة (١١٨٨إلى سنة ١٢٤٢هـ/ ١٧٧٤-١٨٢٦م)، تحقيق عماد عبد السّلام رؤوف، وسهيلة عبد المجيد القيسيّ، الموصل، ١٩٩١م.

٥٤- علاء موسى كاظم نورس وعماد عبد السّلام، إمارة كعب العربيّة في القرن الثامن عشر على ضوء الوثائق البريطانيّة، بغداد، ١٩٨٢م.

٥٥- علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلاميّ العام،(الجاهليّة، الدولة العربيّة، الدولة العبّاسيّة)، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٧١م.

٥٦- علي الشّرقي، العرب والعراق، ط١، شركة الطبع والنشر الأهليّة، بغداد، ١٩٦٣م.

٥٧- علي الشّرقي، النوادي العراقيّة، القسم الثاني، جمع وتحقيق موسى الكرباسيّ، بغداد، ١٩٨٩م.

٥٨- علي الشّرقي، الألواح التاريخيّة، القسم الأوّل، جمع وتحقيق موسى الكرباسيّ، بغداد، ١٩٨٨م.

٥٩- علي الوردي، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث، ط١، إيران، ٢٠٠٥م.

٦٠- علي حسن غضبان، البويهيّون في فارس، ط١، بيروت، ٢٠١٤م.

٦١- علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني (١٦٣٨- ١٧٥٠ميلاديّة ١٠٤٨-١١٦٤هجريّة)، دراسة في أحواله السّياسيّة، ط١، الموصل، ١٩٨٥م.

٦٢- علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة، بغداد، ١٩٢٧م.

٦٣- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربيّ (١٥١٦-١٩٢٢م)، بيروت.

٦٤- غافن يونغ، العودة إلى الأهوار، ترجمة فريد شكاره، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٩٠م.

٦٥- ابن الغملاس، ولاة البصرة ومتسلّموها، دار منشورات البصريّ، بغداد، ١٩٦٢م.

٦٦- فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثمانيّ، رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانيّة، ط١، دار المدار الإسلاميّ، بيروت، ٢٠٠٢م.

٦٧- فتح الله الكعبيّ، زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر، ط٢، الدار العربيّة للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٢م.

٦٨- فتحيّة البراوي و محمّد نصر مهنّا، الخليج العربي دراسة في تاريخ العلاقات الدوليّة والإقليميّة، الإسكندريّة،(د.ت).

٦٩- فلادمير لوتسكي، تاريخ الأقطار العربيّة الحديث، دار التقدّم موسكو، ١٩٧١م.

٧٠- فلانين، الحاج ركان عرب الأهوار، تعريب جميل سعيد وإبراهيم شريف، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٦م.

٧١- فيصل السّامر، ثورة الزّنج، ط٢، بغداد، ١٩٧١م.

٧٢- قحطان عبد الستّار الحديثي و صلاح عبد الهادي الحيدريّ، دراسات في التاريخ السّاسانيّ والبيزنطيّ، ط١، البصرة، ١٩٨٦م.

٧٣- كارستن نيبور، رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، ترجمة سعاد هادي العمريّ وآخرون، ط١، دار الورّاق للنشر، بغداد، ٢٠١٢م.

٧٤- كارل بروكلمان تأريخ الشّعوب الإسلاميّة، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكيّ، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.

٧٥- كاظم الحلفيّ، مع الكتّاب والمفسّرينَ، دار الزهراء، بيروت.

٧٦- لجنة إعلام (مديريّة إرشاد المنطقة الجنوبيّة)، البصرة في مهرجان الشّعر التاسع، البصرة، ١٩٦٩م.

٧٧- مجموعة من المؤلّفين، موسوعة مشاهير العالم، الجزء الثالث، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م.

٧٨- محمّد بن خليفة بن حمد بن موسى النبهانيّ الطائيّ، التُّحفة النبهانيّة في تاريخ الجزيرة العربيّة، ط١، بيروت، ٢٠٠٤م.

٧٩- محمّد بن جرير الطبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

٨٠- محمّد حسن العيدروس، السّياسة العثمانيّة تجاه الخليج العربيّ في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، ط١، دار المتنبيّ للطباعة والنشر، (د.ت).

٨١- محمّد حسين الزبيديّ، إمارة المشعشعيّين أقدم إمارة عربيّة في عربستان، دار الحريّة ، بغداد، ١٩٨٣م.

٨٢- مركز الدراسات والوثائق في رأس الخيمة، الصِّلات التاريخيّة بين الخليج العربي والدولة العثمانيّة، ط١، رأس الخيمة، ٢٠٠١م.

٨٣- ناحية عبد الله إبراهيم، ريف بغداد دراسة تاريخيّة لتنظيماته الإداريّة وأحواله الاقتصاديّة (٥٧٥-٦٥٦هـ/ ١١٧٩-١٢٥٨م)، ط١، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٨٨م.

٨٤- نظمي زادة مرتضى أفندي، كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٧١م.

٨٥- نعمان بن محمّد بن العراق، معدن الجواهر في تاريخ البصرة والجزائر، مراجعة وتصحيح: حسن الزّين، بيروت، ١٩٨٧م.

٨٦- نعمان ماهر الكنانيّ، شعراء الواحدة، مطبعة دار الجمهوريّة، بغداد، ١٩٦٧م.

٨٧- نعمة الله الجزائريّ، زهر الرّبيع، النجف، ١٩٥٤م.

٨٨- نعمة الله الجزائريّ، الأنوار النعمانيّة، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م.

٨٩- نوري عبد الحميد العاني، العراق في العهد الجلائريّ(٧٣٨-٨١٤هـ/ ١٣٣٧-١٤١١م)، ط١، بغداد، ١٩٨٦م.

٩٠- نوري عبد الحميد العاني، العراق في القرن الخامس عشر الميلاديّ، بيروت، ٢٠١٤م.

٩١- نيقولاي إيفانوف، الفتح العثمانيّ للأقطار العربيّة (١٥١٦-١٥٧٤م)، ترجمة يوسف عطا الله، ط٢، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٤م.

٩٢- هادي العلوي، شخصيّات غير قلِقَة في الإسلام، ط٤، بيروت، ٢٠٠٧م.

٩٣- ولفرد ثسيكر، المعدان أو سكّان الأهوار، ترجمة: باقر الدّجيليّ، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٦م.

٩٤-ياسين بن حمزة بن أحمد الشِّهابيّ البصريّ، أُرجوزة في تاريخ البصرة (واقعة حسين باشا بن أفراسياب في البصرة المحميّة)، تحقيق: فاخر جبر مطر، بغداد، ١٩٩٠م.

٩٥- يعقوب سركيس، مباحث عراقيّة في الجغرافية والتاريخ والآثار وخِطط بغداد، القسم الثاني، تقديم رفائيل بطي و مير بصري، بغداد، ١٩٥٥م.

خامساً: البحوث والمقالات:

١- باقر أمين الورد، من أحداث بغداد في نهاية العهد العثمانيّ، جريدة المدى، العدد (٢٥٧٣)، بغداد،الاثنين(٢٧ آب ٢٠١٢م).

٢-تحسين حميد مجيد، تاريخ البصرة من مقتل المتوكّل حتّى التسّلط البويهيّ، موسوعة البصرة الحضاريّة (الموسوعة التاريخيّة)، جامعة البصرة، المركز الثقافي،

البصرة، ١٩٨٩م.

٣- طارق نافع الحمدانيّ، العلاقة بين أفراسياب والدولة العثمانيّة، مجلّة الخليج العربيّ، المجلّد السّادس عشر، البصرة، العدد الأوّل، ١٩٨٤م.

٤- طارق نافع الحمدانيّ، انتفاضات القوى العربيّة المحلّيّة في البصرة والجزائر ضدَّ التوسّع العثمانيّ خلال القرن السّادس عشر، مجلّة آفاق عربيّة، السّنة التاسعة، العدد(٨)، بغداد ١٩٨٤م.

٥- طارق نافع الحمدانيّ، موقف القوى المحلّيّة من الولاة العثمانيّينَ في البصرة خلال القرن السّادس عشر، مجلّة دراسات للأجيال، العدد الثالث، السّنة الخامسة، ١٩٨٢م.

٦- علي الشرقي، أشهر مدن البطائح الحاليّة، مجلّة لغة العرب، ج٩، السّنة الخامسة، ١٩٢٧م.

٧- علي الشرقي، آل أفراسياب وخراب الجزائر، مجلّة لغة العرب، ج١٠، ١٩٢٧م.

٨-علي الشرقي، الجزائر، مجلّة لغة العرب، ج٩، ١٩٢٧م.

٩- فلاح حسن عبد الحسين، مدينة البصرة كما وصفها الرحّالة الأوربيّون في العصر الحديث، موسوعة البصرة الحضاريّة (الموسوعة التاريخيّة)، جامعة البصرة، المركز الثقافي، البصرة، ١٩٨٩م.

١٠- محمّد كريم إبراهيم، البصرة في العصر العبّاسيّ الأخير، موسوعة البصرة الحضاريّة (الموسوعة التاريخيّة)، جامعة البصرة، المركز الثقافي، البصرة، ١٩٨٩م.

١١- محمّد هليل الجابريّ، موسوعة البصرة الحضاريّة (الموسوعة التاريخيّة)، جامعة البصرة، المركز الثقافي، البصرة، ١٩٨٩م.

١٢- مصطفى جواد، تذييل في المشعشعينَ، مجلّة لغة العرب، ج١٠، السّنة التاسعة، بغداد، تشرين الأوّل١٩٣١م.

١٣- يعقوب نعوم سركيس، العمارة والكوت، مجلّة لغة العرب، ج٩، السّنة ٨، أيلول ١٩٣٠م.

١٤- مصطفى عبد القادر النجّار، البصرة أوّل قاعدة بحريّة للتوسّع العثمانيّ في الخليج العربيّ (١٥٤٦-١٨٦٩م)، مجلّة دراسات تاريخيّة، العدد الثالث، جامعة دمشق، كانون الأوّل ١٩٨٠م.

سادساً: الرسائل

١-صورة من الرّسالة الموجّهة من الشّيخ كاظم الحلفيّ إلى السيّد نعمة السيّد أحمد آل شبيب، المؤرّخة في (١٩/ ٢/ ١٣٩٦هـ)، النجف الأشرف.(**نسخةٌ مصوَّرةٌ عنها لدى الباحثَينِ**).

political role of the area since the establishment of the Emirates of Al-I'ilayyan and Rabi'a in Al-Mudainah in 1216 till the Safawi occupation to Iraq in 1508. The second chapter explores Al-Mudainah conditions during the sixteenth century including the attitude of its people against the Ottoman occupation.

The study was based on a number of documents, basic sources and secondary bibliography. At the top of these are the published Ottoman documents, which were prepared, translated and studied by the academician Dr. Fadhil Mahdi Bayyaat in his documentary book " The Arab Land in the Ottoman Documents", which consists of three volumes issued in Istanbul in the years 2010, 2011, and 2014. In addition, the researcher has consulted a number of manuscripts, textbooks and scientific letters specialized in the history of Iraq.

Finally, it is hoped that we succeeded in shedding light on the facts, in accordance with our scientific and moral duty, hoping that this modest work becomes a useful step towards drawing the attention to an important phase of the history of Al-Mudainah and Al-Jaza'ir. Our ultimate goal is to promote better understanding to our past so as to learn the intended lessons and messages.

of Al-Mudainah at that period, which we have followed (in the light of the available sources) since the foundation of the emirates of Aal I'ilayyan in Nahr Salih and Rabi'a in Nahr Antar in about (613 H. – 1216 A.H.) up to the end of Aal Afrasyaab Family and the following events which ended by putting Al-Mudainah under the control of Al-Mintifiq emirs at the end of the seventeenth century and the beginning of the eighteenth century A.H.

This modest study is an attempt to shed light on the historical role played by the people of Al-Jaza'ir in general and Al-Mudainah in particular. This is embodied by resisting the outside aggression during an important period of the history of Iraq, during the Ottoman occupation to Basra, with a unique resistance spirit, since these two areas were the last resistance areas in Basra, if not in the whole Iraq.

It is worth noting here that the focus point in this research is to point out the history of Al-Mudainah District in its geographical framework. The reference to Al-Jaz'ir area along this study implicitly refers to Al-Mudainah since it was called by this name in most of the historical contemporary references.

The nature of the topic necessitates its division into two chapters preceded by an introduction. The introduction was confined to study the formation of Al-Bata'ih Area in the south of Iraq and its geographical nature. This was followed by investigating the

Abstract

Al-bata'ih area in the south of Iraq has played an important and influential role in the political life since the old eras starting from the Islamic and modern periods up to the present time. This area has witnessed the occurrence of many movements and uprisings of a revolutionary nature, carried out by different classes of people of various interests, faiths, and tribal origins. These movements made use of the unique geographical and environmental characteristics of the area which was taken as a safe shelter for oppressed people and as a suitable place to promote resistance by its citizens.

Since Al-Jaza'ir was a part of Al-bata'ih, it took part in its historical roles and has become more influential in this area, especially after the foundation of Rabi'a and Aal l'ilayyan emirates in Al-Mudainah. These two emirates have played an essential role in the major events, particularly during the invasion of Ottomans to Basra (1546 A.H.) and in the following events in which people of Al-Jazai'r had an important contribution . At that time, Al-Mudainah was the capital of Al-Jaza'ir and a headquarter for its leaders.

Due to this importance, we have decided to study the history

فهرس المحتويات

مقدّمة النّاشر	١١
تقديم	١٣
المقدّمـــة	١٥
تمهيد – (المْدَيْنَة) حتّى السّيطرة العثمانيّة على البصرة (١٥٤٦م)	٢٥
أوّلاً: مدخلٌ في جغرافية المنطقة	٢٦
ثانياً: قيام إمارتَي ربيعة وآل عليّان في (المْدَيْنَة)	٣٠
ثالثاً: (المْدَيْنَة) إبّان الاحتلال الصفويّ للعراق (١٥٠٨-١٥٣٤م)	٤١
الفَصْلُ الأوّلُ	٤٥
(المْدَيْنَةُ) في مطلعِ العهد العثمانيّ (١٥٤٦-١٥٩٦م)	٤٧
أوّلاً: موقفُ أمراءِ الجزائر من الاحتلالِ العثمانيّ للبصرة (١٥٤٦م)	٤٧
ثانياً: الإدارةُ العثمانيّة في (المْدَيْنَة) والجزائر	٥٥
ثالثاً: حملة إسكندر باشا الجركسي على (المْدَيْنَة) عام (١٥٦٧م)	٧٣
الفصلُ الثّاني	٩١
أحوالُ (المْدَيْنَة) منذُ قيامِ حكومةِ أفراسياب (١٥٩٦م) حتّى عام (١٧١٨م)	٩٣
حكومةُ أفراسياب في البصرة وعلاقتُها بأُمراء الجزائر	٩٣
الصّراعُ بين إمارة ربيعة في نهر عنتر وعلي باشا أفراسياب	١٠٠
سقوطُ إمارة آل عليّان في نهر صالح، وأثره في منطقة الجزائر	١٠٧
الصّراعُ العثمانيُّ- الأفراسيابيُّ وأثرُه في منطقة الجزائر	١١٩
نبذةٌ عن الأوضاعِ الاجتماعيّةِ في الجَزائرِ	١٣٧
الخاتمة	١٤٥

الملاحق ١٥١
المصادرُ والمراجعُ ١٥٩
Abstract ١٧٦
فهرس المحتويات ١٧٧